يدُ الشعر

خمسةُ شعراء متصوّفة من فارس

محاضرات ألقاها عنايت خان

ترجمات قام بهاكُلمان باركس

ترجمه عن الإنكليزية وقدَّم له

د.عيسى علي العاكوب

اكر آن ترك شيرازى بدست آرد دل ما را

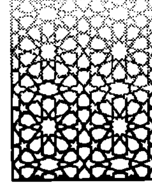
بخال هندويش بخشم سمرقند وبخارا را

دار الفكر
دمشق - سورية



دار الفكر المعاصر
بيروت - لبنان

يد الشعر : خمسة شعراء متصوفة من فارس/ عنايت خان؛
ترجمة كلمان باركس؛ ترجمه عن الإنكليزية وقدم له عيسى علي
العاكوب . - دمشق : دار الفكر، ١٩٩٨ . - ٢٧١ص؛ ٢٤سم .
١- ٨٩١خ ا ن ي ٢- ٩٢٨خ ا ن ي ٣- العنوان
٤- خان ٥- باركس ٦- العاكوب
مكتبة الأسد
ع- ١٩٩٨/١/٤٨



يَدُ الشِّعْر

خمسة شعراء متصوفة من فارس
محاضرات ألقاها عنايت خان

ترجمات قام بها كُلِمان باركس

ترجمه عن الإنكليزية وقدّم له

الدكتور عيسى علي العاكوب

جامعة حلب

جامعة الإمارات العربية المتحدة

دار الفكر
دمشق - سورية



دار الفكر المعاصر
بيروت - لبنان

الرقم الاصطلاحي : ١١٦٥,٠١١
الرقم الدولي : ISBN: 1-57547-455-7
الرقم الموضوعي : ٨٤٠
الموضوع : الشعر
العنوان : يد الشِّعر
التأليف : عنايت خان
ترجمة عن الإنكليزية : د. عيسى علي العاكوب
الصف التصويري : دار الفكر - دمشق
التنفيذ الطباعي : المطبعة العلمية - دمشق
عدد الصفحات : ٢٧٢ ص
قياس الصفحة : ١٧×٢٥سم
عدد النسخ : ١٠٠٠ نسخة

دار الفكر بدمشق
برامكة مقابل مركز الانطلاق الموحد
ص.ب : (٩٦٢) دمشق - سورية
برقياً : فكر
فاكس ٢٢٣٩٧١٦
هاتف ٢٢٣٩٧١٧، ٢٢١١١٦٦
http://www.fikr.com/
E-mail: info @fikr.com





الطبعة الأولى

1418هـ = 1998 م

فهرس المحتويات

الموضوع	الصفحة
تقديم المترجم إلى العربية	٩
مدخل	٤١
مقدمة المترجم إلى الإنكليزية	٤٦
عنايت خان عن	
الشاعر والنبي	٤٩
سنائي : الظلام الخيِّر	٦١
مدخل المترجم	٦٣
يعلِّم التلاميذ	٦٥
التدفّق	٦٧
وردة الذِّكر البرية	٧٠
العمل النشيط	٧٢
الظلام الخيِّر	٧٤
عارٍ في بيت النَّحل	٧٦
هدايةُ دودة الأرض	٨٢
اللغز	٨٤
الوقت المطلوب	٨٥
رحلة النفس في عوالم الزمان	٨٦
عنايت خان عن	
العَطّار : كنّاس الشوارع	٩٣
مدخل المترجم	١٠٤
المرأة التي ارتدت زيّ رجل	١٠٦
الاستماع إلى الناي	١١٨
كناس الشارع	١١٩

الموضوع	الصفحة
ابحث عن وجهك أنت	١٢٠
المولود الجديد	١٢١
تصوّف	١٢٣
من مؤتمر الطَّيْر	١٢٤
عنايت خان عن	
الرّومي : أغنية الطير تتحرك خلالنا كالمطر	١٢٩
مدخل المترجم	١٤٠
تشير إلى الهلال	١٤٢
الناي	١٤٣
البدر ، بلال	١٤٦
قل من أنا	١٥٥
مباركة الزواج	١٥٧
قصة حكاها شمس	١٥٨
الوفاة	١٦٠
الهلال	١٦٤
لن تربح هنا بالشهرة الواسعة	١٧١
التواضع لا يضع	١٧٢
بعض الأرواح تنساب كالماء النير	١٧٣
حِرْفيّ جرّ القصة	١٧٤
يزعمون أنّني أقول الحقيقة	١٧٥
لا تحاول أن تستمر على هذا	١٧٦
ارْحَلْ ، بعِلْمك	١٧٧
أيها الحبيب ، هذا الحديث عنك	١٧٨
أنتَ يا مَنْ سلّمتَني هذه الكأس	١٧٩
الآن	١٨٠
العنز العرجاء	١٨٢

الموضوع	الصفحة
عنايت خان عن	
سَعْدي الشيرازيّ : الزّوجةُ وعُشُّ الزّنابير	١٨٣
مدخل المترجم	١٩٤
سمعتُ عن رجل مرّة	١٩٦
رجلٌ ما ، أعزلُ تمامًا	١٩٧
رجلٌ عنده زوجٌ حسناء	١٩٨
وضعوا غراباً في القفص مع ببغاء	١٩٩
سألتُ عالماً	٢٠٠
كانت زوج أحد الدراويش حاملاً	٢٠١
مَللْتُ الصُّحبة	٢٠٢
في بغداد رجل عجوز	٢٠٣
ملكُ العرب سمع الحكاية	٢٠٤
دخل أحدُهم المدينة	٢٠٥
مَنْ ينصحُ رجلاً مغرورًا	٢٠٦
حدثَ هذا عندما كنتُ شابًا	٢٠٧
في إحدى الليالي كنتُ أفكّر	٢٠٨
عنايت خان عن	
حافظ : التحوُّل الرّائع	٢٠٩
مدخل المترجم	٢١٩
الطريدة	٢٢٣
الغزال البرّي	٢٢٤
نكران الذات ، واللغز الآخر	٢٢٧
المادة التي تذوّقتَها	٢٢٩
اسْكُبْ لي أكثرَ	٢٣١
المخاطرة	٢٣٢
حلقة الذّكْرِ	٢٣٣

الموضوع	الصفحة
ريحُ الوردة المتفتحة	٢٣٥
الابنةُ	٢٣٦
إيماءاتُك	٢٣٧
الْخُزامى النامية	٢٣٨
سؤال منتصف الليل	٢٤٠
فارغ تقريبًا	٢٤١
أنا أرى	٢٤٢
الحافّة	٢٤٤
رُكْنا باد	٢٤٥
مَمَرُّ الله أكبر	٢٤٦
ردّي على عَرْضِكَ	٢٤٧
مفقودة	٢٤٩
شيراز	٢٥٠
الأمواهُ تجري معًا	٢٥٢
إشارةُ البَدْء	٢٥٤
الوليمة	٢٥٥
اش	٢٥٦
تغيُّرٌ في النسيم	٢٥٧
تلك اللحظةُ في هذه	٢٥٨
يأخذ لغزاً إلى الحانة	٢٥٩
تذكّروا	٢٦١
الدّليل الجديد	٢٦٢
نقوشٌ على الباب	٢٦٤
خمرةُ السؤال	٢٦٦
العودة	٢٦٧
تعريف بكُلِمان باركس وعنايت خان	٢٦٨
المصادر	٢٦٩

تقديم المترجم إلى العربية

الحمدُ للهِ ربّ العالمين ، والصلاة والسلام على نبيّه الهادي الأمين . اللهمّ بك أستعينُ ، وبك أستبين ، وعليك أتوكّل . أمّا بعد :

فإنّ ما قيل في تعريف التصوّف كثيرٌ ، لكن هذا الكثير يلحظ غالبًا جانبًا واحدًا من جوانب الأمر ؛ تبعًا لقصور النظر البشريّ وانطلاقه في الأعم الأغلب مما يبدو للبصيرة أكثر جوانب الظاهرة بروزًا . ويبدو لنا أنّ التصوّف ظاهرةٌ من ظواهر التديّن ، يسعى فيها المتديّن إلى تحقيق أقصى درجات المعرفة والْقُرْب الدّائمين من الخالق سبحانه . والمعرفةُ والقربُ يشكّلان جوهر التحقّق الرّوحي الذي ينشُده المتصوّفة ، ثم يصلون إليه بعد رحلة المجاهدة والعناء . ويثير هذا الفهمُ تساؤلاً يُصاغ على هذا النحو : إذا كان قصدُ المتصوّف تحقيقَ المعرفة والقرب من مولاه سبحانه ، فهل يعني هذا أن الله سبحانه مجهولٌ وبعيدٌ بالنسبة إلى عامّة عباده ؟. الإجابة عن هذا السؤال في القرآن الكريم ؛ إذ يبيِّن المولى سبحانه أنّ عباده يسألون عن قربه منهم وإجابته دعاءهم ، وأنّ هذا القرب أساسُ الاستجابة لله سبحانه والإيمان به : ﴿ وإذا سألك عبادي عنّي فإنّي قريبٌ أجيبُ دعوة الدّاعي إذا دعانِ فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلّهم يرشدون ﴾ [البقرة : ٢/١٨٦] .

أمّا معرفةُ الله سبحانه على وجه الحقّ فأمُّ المشكلات التي وقعت فيها الإنسانية في تاريخها ؛ ومن أجلها بعث اللهُ سبحانه الأنبياء الواحدَ تلو الآخر ، ونزّل الكتب تترى ؛ لتبيّن للعباد معبودهم الحق .

ويمكن أن يقول المرء باطمئنان إنّ صوفية المسلمين قد وعوا جيّدًا هدى الله الذي

أتى به الأنبياءُ ، وتنزّلت به كتبُ السماء . ومن هنا قدّموا تصوّرًا عاليًا للذات العلية وللكون وبالجملة ما يمكن أن يوضح للناس طريق الحقّ ومحجّته البيضاء . وأيًّا كان موقفنا من التصوّف وأهله فإنّ الذي لا مِراء فيه أنّ القوم قدّموا ضرْبًا من المعرفة الدينية ستظلّ الإنسانيةُ محتاجةً إليه ما طلبت الحقيقة وسعت إليها .

وما يميز المعرفةَ الصوفية أنها تدور في فلك حقيقة الحقائق جميعًا ؛ معرفة الله سبحانه ، وأنّها تقدّم للإنسان طريقة للسموّ الروحيّ لا يجدها المرءُ في مجال معرفيّ آخر . ويمكن القول إنّ الصوفية الحقيقيين هم علماء النفس الجديرون بهذا اللقب ، وأطبّاء القلوب الخليقون بهذا الوصف . واسمع ما يقول أحدهم في تدرّج النفس في سيرها نحو الكمال : « فإنّ الرّوح ما دامت متظلّمة بالمعاصي والذنوب والشهوات والعيوب سمّيت نفسا ، فإذا انزجرت وانعقلت انعقالَ البعير سمّيت عقلا ، فما زالت تتقلّب في الغفلة والحضور سمّيت قلبا ، فإذا اطمأنّت وسكنت واستراحت من تعب البشرية سمّيت روحا ، فإذا تصفّت من غبش الحسّ سمّيت سِرّا ؛ لكونها صارت سرّا من أسرار الله حين رجعت إلى أصلها ، وهو سرُّ الجبروت » .

وتمتازُ لغةُ أهل العرفان بالشفافية والإشراق وكثافة الدلالة وقوة الإيحاء والرمز . وقد وُجد بين صوفية الإسلام عربًا وعجمًا شعراء كبار عطّروا الحياة بأشذاء لا عهد لها بها ، أشذاء لا تملّها الأنوف على طول تنسُّمها .

والكتاب الذي نقدّم ترجمته العربية للقارئ الكريم ، يقدّم مادّة معرفية ثلاثية التكوين : ففيه خمس محاضرات للصوفيّ الهنديّ الكبير عنايت خان (المتوفى عام ١٩٢٧ م) ؛ وكان قد ألقاها في مدينة سان فرانسيسكو الأمريكية في ربيع عام ١٩٢٣ م ، باللغة الإنجليزية ؛ ابتغاء تعريف الجمهور الغربي بالشعر الصوفي الفارسيّ وأعلامه الكبار . ويتناول عنايت خان في كلّ من هذه المحاضرات شاعرًا من شعراء التصوّف الفارسيّ الأعلام : السّنائي ، فريد الدين العطار ، جلال الدين الروميّ ، السعدي الشيرازيّ ، الحافظ الشيرازيّ . وقد ضُمّ إلى كلّ من هذه المحاضرات مدخل إلى

الشاعر وشعره واختيارات من شعره مترجمة شعرًا إلى الإنجليزية من صنيع الشاعر الأمريكي المعاصر كلمان باركس Coleman Barks[١] .

وعنوان الكتاب بالإنجليزية :

The Hand of Poetry

Five Mystic Poets of Persia

وقد بدا لنا أنّ العنوان العربي المقابل لذلك هو :

يدُ الشّعر

خمسة شعراء متصوّفة من فارس

ويبدو أنّ تسمية الكتاب « يد الشعر » قد جاءت من كون الشعراء الذين يتحدّث عنهم خمسة ، ومن كونهم يؤلّفون وحدة متكاملة كما تؤلّف أصابع الكفّ اليد الواحدة . ولذلك قال الشاعر العربي :

أصابعُ كفّ المرء في العدّ خمسةٌ ولكنّها في مقبض السّيف واحِدُ

ونجدنا في هذا التقديم في حاجة إلى الإشارة إلى أنّ محاضرات عنايت خان موجّهة أساسًا إلى القارئ الغربيّ ؛ ومن هذه الوجهة قد يجد القارئ العربيّ المسلم في هذه المحاضرات عبارات وفِكَرًا تجافي ذوقه نسبيًّا ، لكنّ عليه أن يضع في الحسبان المقام الذي قيلت فيه المحاضرات وطبيعة الجمهور الذي يخاطبه المحاضر . وينسحب هذا على تقدمات كلمان باركس وتصرّفاته في النصّ المترجم . وكنت أنا نفسي أعاني أحيانًا من هذا الأمر في أثناء الترجمة ، لكنّي آثرتُ الوفاء لمطالب النصّ الإنجليزي برغم درايتي المدى الذي تجاوز فيه النصّ الإنجليزي حدود النصّ الفارسيّ .

والشعراء الخمسة الذين تناولهم الكتاب يمثّلون نخبة طيبة من أبرز شعراء العالم .

(١) انظر التعريف بكلّ من عنايت خان وكلمان باركس ص ٢٦٨ من هذا الكتاب .

وإذا كان العالم القديم قد شهد لهؤلاء الشعراء بالفذاذة والتفوّق ، ويشهد لهم عالَمُ اليوم بالألمعية ، فما ذلك إلاّ لعظمة الإسلام الذي اغترفوا من معينه ، وسرت حُميّاه في نفوسهم ؛ فطلعوا على الدنيا بهذه الأناشيد العذبة الخالدة التي تعبّر عن بهجة الإنسان بالوصول ، ونشوته بالاقتراب من الحضرة ، وسعادته بالتحقّق الصادق والإنسانية الكاملة . وما يمكن أن يلخّص حال هؤلاء الشعراء أنّهم فقهوا الكتب السماوية ، وأدركوا مهمّات الأنبياء عليهم السلام ، وتبيّنوا جوهر الرسالات . وعندما استيقنت قلوبهم ذلك كله وامتلأت به فاضت قرائحهم بهذا الكلام النورانيّ الذي لا يظفر به المرء عند سواهم . وفي هذا المعنى يقول عنايت خان في إعلان المحاضرة الأولى بعنوان « الشاعر والنبي » :

تفسَّر الكتبُ المقدسة عند الأمم المختلفة من جانب الأنبياء والشعراء الروحيين في كلّ عصر ، ليس بوصفها مبادئ مجرّدة ، بل على أنّها محرّكات للقلب الإنساني . وهم يرسمون الطريق لحريتنا الروحية ؛ فبجرّةِ قلم واحدة يحرّروننا من حيث نحن أرواح ، وبجرّة أخرى يبيّنون لنا كيف نتكلّم مباشرةً من القلب ، ثم بكلّ تلقائية يحطّمون عوائق القيد الإنسانيّ والعبوديات الروحية[1] .

١ ـ السّنائي

هو الحكيم أبو المجد مجدود بن آدم ، كان من مشاهير شعراء التصوّف في القرن السادس الهجريّ ، ومن أعلام الشعر الفارسيّ في كلّ عصوره .

وفي أخبار الرجل أنّه « ولد في غزنة في أوائل ، أو أواسط ، النصف الثاني من القرن الخامس الهجريّ ، واتصل بعد اكتمال شاعريته بسلاطين الغزنويين وكبار رجال دولتهم ، ومدحهم ، ولكنه لم ينل لديهم من الحظّ والجاه الدنيويّ ما يليق بمقامه وطموحه ، فتولّى عنهم وتجرّد عن أطماعه واستغنى بكنز القناعة ، وعزف عن السير في

(١) انظر إعلان المحاضرات ص ٤٤ من هذا الكتاب .

ركاب أهل السلطان ، وصرف نفسه عما في أيديهم ، واتجه بكل رجائه وقلبه إلى ربّه »[١] .

والعملُ الشعريّ الكبير للسّنائي هو مَثْنويّه الشهير « حديقة الحقيقة » . وقد ضمّنه السنائي حكايات تمثيلية ومواعظ وحِكَمًا . وبلغت عدّة أبياته عشرة آلاف ، موزّعة على عشرة أبواب . وقد نظمه على البحر الخفيف ، وصدَّره باسم السلطان بهرامشاه الغزنوي .

ويرجّح بعض أهل الشأن أن يكون السنائي قد لقي وجه ربّه سنة ٥٣٥ هـ ـ ١١٤٠ م . ويزور ضريحه في غزنة إلى اليوم عامّة الناس وخاصتهم . ولشعر السنائي عبق خاصّ ودفء تستبدّ آثاره بالنفس ، ورشاقة تطير بالإنسان إلى آفاق من السموّ الروحيّ الذي يحدّثنا عنه أصحاب النفوس الكبيرة الذين يأتينا بهم الزمان في ربيعه الذي لا يطلّ على الدنيا إلاّ نَزْرا . ففي أشعار السنائي تقديم للإيمان الصحيح غاية في الشفافية والسموّ والعناق الروحيّ للحقائق الكبرى ؛ تقديم يجعل إنسانية الإنسان في أن لا ينشغل بسَفْساف الدنيا عن « حبيب » لا ينبغي أن يصرفه عنه صارف أيّا كان . وفي قصيدة له بعنوان « العمل النشط » يقول الحكيم السنائي :

إذا كنتَ تبغي الحظوة باللؤلؤة ،
فارحلْ عن الداخل ، وطوّف في البحار .
وحتى إن لم تجدها ،
فأنت على الأقلّ
قريبٌ من الماء .
كن محاربًا !

(١) الدكتور أمين عبد المجيد بدوي : القصّة في الأدب الفارسيّ ، ص ٤٠٥ ؛ دار النهضة العربية ، بيروت ١٩٨١ م .

اطلبْ شيئًا ما
بقوة ! امتطِ صهوةَ جوادك
واستعدَّ للبحث .
لا تقبلْ تاجًا
مصنوعًا من هذه السماء المرئية .
انتظر ما يأتيكَ به جبريل .
اجهدْ في العمل الذي
يوصلُك إلى الله !
الضعيفُ والمريضُ لا « يفكّران » إلاّ
بالاستسلام . استلقِ أمام
الباب الذي تتوق إلى أن تدخله .
أعلنْ حبَّك كلّه .
الكلبُ وحْدَه يُقعي متبطّلاً
منشغلاً بلَعْق عظمٍ تافه(١).

وعلى هذا النحو تتحوّل حياةُ الإنسان إلى ضربٍ من السّير الدائب الذي لا ينتهي قبل بلوغ المرام . وبذلك يخرج العارفُ من سجن الوجود إلى فضاء الشهود ، فلا يرى إلاّ « الحبيب » .

ولا يخفى أنّ روعة مثل هذا الشعر إنما تكون على أشدّها عندما يُنْشَد بلغته التي نُظم فيها أولاً ؛ اللغة الفارسية . ويعلّمنا السنائي هنا كيف نكون أحبّاء الله سبحانه ، وكيف نكون أقوياء في هذه الدنيا . على أن فكرة مجاوزة الشاطئ إلى الأعماق من

(١) انظر هذا الكتاب ص ٧٢ .

الفِكَر التي تطالعنا عند غير قليل من أساتيذ الشعر الصوفي الفارسيّ . فقد عرضَ لها سعدي الشيرازي حين قال :

بدريا در منافع بي شمار استْ　　اكَرخواهى سلامتْ دركنار استْ

وترجمة البيت :

في البحر منافع لا تُحصى عدًّا　　وإن شئتَ السلامة فالزم الشاطئ

أمّا الشاعر الإسلاميّ الكبير محمد إقبال فيقول في هذا المعنى ما ترجمتُه :

دَعِ الشطآنَ، لا تركنْ إليها　　ضعيفٌ عندها جَرْسُ الحياةِ
عليكَ البحرَ صارعْ فيه موجًا　　حياةُ الخلْدِ في نصَبٍ تواتي

ويرى السنائي أنّ العارف الحقّ نادر الوجود في هذه الحياة ، ويحتاج الزمانُ إلى وقت طويل ليجود بمثل السنائي والعطّار والروميّ والسعديّ والحافظ وابن الفارض وابن عربيّ وعبد الغني النابلسيّ ..يقول في قصيدة بعنوان « الوقت المطلوب » :

إنّ سنينَ كثيرة ينبغي أن تمرّ قبل أن
تستطيع الشمسُ تحويلَ صخرةٍ يمنية إلى ياقوتة .
وأشهرًا ينبغي أن تمرّ قبل أن تستطيع بذرةُ القطن
تقديمَ غطاء لا تجعيد فيه .
وأيّامًا يجب أن تنقضي قبل أن
يصبح مقدارٌ من الصوف حبلَ مشنقة .
وعشراتِ السنين لا بدّ منها ليغدو
الطفلُ شاعرًا .
وحضاراتٍ تسقط وتختفي آثارها

لتنمو روضةٌ فوق هذه الآثار؛
الصوفيّ الحقّ[١] .

ويقدّم الكتاب الذي بين أيدينا اختيارًا طيّبًا من مثنويات الحكيم السنائي ، لعلّ القارئ الكريم يجد فيها ما يبهج نفسه . ولن يغيب عن القارئ أن إدراك مقاصد شعراء التصوّف الفارسيّ يستلزم حدًّا أدنى من الثقافة في مجال الأدب الصوفيّ على الجملة ، والشعر الصوفي الفارسيّ على نحو خاص . ولعلّ الأجر هنا كفاءُ المشقّة ، كما يقولون .

٢ ـ فريد الدين العطّار :

هو أبو حامد محمد بن إبراهيم بن أبي يعقوب إسحاق بن إبراهيم العطّار مهنةً ، النيسابوريّ مولدا[٢] . وليس ثمة تاريخ دقيق لسنة ميلاده وسنة وفاته ، لكن الباحثين يكادون يجمعون على أنّ وفاته كانت سنة سبع وعشرين وستمائة هجرية . وقد دفن في مدينة نيسابور ، وما زال قبره قائماً بها إلى اليوم[٣] .

وتذكر الأخبار من أمره أنّه أثرى من حرفة العطارة والتطبيب . وأنّه أبدى منذ يفاعته ميْلا إلى الأدب والثقافة والشعر ونزوعًا واضحًا إلى التصوّف والعرفان ، وأنه كان طويل الباع في علوم الحديث والتفسير والفقه والطب والنجوم .

ترك العطار عددًا كبيرًا من المؤلّفات أشهرها :

١ ـ تذكرة الأولياء ، وهو كتابه النثريّ الوحيد ، ٢ ـ منطق الطير ، ٣ ـ إلهي نامه ، ٤ ـ الديوان في عشرة آلاف بيت ، ٥ ـ پندنامه ، ٦ ـ مصيبت نامه ، ٧ ـ مختار نامه ، ٨ ـ أسرار نامه ، ٩ ـ خسرونامه[٤] .

---

(١) انظر هذا الكتاب ، ص ٨٥ .
(٢) الباعي محمد السباعي : النثر الفارسيّ ، ص ٤٣٧ ؛ دار الثقافة ، القاهرة ١٩٧٨ م .
(٣) بديع محمد جمعة : من روائع الأدب الفارسي ، ص ٢٥٧ ـ ٢٥٨ ؛ دار النهضة العربية بيروت ١٩٨٠ م .
(٤) السابق ، ص ٢٥٨ ـ ٢٥٩ .

ويرى بعضهم أنه كان « مريدًا للشيخ مجد الدين البغداديّ تلميذ الشيخ نجم الدين كبرى . وأنّه ساح سياحات صوفية كثيرة »(١) .

وليس في تصوّف العطّار ما ينأى به عن جادة الشرع من شطحات ومبالغات ، وهو يرى « أن جميع الكائنات في هذه الدنيا طالبةٌ للحقّ والحقيقة ، وباحثة عن الوصال ، وأنّ الإنسان الكامل لكي يدرك واقعه الحقيقيّ عليه أن يسلك مراحل مختلفة ، فيترك المحسوس الذي هو دنيا الشهوة والهوى ، ويبتعد عن المعقول ويترك المعدوم والفاني ، ويتّجه كلّيةً إلى توحيد الباقي . وطيّ هذه الدرجات شاقّ وعسير ، والسير والسلوك إلى الله ينتهي بالفناء في الله ، فإذا وصل إلى مقام الفناء فني عن نفسه وبقي بالحقّ ، وعندئذ لا يكون شيء سوى الحق »(٢) .

هذه خلاصة آراء العطار في السير والسلوك . وأشهر كتبه في هذا الشأن منظومته « منطق الطير » . وقد استمدّ التسمية من قوله سبحانه على لسان سليمان عليه السلام في سورة النمل : ﴿ ووَرِث سليمانُ داودَ وقال ياأيها الناسُ عُلِّمنا منطقَ الطير وأوتينا من كلّ شيء إنّ هذا لهو الفضلُ المبين ﴾ [الآية ١٦] . وإذا كان سليمان عليه السلام قد عُلّم منطق الطير وأوتي من كلّ شيء ، فإنّ من الطير من أحاط بما لم يُحط به سليمان ؛ إذ يقول الهدهد لسليمان : ﴿ أحطتُ بمالم تُحط به وجئتُكَ من سَبَأ بنبأ يقين ﴾ [النمل : ٢٢/٢٧] . وقد أفاد العطار من عناصر هذه القصة القرآنية في كتابه هذا . ويقع الكتابُ في مقدمةٍ وخمس وأربعين مقالة . وعمد العطار إلى أن يورد بعد كلّ مقالة طائفة من الحكايات التي تصور آراءه ومعتقداته .

ويُجمع كثير من الدارسين على أن كتاب « منطق الطير » من كتب التراث الإسلاميّ الصوفيّ الهامة ، ونتيجة لهذه الأهمية فقد ترجم إلى عدة لغات منها :

(١) النثر الفارسيّ ، ص ٤٣٨ .
(٢) السابق ، ص ٤٤٠ .

الإنجليزية والفرنسية والألمانية والروسية والهولندية والهندية والتركية وأخيرًا العربية »[1] .

أراد العطار في هذا الكتاب أن يمثّل لفكرة سير المتصوّف وسلوكه الطريق إلى الله سبحانه ، ثم وصوله وتعرّفه مولاه سبحانه ؛ إذ هذه حقيقة الحقائق عند العارفين . وصوّر ذلك من خلال حكاية يجتمع فيها عدد كبير من الطيور برياسة الهدهد يتدارسون حاجتهم إلى ملك يدبّر أمورهم ويمتثلون لأمره جميعًا ؛ فذلك شأن الجماعات كلّها ، فلِمَ تحيا الطيور من دون ملك مرشد ؟!. وههنا يذكر الهدهد أنّ لهم ملِكا اسمه « السِّيمُرْغ » وأنه يعيش وراء جبل قاف ، وأنّ الوصول إلى هذا الملك غاية في الصعوبة ، ويحتاج الوصول إليه إلى اجتياز كثير من المخاطر والأهوال . وعندما يبدي كثير من الطير عجزه عن السّير ، يردّ الهدهد على كلّ منهم بما يثبت له أن حجّته داحضة ، وأن اجتياز الطريق وسلوكه لا يعتمد على القوة العضلية ، بل على عزم السالك المريد وتفانيه وبذله الجسد والروح ابتغاء الوصول إلى الحضرة والظفر منها بالقبول والرضا .

وههنا تقرّر الطيور المضيّ قدمًا في رحلة السير والسلوك إلى مليكها ، وبعد قدر كبير من العنت والمشقة يدبّ الضعف في بعض الطيور فتتوقف عن المسير ؛ لضعف جذوة الإيمان في قلوبها ، ولانشغال بعضها الآخر بمفاتن الطريق . ويستلزم اجتياز الطريق قطْعَ سبعة أودية هي : وادي الطلب ، ووادي العشق ، ووادي المعرفة ، ووادي الاستغناء ، ووادي التوحيد ، ووادي الوَلَه والدهشة ، ووادي الفناء . وبعد اجتياز الأودية السبعة لا يصل إلى حضرة « السِّيمُرْغ » إلاّ ثلاثون طائراً بعد فناء أعداد هائلة من الطيور لضعف إيمانها . ويقول رضا زاده شفق في تفسير مُراد العطار من هذه الحكاية : « وقد مثّل العطار بهذه القصة لسيرة أهل العرفان ورياضتهم الشاقة في طيّ طريق الكمال الإنساني للوصول إلى كنه الحقيقة بالفناء في ذات المحبوب الأسمى ، وما يتطلّبه

(١) من روائع الأدب الفارسي ، ص ٢٥٧ .

طيّ هذه الطريق من جهد كبير وجلَد بالغ للتغلّب على متاعبها الجمّة واجتياز مراحلها السبع التي يعبّر عنها المتصوّفة بالمقامات السبعة . وأولها مقام الطلب لأن المريد ما لم يطلب طريق الكمال لا يغبّر فيها قدما . وثانيها مقام العشق ، إذ يتحتم عليه الحبُّ ليسلك طريق الوصال . وثالثها مقام المعرفة ، والسالكون للطريق مختلفون من حيث البصر والمعرفة ، وكلّ منهم يتخيّر الطريق التي تؤهلّه لها عزيمتُه واستعداده ؛ فهذا يسلك طريق القِبْلة ، وذاك يأخذ طريق الصنم ، ومن كلّ مائة ألف سالك يهتدي واحد ، ومقام كلّ امرئ بقدر معرفته . ورابعها مقام الاستغناء ، ولا يصل إليه إلاّ عارف حكيم غسل يديه من الدنيا وأهلها في سبيل بلوغ مقصده الأسمى . والصوفيّ البصير يرى الدنيا كنقشٍ على لوحٍ من الطين سرعان ما يتحطّم فيذهب معه . وخامسها مقام التوحيد ؛ فإذا وصل العارفُ إلى هذا المقام رأى الوحدة كامنة في مظاهرِ الكثرة ويشاهد الله في كل شيء ، ويصبح كلّ وجود ظاهر لديه عَدَمًا إلى جانب واجب الوجود الذي منه وجود كلّ شيء . وسادسها مقام الْحَيْرة ، ويجب أن يبلغه كلّ عارف ويطوي إليه وادي الوَلَه والدهشة . وفي هذا المقام يقف المرء على قصور معارفه وجهله فيذهل حتى عن وجوده . وسابعها مقام الفناء ؛ وفيه يزول عن المرء كلّ شهواته وغروره وأنانيته ، أو بعبارة أخرى يفقد ذاته ، ويصبح جزءًا من عالم الوحدة ووترًا متناغمًا مع سائر أوتاره ، ويصل بهذا الفناء إلى البقاء »[(١)] .

وقد اختار العطار لملك الطير ، الذي عبّر عن « الله » سبحانه ، اسم « السِّيمُرْغ » الذي يعني بالفارسية الثلاثين طائرا ؛ وذلك ليصل إلى الفكرة الأخيرة في القصة التي تقول إنّ الثلاثين طائرا « السيمرغ » بعد اجتياز الوديان السبعة تصل إلى « السيمرغ » ، أي الملك وتفنى فيه وتصبح هي هو وهو هي ، وتظفر بالبقاء عن طريق الفناء . وفي هذا يقول العطار من فصل عنوانه : « ذهاب الطير إلى السيمرغ ، ووصول الثلاثين طائرًا في تلك الأعتاب » ما ترجمتُه :

(١) تاريخ أدبيات إيران ، الطبعة الأولى ، ص ١٣٢ وما بعد ، نقلناه عن : القصة في الأدب الفارسي (سابق) ص ٢٨٠ .

ـ وعندما نظر الثلاثون طائرًا على عجل ، رأوا أنّ السيمرغ هو الثلاثون طائرا .
ـ فوقعوا جميعاً في الحيرة والاضطراب ، ولم يعرفوا هذا من ذاك .
ـ حيث رأوا أنفسهم السيمرغ بالتام ، ورأوا السيمرغ هو الثلاثين طائرا بالتام .
ـ فكلما نظروا صوب السيمرغ كان هو نفسه الثلاثين طائرا في ذلك المكان .
ـ وكلما نظروا إلى أنفسهم ، كان الثلاثون طائرًا هم ذلك الشيء الآخر .
ـ فإذا نظر كلّ منهما إلى الآخر ، كان كلّ منهما السيمرغ بلا زيادةٍ أو نقصان .
ـ فهذا هو ذاك ، وذاك هو هذا ، وما سمع أحد قط في العالم بمثل هذا .
ـ وأخيرًا غرقوا جميعًا في الحيرة ، وانخرطوا في التفكير بلا عقل أو بصيرة .
ـ ولمّا لم يدركوا شيئًا من هذه الحال ، سألوا صاحب الحضرة بلا حرف هذا السؤال :
ـ ما حقيقة هذا السرّ القويّ ؟ ـ وماذا تعني الأنية والأنتية ؟
ـ جاءهم الخطاب بلا لفظ قائلا : إنّ صاحب الحضرة مرآة ساطعة كالشمس .
ـ وكلّ من يُقبل عليه يرى نفسه فيه ، ومن يقبل بالروح أو الجسد ، يرى الجسد أو الروح فيه .
ـ ولأنكم وصلتم هنا ثلاثين طائرًا ، فقد بدوتم في هذه المرآة ثلاثين طائرًا .
ـ وإذا حضر أربعون أو خمسون طائرًا ، فلن يرفعوا الحجب إلاّ عن أنفسهم .
ـ وإن تردوا إلى هنا أكثر عددا ، فسترون أنفسكم ، وقد رأيتموها .
ـ وليس لأيّ إنسان أن تدركنا عينه ، وكيف تدرك عينُ النملة نورَ الثريّا ؟
ـ وهل رأيتَ نملةً حملت سندانًا ؟ ـ أو رأيتَ بعوضةً حملت بين فكّيها فيلا ؟
ـ كلُّ ما أدركته وما رأيته أنت ، ليس هو ذلك الشيء ؛ وما قلتَه وما سمعتَه أنت ، ليس هو ذلك الشيء[١] .

أما اختيارات كلمان باركس في هذا الكتاب فقد جاء معظمها من كتاب العطار

(١) من ورائع الأدب الفارسي ، ص ٣٠٠ ـ ٣٠١ .

الآخر المسمّى « إلاهى نامه » ، ويلاحظ أنها تلامس الفكرة نفسها التي عالجها العطار في منطق الطير : فكرة بحث الإنسان عن الحقيقة الكبرى ؛ الله سبحانه . يقول العطار في اختيار بعنوان « كنّاس الشوارع » :

«أي كنّاس الشوارع، إنّ شيئًا ما فيك
يضايقني. فأنت تجوب الشوارعَ
باحثًا عن شيء لم تُضعه.
لن يكون في مقدورك أن تظفر بذلك !
ردّ كنّاسُ الشوارع : «والأغربُ أنّني
إن عجزتُ عن أن أجد ما لم أضيّعه،
فإنّني سأشعر بأسى شديد».
لا يستطيع المرء أن يجد أو يفقد،
يصمِتَ أو يتكلّم. لا
هذا ولا ذاك، بل الاثنانِ معًا[1]

ولعلّ ما يميز تصوّف العطار أنّه حرص كثيرًا على تعليم الناس ما اعتقد أنّه الطريق الموصل إلى الله سبحانه . ومن ثمّ بذل جهودًا مضنية في مؤلّفاته للتمثيل لهذه الفكرة وجعلها على قدر كبير من الوضوح . ويضفي الطابع القصصي على أشعار العطار ضربًا من الدفء والحنوّ وملابسة القلب بيسر ؛ إذ تقدّم لنا التجربة الإيمانية في إطار من الفطرية والعذوبة والنشوة الروحية .

٣ ـ جلال الدين الروميّ :

يعدّ الروميّ واحدًا من أعظم أساتيذ الشعر الإسلامي ، بل الشعر العالمي على

(١) انظر هذا الكتاب ، ص ١١٩ .

الجملة . وجلال الدين هو : محمد بن بهاء الدين محمد بن حسين الخطيبي ، المعروف باسم مولوي أو ملاّ الروم . ويعرف اختصارًا بـ « جلال الدين الرومي » .

ولد جلال الدين في مدينة بلخ سنة ٦٠٤ هـ . وكان والده بهاء الدين وَلَد مقرّبًا من السلطان محمد خوارزمشاه ، وكان يتولّى الإرشاد والوعظ وتعليم التلاميذ التفسير والحديث وعلوم الدين . ويبدو أن شيئًا من الجفاء وقع بينه وبين السلطان الخوارزمي بعد ولادة جلال الدين بقليل ، فما كان منه إلاّ أن توجّه إلى مكة لأداء فريضة الحج مصطحبًا أسرته . وعندما وصلوا إلى نيسابور استقبلهم فريد الدين العطار الذي أحسن وفادتهم ، وأهدى أحد كتبه إلى الطفل جلال الدين ، وبشّر والده بأنه سيكون ذا شأن في الطريقة[1] . ثمّ توجهت الأسرة إلى بغداد ، ومنها إلى مكة المكرّمة ، فأدوا فريضة الحج . وبدلاً من أن يعودوا إلى موطنهم آثر الوالدُ البقاء في الشام ؛ نظرًا لاضطراب الأحوال السياسية في بلادهم ولتعرّض المنطقة لغارات المغول . ثم يحدث أن يدعو السلطانُ السلجوقيّ علاءُ الدين كيقباد والدَ جلال الدين إلى الإقامة في مدينة قونية في تركيا ليتولى الوعظ والإرشاد والتعليم الدينيّ . ومن ثم توجهت الأسرة إلى قونية ، وقام الوالد العالم بما طلب منه أن يقوم به ، وبقي هناك إلى أن توفي سنة ٦٢٨ هـ .

وقد أتيح لجلال الدين أن يتتلمذ على والده أولا ؛ إذ حصل منه على كثير من علوم ذلك الزمان ، حتى إنّ السلطان ولاّه عمل والده . ثم أثرى جلالُ الدين محصولَه العلميّ بتتلمذه على الشيخ برهان الدين محقق الترمذي ، كما يمّم شطر حلب ودمشق ؛ ابتغاء الاستزادة من التحصيل . ويُذكر أنه صار له في هذه الأثناء عدد من الأتباع والمريدين الذين تعلقوا به كثيرًا . لكن حادثة كبيرة عصفت به ، فغيّرت مجرى تفكيره وتوجّهه الديني ، واضطرته إلى أن يترك عمله في الوعظ والإرشاد . كانت تلك الحادثة تعرّفه شيخًا اسمه « شمس تبريز » سنة ٦٤٢ هـ . فقد بهر ضياءُ شمس تبريز بصرَ جلال الدين ، وغدا على نحو مفاجئ واحدًا من مريديه المخلصين . فكان اللقاء كما يقول

(١) من روائع الأدب الفارسي ، ص ٣٠٥ ـ ٣٠٦ .

أحدهم : « نقطة تحوّل في حياة جلال الدين الروحية ؛ حيث انقلب من عالم فقيه له مكانته ويعتدّ بعلمه ومعرفته في مجال الشريعة الظاهرة ، إلى متصوّفٍ غارق في روحانية الحبّ الإلهيّ ، ويعبّر عن هذه الأحاسيس في أشعار صوفية كلّها حرارة ، وتتسم بصدق الألم والمعاناة في سلوك الطريق ، دون النظر إلى موقف العامة منه وكذلك تلاميذه ، وما وجهوه له من انتقادات ولوم »[1] .

ويمكن القول إنّ هذا اللقاء هو الذي أثمر لنا هذه الشخصية الصوفية العظيمة ، التي طلعت على الدنيا بفكر عجيب وشعر يستحق أن يقرأه الناس صباح مساء . ومنذ هذا اللقاء أدرك جلال الدين أنه صاحبُ رسالة ظل يدعو إليها في مؤلّفاته وأشعاره إلى أن رحل عن الدنيا عام ٦٧٢ هـ .

ترك الشيخ العظيم ـ كما يسميه محمد إقبال ـ مؤلفات نثرية وأخرى شعرية . أمّا النثرية فمنها : فيه ما فيه ، والمكاتيب ، والمجالس السبعة . وأمّا آثاره الشعرية فهي الأكثر شهرة وروعة ، وأبرزها : المثنوي وديوان شمس تبريزي .

وينطوي « المثنوي » على أكثر من ستة وعشرين ألف بيت من الشعر ، جعلها الروميّ في ستة كتب ، وقدّم لها بمقدّمة بالعربية . ويعدّ المثنوي من أبرز المؤلفات التي ألفت في التصوّف الإسلامي على الجملة ، وفي التصوّف الفارسيّ على الخصوص ، إلى درجة أنّ الفرس دأبوا على عادة تسميته بـ « القرآن البهلوي » ، أو قرآن العجم . ويقول عنايت خان صاحب المحاضرات في كتابنا هذا : « في المثنوي كلُّ سحر المزامير ، وموسيقا الهضاب ، ولون الورد وشذاه ، لكن فيه أكثر من ذلك كله : أنّه يعبِّر بالغناء عن أشواق الروح وحنينه لإعادة الاتحاد بالله [سبحانه] »[2] .

ومن الذين كانوا شديدي الإعجاب بشعر الروميّ شاعرُ الإسلام الكبير في العصر

(١) من روائع الأدب الفارسي ، ص ٣٠٧ .

(٢) انظر إعلان المحاضرات ، ص ٤٤ من هذا الكتاب .

الحديث محمد إقبال ، الذي لا يني القارئ يطالع في آثاره المختلفة أمثلة تأثره بشخصية جلال الدين وعقيدته الصوفية وفكره المستنير . وقد أقرّ إقبال بأستاذية الروميّ له ، ورأى أنه يبحث عن « الإنسان الكامل » ؛ الذي يتخلّق بأخلاق الله سبحانه . ويقدّم إقبال لأبرز دواوينه الشعرية « ديوان الأسرار والرموز » بأربعة أبيات لجلال الدين توحي بما أعجب إقبالاً من فكر هذا الأستاذ العظيم :

رأيتُ الشيخ بالمصباح يسعى ... لـه في كلّ ناحية مجالُ
يقول: مللتُ أنعامًا وبَهْماً ... وإنسانًا أريد، فهل يُنالُ
برِمتُ برُفقةٍ خارت قواها ... برُسْتَمَ أو بحيدرٍ اندمالُ
فقلنا: ذا محالٌ، قد بحثنا، ... فقال: ومنيتي هذا المحالُ[1]

وفي موضع آخر من « الأسرار » يصوّر إقبال تلمذته التامة على جلال الدين ، ويبيّن أنّ الروميّ جعل من طينه جوهرا وشاد من غباره وجودا آخر غير وجوده الأول :

قارئًا من فَيْضِ ذا الشيخ العظيمْ ... كتبًا تضمرُ أسرارَ العلومْ
قلبُه من شعلةٍ الوجد استعر ... وأنا في نَفَسٍ منه شرَرْ
قد رمى الشمعُ فَراشي باللّهبْ ... وغزت جامي الحميّا فالتهبْ
صيّر الروميّ طيني جوهرا ... من غباري شاد كونًا آخرا
ذرّةً تصعدُ من صحرائها ... لتنال الشمسَ في عليائها
إنّني في لجّه موجٌ جرى ... لأصيبَ الدرّ فيه نيّرا
قد عرتني نشوةٌ من كاسه ... وحياةً نلتُ من أنفاسه[2]

(١) ديوان الأسرار والرموز ، ص ٣ ؛ دار المعارف ، القاهرة ١٩٥٥ م .

(٢) السابق ، ص ٩ .

وفي موضع من ديوان إقبال الآخر « ضرب الكليم » يرى الشاعر الكبير أنّ النغمة الرئيسة في أشعار جلال الدين تتمثّل ـ كما أسلفنا ـ في دعوة الإنسان إلى إدراك ذاته وإلى أن تتألّف صَلاتُه من قيامٍ وسجود ، لا سجود فحسب . فالصلاة عند إقبال ، كما هي عند الروميّ ، رمزٌ للسيادة (القيام) والخضوع (السجود) معًا . ومن هذه الوجهة يقول :

ما زال طرفُك في خلْط وفي سِنَةٍ وعنك ذاتك في الأسرار لم تزَلِ
ولم تزلْ في صلاة لا قيام لها وبالضراعة عِزّ الرّوح لم تصل
ومِزْهَرُ الذاتِ أوتارٌ مقطّعة مازلتَ عن نغمة الرّوميّ في شُغلِ[1]

ويرى جلال الدين أن شخصيّة « الإنسان » الكامل تتحلّى بصفتين رئيستين : أن تكون ذاته قوية ؛ فلا يعتمد على الآخرين البتّة . أن يكون لديه هدفٌ سامٍ يعشقه ويسير إليه مستهينًا بكلّ العوائق . وتتجلّى قوةُ الذّات فيما يقول جلال الدين على لسان سليمان عليه السلام مخاطبًا بلقيس :

ـ وسوف تعلمين أنتِ نفسُك عندما تأتين إليَّ ، أنّك بدوني كنت صورة في حمّام .

ـ والصورة سواء كانت صورة سلطان أو غني ، فهي مجرّد صورة لا طعم لها في حدّ ذاتها من الرّوح .

ـ ويا مَنْ قامرتَ بنفسِك في النّزال ، إنّك لم تميّز بين الآخرين وبين نفسك .

ـ إنّكَ تقف أمام كلّ صورة تصل إليها قائلاً : هذه أنا ؛ واللهِ إنّها ليست أنتَ .

ـ وإنك إن بقيت لحظةً بعيدًا عن الْخَلْق ، تبقى في حزنٍ وقلَقٍ حتى الْحَلْق .

ـ وهذا هو أنت . فمتى تكون ذلك الأحَد ، وأنت جميل بنفسك ثَمِلٌ بنفسك ، حُلْوٌ بنفسك .

(١) ضرْب الكليم ، ص ٨٧ ؛ مطبعة مصر ، القاهرة ١٩٥٢ م .

ـ أنت طائرُ نفسك وفخُّ نفسِك وصدرُ نفسك وأرض نفسك وسماء نفسك .

ـ الجوهرُ فحسبُ هو الذي يكون قائمًا بنفسه ؛ ويكون عرَضًا ذلك الذي يكون فرعًا له .

ـ فإذا كنتَ ابنَ آدم فاجلِسْ مثلَه ، وانظرْ في نفسك إلى كلّ الذّريّة .

ـ وماذا يكون في الدّنّ غيرَ موجودٍ في النهر ، وماذا يكون في الدّار غيرَ موجودٍ في المدينة ؟[١] .

أمّا الهدف السامي الذي يغدو « معشوق » المرء فيحوّل حياته إلى كدْح متّصل يواجه فيه الشدائد ويتحمّل العقبات ، وهو ثملٌ بأمل لحظةٍ يلقى فيها الحبيب . وإذا كان هذا مبعث سعادة لدى من يعشقون شبح الحيّ ، فماذا تكون حالُ من يأملون وصال الحيّ ؟.

يقول جلال الدين :

فالمرُّ يصير حُلوًا « إذا صدر » عن ذوي الشفاه الحلوة ، والشوكُ يصير شارحًا للقلوب في الرياض .

ـ ومِنَ المعشوق يصير الحنظلُ رُطَبًا ، وتصير الدّارُ مرْجًا من رفيقة الدّار .

ـ وما أكثر المنعّمين الذين يحملون الشوك ؛ أمَلاً في محبوبٍ قمريّ الوجه ، ورديّ الوجنة .

ـ وما أكثر الحمّالين الذين صاروا ممزّقي الظهور ؛ من أجل محبوباتهم الفاتنات ذوات الوجوه كالأقمار .

ـ وذلك الحدّادُ سوّد وجهه الجميل حتى يقبّل القمرَ عندما يجنّ الليل .

(١) المثنوي ، الكتاب الرابع ، الأبيات ٨٠٠ ـ ٨١٠ (الترجمة العربية للدكتور إبراهيم الدسوقي شتا ١٩٩٣ م) .

ـ والسيِّد مسمَّرٌ في حانوتٍ حتى الليل ؛ ذلك أنّ « سَرْوةً » ممشوقة القوام قد مدّت بجذورها في قلبه .

ـ وتاجرٌ يمضي في البرّ والبحر ؛ لكي يسرع بحُبّ نحو قعيدة المنزل .

ـ إنّ لكلٍّ منهم شهوةً مع ميّت : أملاً فيمن عنده ملامح حَيّ .

ـ فكُنْ مجتهدًا على أمل الحيّ الذي لا يتحوّل بعد يومين إلى جماد .

ـ ولا تختر خسيسًا مؤنسًا ؛ فالأُنسُ مع خسيسٍ يكون شيئًا مستعارا .

ـ فأين أنسُك مع أبيك وأمّك إذا كان هناك وفاءٌ من مؤنسيك جميعًا سوى الحقّ .

ـ وماذا جرى لأنسك مع الحاضنة والمربي ، إذا كان لأحد غير الحق أن يكون لك عضدا .

ـ لمْ يبقَ أنسُك مع اللّبن ومع الثدي ، ولم يبقَ أيضًا نفورُك من أول مدرسة .

ـ كان ذلك شعاعًا على جدارهم ، وعادت تلك العلامةُ نحو الشمس الساطعة .

ـ وكلّما وقع هذا الشعاع على شيءٍ ، قمتَ أنتَ بعشقه أيّها الشجاع .

ـ وعشقُك لكلّ ما هو في الخليقة ، هوبالنسبة لصفة الحق كان طِلاء ذهب .

ـ وعندما ذهب الطّلاء الذهبيّ إلى حال سبيله وبقي النحاسُ مَلّه الطبعُ وطلّقه[1] .

والعملُ الشعريّ الثاني لجلال الدين هو المسمّى « ديوان شمس تبريزي » أو « كلّيّات شمس تبريزي » . ويضمّ ثلاثةً وأربعين ألف بيت من الغزليات ، وسبعًا وثلاثين وتسعمائة وألف رباعية . ويشكّ بعضهم في أن تكون هذه الرباعيات جميعًا لجلال الدين . وقد نظم الشاعر الكبير غزليات هذا الديوان ورباعيّاته تعبيرًا عن حبّه وتقديره وإخلاصه لشيخه الرّوحيّ شمس الدّين التبريزيّ . والمعتاد أن يذكر شاعر « الغزل » الفارسيّ اسمه أو لقبه في آخر الغزَل ؛ ويسمّى هذا عندهم « التخلُّص » . وقد

(١) المثنوي ، الكتاب الثالث ، الأبيات ٥٣٨ ـ ٥٥٥ (الترجمة العربية ـ سابق) .

تخلّص جلال الدين في معظم غزلياته باسم « شمس » تخليدًا لذكرى الشيخ العظيم ، الذي لم يطل لقاء جلال الدين به .

ومن النماذج الممتازة لأغزاله في ديوان « شمس تبريزى » هذا الغزل بعنوان « خبرٌ عن حبيبنا » :

ـ يا ربيع العاشقين، ألديكَ أيّ خبر عن حبيبنا ؟
يا من حملتْ منكَ الخمائل ، وضحكت بفضلك الحدائق .
ـ يا ريحَ النّاي الجميل الألحان، لتسعف العشاق
ويا من هو أطهرُ من الرّوح، في النهاية أين أنت، أين ؟
ـ كَمْ تملّكتني الحيرةُ يا فتنة الرّوم والحبش، فرائحتك العطرةُ
هذه أهي رائحة قميص يوسف، أو أنها رائحة رداء المصطفى ؟
ـ يا مَنْ حلوٌ كلّ ما تقولُه، ويا من عذْبٌ كلّ ما تثيره من مشاكل
فشهرُك حلْوٌ، وعامُك حلْو، يا من أصبح الشهر والسنة تابعين لك !
ـ وجهُك حلوٌ، رائحتك حلوة، ذؤابتُك حلوة، شَعرك حلو
شفتك حلوة، طبعك حلو، وبفضلك صار حالُنا حلوا
ـ فهل أنت كلّك روحٌ، أم أنّك خَضِرُ الزمان ؟
أم أنت ماء الحياة ؟ـ فمنك كلٌّ ما في الوجود من نشوء ونماء !
ـ انظرْ؛ فإنّ مائة سوسَنةٍ ومائة ياسمينة من بستان الرّوح
قد عزمت، مثلها مثل نرجس الحور العين، على التوجّه نحو بلاد الْخَطا
ـ لقد جمّل الآفاق، وزيّن العشّاق
ففي كلّ لحظةٍ تحظى مائة شمسٍ ومائة قمر من وجهه بالضياء والإشراق[١]

(١) من روائع الأدب الفارسي ، ص ٣١٦ .

ويـألم المرءُ أنّ الترجمة تـذهب بروعـة النظم الفـارسيّ المتـدفّق على تفعيلـة « مستفعلن » التي تتكرّر أربعَ مرّات في صدر البيت ومثلها في عجزه .

ونختار من رباعيّات هذا الديوان هذه الرّباعيّة :

سوز دل عاشقانِ شررْها دارَدْ
دَرْدِ دل بيدلان أَثرْها دارَدْ
نشنيد ستى كه آه دلسوختكان
برحضرت رحمتش كذرْهادارَدْ

وترجمتُها :

حرقةُ قلوبِ العشّاق تنتج شررا
وآلام قلوب الواهين تنتج أثرا
ألم تسمع بأنّ آهة المكلومين
تجد لها صوبَ حضرة رحمته طريقًا ومعبرا[1] !

وجملة القول أنّك تجد في شعر جلال الدين انطلاق الرّوح الوثّاب ، الهائم في حبيبٍ لا أسمى ولا أعظم ، المحترق في أتُّون حبّه دون الإحساس بأيّ ألم . وقد صاغت عبقريته الشعرية هذه الأشواق والآهات بتعابير قادرة على الارتفاع بالنفس إلى عوالم روحانية يعزّ على المرء أن يظفر بها في مكان آخر . وقد أوتي هذا الروح العظيم قدرة هائلة على اكتشاف أسرار كبيرة لأشياء الوجود وأحداثه التي تبدو لنا عاديّة تمامًا . ولن يجانب المرءُ الصوابَ إذا هو قال مع جلال الدين في رباعيّته التي أتينا على ذكرها توًا : إنّ حرقة قلوب العشّاق تنتج شررا ، وآلام قلوب الواهين تنتج أثرا . ولعلّ في هذا مفتاحًا لإدراك روعة شعر هذا الشاعر الكبير .

(١) السابق ، ص ٣١٧ ـ ٣١٨ .

٤ ـ سَعْدي الشيرازي :

ذلكم أيضًا شاعر كبير من شعراء إيران ، وإذا كان بعضُ المؤرّخين يذهب إلى القول إنّ « أنبياء الأدب الفارسيّ ثلاثة ، هم حسب الترتيب الزمني : الفِردوسيّ والأنوري وسعدي »[١] فإنّ لسعدي شأناً خاصًا يقع خارج هذا المثلّث ، شأنًا يجعله في دائرة الإنسانية الواسعة . ولعلّه من هذه الوجهة يقول المرحوم الأستاذ محمد صادق نشأت الأستاذ بجامعة طهران : « ينسب العارفون بالأدب الفارسي « سعدي » إلى شيراز عاصمة إقليم فارس بإيران ، ولو أنصفوا لنسبوه إلى الإنسانية جمعاء ؛ فلم يكن « سعديّ » شيرازيًا إيرانيًا إلاّ بمولده ، ولكنه كان إنسانًا بروحه ومبادئه . يرى الإنسانية وطنه الأكبر والمجتمع البشريّ جسدًا واحدًا والناسَ أعضاء بعضهم لبعض فيقول كلمته المشهورة : بني آدم أعضاء يكد يكَرند »[٢] .

وشاعرنا هو مشرف الدين بن مصلح الدين ، كنيته أبو عبد الله ، وتخلُّصه أو اسمه المستعار : السّعْديّ الشيرازيّ ؛ نسبةً إلى راعيه الأتابك سَعْد بن زنكي الذي حكم فارس من ٥٩٩ ـ ٦٢٣ هـ . وُلد سعدي في مدينة شيراز سنة ٥٨٠ هـ ، وتوفِّي سنة ٦٩٠ هـ . والأرقام هنا مبنيّة على الترجيح . ويبدو أنّه نشأ في أسرة على قدر من الصلاح والعلم ، وأنّه تأدّب على يدي والده الذي كان في خدمة الأتابك سعد بن زنكي . ويبدو أنّ هذا الوالد توفي وسعدي في سنّ الثانية عشرة ، وأنّ جدّه من جهة أمّه هو الذي تولّى رعايته . تلقّى سعْديّ تعليمه الأول في شيراز ، ثم يمّم شطر بغداد وانضمّ إلى حلقات مدرستها « النظاميّة » الشهيرة . وكان من مشاهير مَنْ أفاد منهم هناك شهاب الدين السهرورديّ الصوفيّ المعروف ، وأبو الفرج ابن الجوزي . وبعد عودته إلى شيراز طوّف في أرجاء الدنيا فبدأ ببلخ وغَزْنة والبنجاب . وقادته هذه الرحلة إلى دِهْلي واليمن

(١) نفسه ، ص ١٥٣ .

(٢) جنة الورد ، المقدّمة ، ص ٨ (الترجمة العربية للدكتور أمين عبد المجيد بدوي ، المركز العربي للصحافة ، القاهرة ١٩٨٣ م) .

والحبشة ومكّة والمدينة ، ثم الشام ، إذ طال به المقام في دمشق . ومن هناك قصد إلى شماليّ إفريقيا فزار بلاد المغرب ومصر ، وعاد إلى بلدان آسيا الصغرى ؛ والتقى في قونية جلال الدين الرّوميّ .

وتتراءى في آثار سعديّ خبرة واسعة بالناس والحياة والزمان ، وتطالعنا في مؤلّفاته شخصية عملية غاية في البساطة . ومن ثمّ يقول د . أمين عبد المجيد بدوي مترجم « كلستان » سعدي إلى العربية في مقدّمة الترجمة : « ترى في أدبه روح التديّن وكآبة الحزن ولوعة اليُتْم وتفجع الثاكلين وشقاء الأزواج وشكايات المتزوجين ، كما ترى مسحة التصوّف وأخبار الدراويش ونوادرهم وحكايات العُبّاد وأهل الزهد وغِيَر الزمان وتقلّبات الأيّام وصور الناس حاكمين ومحكومين ، وطبقاتهم وأخلاقهم وعاداتهم وما رُكّب في جبلّتهم من غرائز وطبائع »[١] .

ويتسم تصوّف سعدي بالاعتدال ، ويرى المستشرق براون أنّه « يمثّل بوجه عام الشخصية الفارسية المتزنة ، التي تُعنى بالدين والدنيا في وقت واحد »[٢] .

وأبرز أثرين أدبيّين لسعدي هما : البُستان والكلستان . وقد أتمّ تأليف الأول عام ٦٥٥ هـ . وهو عبارة عن حكايات منظومة بقالب المثنوي المعروف .

وتدور هذه الحكايات حول قضايا أخلاقية صوفية . ويتألّف الكتاب من مقدّمة وعشرة أبواب : العدل والتدبير والرأي ، الإحسان ، العِشق والسُّكْر والوَلَه ، التواضع ، الرّضا ، القناعة ، التربية ، الشكر والعافية ، التوبة وطريق الصواب ، المناجاة .

وفي العام الذي يليه (٦٥٦ هـ) فرغ سعدي من تأليف « كلستان » . وهو عبارة عن حكايات في الأخلاق والتصوّف أيضًا ، صاغها على طريقة النثر المسجوع الذي تتخلله أبيات شعرية بعضها عربيّ . وينطوي الكتاب على مقدّمة وثمانية أبواب : في

(١) السابق ، ص ٢٢ .
(٢) من روائع الأدب الفارسي ، ص ١٥٥ .

سيرة الملوك ، في أخلاق الدراويش ، في فضيلة القناعة ، في فوائد الصمت ، في العِشْق والشباب ، في الضعف والشيخوخة ، في تأثير التربية ، في آداب الصحبة[1] . وكان سعدي شديد الإعجاب بكتابه « كلستان » ؛ إذ يقول عنه شعرًا :

كُل همين پنج روز وشش باشد   وين كلستان هميشه خوش باشد

أي :

لا يحتفظ الوردُ بنضارته إلاّ خمسة أيام أو ستة ، أما روضة الورد هذه فتظلّ نَضِرةً على الدّوام . ويقول عنايت خان عن هذا الكتاب : « يمثِّل الكلستان اكتمال المعرفة الواسعة بالحياة والناس . ورغم أنّ حياة سعدي الخاصّة كانت مفعمةً بالصعوبات والمحن ، فقد احتفظ بروح هادئ ، وبقلب متناغم مع المشكلات العظيمة للإنسانية . وبقلبه الطّيب يقول عن عمله هذا :

نضعُ النّصحَ في مكانه المناسب ،
ونُمضي الحياة في أداء هذه الرسالة
وإن هو لم يجد أذناً صاغية عند أيّ إنسان ،
فقد أبلغ الرسولُ رسالته ؛
وذلك كافٍ »[2]

ويتخذ سعدي سبيل الحكمة والموعظة الحسنة في تقديم آرائه ونصائحه ومواعظه ، ويأنسُ المرءُ فيها قدرًا كبيرًا من الحميية والدّفء والدّماثة ؛ مما يجعله مهيّأً للتأثّر بها

(١) انظر في شأن هذا الكتاب وآثار سعدي الأخرى : مقدّمة ترجمة « كلستان » بعنوان « جنة الورد » للدكتور أمين عبد المجيد بدوي ، ص ١٠ ـ ١٥ ، ٢٢ ـ ٢٣ . وتجدر الإشارة إلى أن « كلستان » حظي بترجمة رائعة إلى العربية بعناية الشاعر السوريّ المرحوم محمد الفراتي بعنوان « روضة الورد » ، ونشرتها وزارة الثقافة السورية في السّتينيات من هذا القرن .

(٢) انظر إعلان المحاضرات ص٤٤ من هذا الكتاب .

والاستجابة لدواعيها . تأمّل ، مثلاً ، هذه القطعة التي يبيّن فيها تأثير الصحبة :

« ذات يوم بالحمّام ، وصلت إلى يدي طينة عطرة من يد محبوب ، فقلتُ لها : أمِسْكٌ أنتِ أم عبير ؟ - إذ إنّي ثَمِل من عطرك الحبيب ! قالت : لقد كنتُ طينة حقيرة ، ولكن جلستُ مدّةً مع الورد ، فأثرّ فيّ كمالُ الجليس ، وإلاّ فأنا عينُ التراب كما أنا »[1] .

ولسعدي قدرة هائلة على التنفير من رديء الأخلاق ؛ وكثيرًا ما يفطن إلى معايب في الشيء قلّ أن يفطن إليها الآخرون . ومن ذلك ما تراه في هذه الحكاية :

« أمر ملك بقتل بريء ، فقال المسكين : أيها الملك ، لا تطلب أذى نفسك بموجب غضبة غضبتَها عليّ ؛ فإنّ هذه العقوبة بالنسبة إليّ تنتهي في لحظة ويبقى إثمها مخلّدا عليك .

رباعيّ

مرّ زمنُ الحياة كريح الصحراء ، ومضت المرارة واللّذّة والقبيح والجميل ، وظنّ الظالم أنّه جار علينا ، فمضى ظلمُه عنّا وبقي في عنقه . فأثّرت هذه النصيحة في الملك وتجاوز عن قتله »[2] .

وكثيرًا ما يقدّم سعدي قضايا الإيمان الدقيقة في قالب من القَصّ المحبّب الذي تُذعن له النفس ؛ كقوله في حكاية « موسى والدّرويش » :

« رأى موسى - على نبيّنا وعليه السلام - درويشًا قد اندسّ في الرمل من الْعُرْي ، فقال : يا موسى ، ادعُ لي حتى يعطيني الحقّ تعالى كفافا ، فقد نفد صبري من عدم الاحتمال . فدعا موسى له ليعطيه الله قدرة واسعة . فجاءت الإجابة ، وبعد بضعة أيام

(١) جنّة الورد ، ص ٤١ .
(٢) السابق ، ص ١٠١ .

رآه مقبوضًا عليه ، وقد اجتمع حوله خلقٌ كثير ، فقال : ما الحال ؟ ـ قالوا : شرب الخمر وعربد وقتل شخصًا ، والآن يؤخذ إلى ساحة القِصاص .

مثنوي

الذي وضع الأقاليم السبعة ، أعطى لكلّ شخصٍ ما لاق به ، لو كان للقطّ المسكين جناح ، لأزال من الدنيا بيض العصفور .

قد يجد العاجزُ يد القدرة فينهض ويلوي أيدي العاجزين

فأقرّ موسى عليه السلام مرّة أخرى بحكمة وعدل خالق العالم ، واستغفر من تجاسره ﴿ ولو بسطَ اللهُ الرزقَ لعباده لبغَوا في الأرض ﴾[1] .

وفي مستطاع متأمّل أدب سعدي أن يقول إنّ الغاية التربوية الأخلاقية لم تبارح ذهنه في كلّ ما خلّف من آثار ؛ فقد أراد للإنسان ، أيّا كان موقعه في الحياة ، أن يكون مدركًا ما هو مطلوبٌ منه من حيث هو إنسان . وكان مثلُه الأعلى في بني البشر إنسانًا محبًّا للخير عاملاً له ، عارفًا سبيل الحقّ ملتزمًا جادّته ، عاشقًا للجمال ممثّلاً له في سلوكه .

٥ ـ حافظ الشيرازي :

هو شمسُ الدّين محمد ، ويعرف بـ « خواجه حافظ الشيرازي » . ويلقّب بـ « لِسان الغيب » و « ترجمان الأسرار » . وكان يتخلّص في أشعاره باسم « حافظ » ؛ إشارة إلى حفظه القرآن الكريم وإجادته القراءات الأربع عشرة[2] .

ولد حافظ في مدينة شيراز سنة ٧٢٦ هـ ، لأبٍ كان يعمل بالتجارة . توفي الوالد وحافظ ما يزال صغيرًا ، فبعثت به أمّه إلى أحد وجهاء المدينة ؛ ليرعاه ويتولّى أمر

(١) نفسه ، ص ١٧٢ .

(٢) من روائع الأدب الفارسي ، ص ٣٢٦ .

تعليمه . لكنّ معاملة الوجيه لم ترقْه ، فاضطرّ إلى تركه والعمل « صبيّ خبّاز » . وقد هيّأ له هذا العمل أن يلتحق ببعض حلقات العلم ، فكان يحضر دروس التفسير والحديث والشعر العربي والفارسي . ويبدو أنه وجد في نفسه ميلاً إلى نظم الشعر ، لكنّ تجاربه الأولى في هذا الميدان لم تكن مشجعة ؛ فدفعه ذلك إلى العزلة والمواظبة على الدرس والمران حتى واتته القريحة وجلّى في حلْبة الصناعة . ويقال إنه إثر هذه العزلة خرج إلى الناس مفاخرًا بشعره وتمكّنه من ناصية القول إلى حدّ أنه قال :

نديدمْ خوشتراز شعرِ تُو حافظْ بقرآني كه تو در سينه داری

أي :

ما رأيتُ خيرًا من شعرك يا حافظ وحقّ القرآن الذي تحفظه في صدرك

وقد عمل حافظ في حرفة التدريس حتى آخر أيّام حياته . وودّع الدنيا سنة ٧٩١ هـ ، ودُفن في بلدته شيراز التي خالط حبُّها شغاف قلبه ، وحال هذا الحبٌّ بينه وبين مغادرتها والارتحال إلى مكان آخر . وقد أشار إلى هذا في قوله :

نمی دهند اجازت مرابه سیر وسفر نسیم باد مصلی وآب رکن آباد

والمعنى :

لم يأذن لي بالتسيار والأسفار نسائمُ المصلى وماء ركن آباد

وفي رحاب القريض برع حافظ في فنٍّ شعريّ فارسيّ خاصّ يعرف بـ « الْغَزَل » . والغزلُ عند القوم منظومةٌ قصيرة قائمة بذاتها ، ويتراوح طولها بين ٥ ـ ١٥ بيتًا ، وقد يزيد عن ذلك . وجرت العادة أن يذكر الشاعر لقبه الشعريّ في البيت الأخير من الغزل ، أو في البيت قبل الأخير ، ويسمّى هذا « التخلّص » كما أسلفنا . أما من ناحية المضمون فإنّ الغزل يدور في فلك العِشق العفيف الصادق ، ويعبّر عن أشواق الرّوح

وتطلّعاته ، و « يصوّر نزعات النفس وما ترجوه في ضراعة وابتهال ، الحبيب فيه جميل ، وكلّ ما يصدر عنه جميل ، والمعشوق فيه نبيل ، وكلّ ما يبدو منه نبيل »[١] .

ويقتضي مثلَ هذا الموضوع أن تتّسم لغةُ « الغَزَل » بالعذوبة والسلاسة والصفاء ، وأن يُنظم على وزن عالي الغنائية قادر على الارتفاع بالنفس إلى عالم من السموّ الرّوحيّ والإشراق الوجدانيّ .

ويلاحَظ أنّ المعاني التي تضمّنتها غزليّات حافظ تنتمي إلى ثلاثة موضوعات رئيسة ، وفي هذا يقول المرحوم الدكتور إبراهيم أمين الشواربي مترجم هذه الغزليات إلى العربية : « وهل أجملُ إلينا من أن نستمع إليه وهو يحدّثنا عن « نفسه الصّادية » التي لم يرقها من زمانها ما امتلأ به من رياء ونفاق ، فأخذت تتغنّى بالطيبة الحقّة وبالصلاح الحق ، وبالتقوى الصحيحة والإيمان الصادق .. فإذا فرغ من موضوعه هذا غنّاكَ بـ « الحبّ والشباب » فأثار النفوس إلى محبوب جميل تجد المتعة في محادثته وحواره ، والرّاحة في ملازمته والهدوء إلى جواره ... فإذا أحسّ لواعج الشوق تتّقد في صدرك وحرارة الوجد تستعر بين ضلوعك أخذ يغنّيك بـ « الخمر والشراب » ، فقدّم إليك كأسًا مزاجها الطرب والمرح ، ودعاك بشربها إلى البهجة والفرح »[٢] .

ومما يصوّر لك ذلك هذه الغزلية التي يقول فيها :

مضى قلبي على حالٍ، وعنه الآن لا يرجعْ
بحُبّ الغانيات البيض لم يهدأْ ولم يقنعْ
بربّي منك لا تنصحْ، فتلك الكأسُ والصّهبا
حديثي فيهما دومًا ، فزدني منهما أسمَعْ

(١) أغاني شيراز ، ص ٢٧ (الترجمة العربية) .
(٢) السابق ، ص ١٧ .

ويـا سـاقي ألا أقبـلْ، ونـاولني ولا تُمهِـلْ
دِهـاقًـا لـونُها ورْدٌ كضوء الخـدّ إذ يسطـعْ
وكأسَ الخمرِ هـل أحسـو على سرٍّ بـلا جَهْرِ
فيـا بؤسًـا، إذا أودت بنـا «نـارُ الرِّيـا» أجمعْ
فطوِّحْ خِرْقتي واهنـأْ، فـإن «الشيـخ» أفتـاني
بـأنّ الـدّلْـقَ لا يكفي لكأسٍ واحـدٍ تُقرَعْ
وذوبُ النفسِ يسمـو بي إلى كأسٍ مصفّـاةٍ
كما تسمـو بنـا الكأسُ إلى الصفـوِ الـذي تجمـعْ
لمـاذا قلتَ لي: أغمِضْ، ولا تقربْ لهـا وِرْدا
ألا فاذهبْ وبـاعِـدْني، فوعظي اليومَ لا ينفعْ
أتهـديني أنـا العِرْبيـد! دَعْ حُكْمَ القضـا يمضي
وخذْ كأسًا؛ فضيقُ القلب بالصهباء قـد تـدفعْ
ضحكتُ الآنَ في بؤسي، وصِرْتُ الشمـعَ في جمـعٍ
لِسـاني نـارُه تعلـو، ونـوري فيـه لا يسطـعْ
ومـا أحلاهُ مِنْ صيـدٍ، فـؤادي ذاك فـانـزعْـهُ
فـأحلى منـه لن تلقى طيور الوحش في بلقـعْ
وإنّي دائمُ الحـاجـاتِ والمعشـوقُ مستغنٍ
فهَـلْ بـالسّحر أبغيـه وفيـه السحرُ لا يصنـعْ
فخُـذْ منّي كـ«ذي القرنين» مرآتي وطـوّحْهـا
إلى نـارٍ لتجلـوهـا إذا لم تصفُ أو تلمـعْ

أنا الدرويشُ فارحمْني أيا ربيّ فلا أدري
سوى ذا البابِ أبغيه، وأنت الْقَصدُ والمطمعْ
وزادتْ حيرتي لمّا رأيتُ العذبَ من شعري
ولم أجمعْ به مالاً، وحتى الشكرَ لم أسمعْ[1]

ورغم أنّ « حافظ » يدير في غزلياته فِكَرًا محدّدة لا يتجاوزها إلى غيرها ، يظلّ شعره قريبًا من النفس بعيدًا عن السآمة ؛ فقد استطاعت شاعريتُه القوية وحِسُّه العميق بأشياء الوجود أن يضفيا على غزلياته طابعًا من الحيوية والجدّة والعمق والقدرة على إرضاء رغائب كثيرة في النفس الإنسانية . فشاعرية « حافظ »أشبه بالإكسير الذي يحوّل المعادن الرّخيصة إلى نُضارٍ يذهب رُواؤه بالأبصار . ولعلّك مستبينٌ ذلك في هذه الغزلية :

ـ عندما تنفّس الصّباحُ ، تحدّث طائرُ الخميلة مع الوردة الجميلة ، فقال :
« ما أكثر ما تفتّح مثلك في هذا البستان ، فأقلّي ما أنتِ عليه من دلال ! »
ـ فابتسمت الوردةُ وقالت : « إننا لا نتألّم لقول الحقّ ، ولكن
لم يوجِّه عاشقٌ مثلَ هذا الكلامِ الشديد إلى معشوقه » !!
ـ فإذا طمعتَ في الخمر الحمراء التي في تلك الكأس المرصّعة
فما أكثر الدّرر التي يجب عليك أن تثقبها بأطراف أهدابك
ـ ومَنْ لم يكنس ترابَ الحانة بخدّه
فلَنْ تصل إلى مشامّه رائحةُ المحبّة
ـ وليلةَ أمْس ، رقّ الهواءُ ولطُف في حديقة إرَم
واضطربت نواسةُ « السُّنْبُل » حين داعبها نسيمُ السَّحَر

(١) نفسه ، ص ١٨١ ـ ١٨٢ .

ـ قلتُ : « ياعرشَ جمشيد ! أين كأسُك الذي يستعرض العالم ؟ »
قال : « أسفًا ، لقد غفا حظّي اليقظ وأغرق في النعاس !! »
ـ وحديثُ العِشق لا يستطيع أن يعبِّر عنه اللّسان
فيا أيها الساقي ! أدر الخمرَ ، واقصر الحديث فيما يقال وما تسمعه الآذان !!
ـ وقد ألقت دموعُ « حافظ » بعقله وصبره في سيلٍ من الطوفان
وما عساه يفعل الآن ، وآلامُ العشق لا تخفى على العِيان ؟ ![١]

وقد أدرك الشاعرُ الألمانيّ الكبير « غوته » هذه الخاصّية المميزة لأشعار حافظ ؛ خاصّية التكرار المتجدّد للمعاني والبدء من حيث الانتهاء ، فقال :

أنتَ يا « حافظُ » لا تؤذِنُ بانتهاء وهذه عظمتُك
ولا عهدَ لك بابتداءٍ وهذه قِسمتُك
وشِعْرُك كالفلكِ يدور على نفسه بدايتُه ونهايته سِيّانِ
وما يرد في وسطه يرد فيما هو لاحقٌ أو سابقٌ بأجلى بيان
إنّك نبْعُ الشعر الذي يصل بالأمانيّ إلى الأوج
فإذا هي فيضٌ في إثر فيض ، وموجٌ في إثر موج
وإذا الفم نزّاعٌ إلى التقبيل ؛ وأغنية الصدر جديرة بالترتيل
والحنجرة صاديةٌ عطشى إلى الشراب ؛ والقلبُ طيّبٌ يفيض بالآمال العِذاب[٢]

تلكم إذًا « يدُ الشعر » بأصابعها الخمس : السّنائي ، العطّار ، الرّوميّ ، سعدي ، حافظ . وقد كتبت هذه اليدُ الشيء الكثير في سِفْر الشعرِ الصوفيّ الإسلاميّ . وسيظلّ التصوّف الإسلاميّ مدينًا لهؤلاء الشعراء الكبار الذين أضافوا أنغامًا أخّاذة إلى

(١) أغاني شيراز ، ص ٥٠ ـ ٥١ .
(٢) السابق ، ص ١٨ .

« سيمفونيته » . ولا غرو في أنّ معاني التصوّف تتراءى أكثر روعةً حين تزدان بغلالة الشعر التي تستبدّ بالنفوس . ولا غرو أيضًا في أن يكون لكلّ من هؤلاء الشعراء مذاقه الخاصّ ، وأن يكون للجمال في شعر كلّ منهم تجلّيه المتفرّد . وإنه لن يكون عجيبًا بعد ذلك أن يكون لاجتماع بعض أشعارهم في كتاب واحد بهاءُ ألوان الطّيف في قوس المطر التي توشّح الأفقَ في يوم ربيعيّ دافئ مشرق .

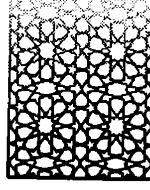
فإلى قرّاء العربية هذه الإضمامة المضرَّجة بدماء القلوب الطاهرة ، المضمّخة بعبير الرّوح الإنسانيّ المتلهّف إلى ربيع النور والحقّ والخير والجمال .

والله هو الهادي إلى سواء السبيل

مدينة العين المحروسة **عيسى علي العاكوب**

الخميس ، العشرون من شوال ، ١٤١٧ هـ .

السابع والعشرون من شباط ، ١٩٩٧ م .



مدخل

يقدّم هذا الكتابُ « يَدُ الشّعر » مدخلاً إلى عالَم الجمال والحقّ . ومنهجةُ ثنائيّ ؛ فهو أولاً يقدّم خمسَ محاضراتٍ مهمّة عن الشعر الفارسيّ ألقاهـا بير ـ و ـ مرشد عنايت خان ، الذي أتى بالتصوّف إلى الغرب . ثم تجده يقدّم ترجماتٍ أنيقةً أعدّها الشاعر كليمان باركس لبعض الأشعار التي يدرسُها عنايت خان ، مصمَّمةً لتزويد القرّاء بدخول سريعٍ إلى نموذجٍ من نماذج هذا الأدب الرائع ، الذي لا يزال من العسير الظفرُ به في اللغة الإنكليزية . وانطلاقًا من هذا ، يمثِّل كتابُ « يد الشعر » مدخلاً مختصَرًا وشاملاً نسبيًّا إلى واحدٍ من الآداب العظيمة في العالم ، ظلّ إلى أخَرةٍ مجهولاً في الغرب .

والأدبُ الفارسيّ في القرن الثالث عشر ، الذي يصفه مرجعٌ رئيسٌ في هذا الشأن ، وهو البروفسورة آنياري شِمّل ، بأنه « ذروة » الأدب الإسلاميّ الواسع (وهي تؤكّد أنّ الإلمام بفرع واحدٍ منه فقط يتطلّب فريقًا كبيرًا من الباحثين) ، ما يزال على الحقيقة كنزًا مخفيًّا ، رغم محاولات عدد مِن العلماء في القرن الأخير . وقليلون في الغرب أولئك الذين تعلّموا لغته ، الفارسية ، والترجماتُ غالبًا ما تركت كثيرًا ممّا هو مطلوب استجابةً للإغراء الشعريّ . ويصحِّح هذا الوضعُ الآن على نحوٍ فعّال بما يقوم به كُليمان باركس ، مترجمنا الحاضر ، الذي نجد أنّ ترجماته القوية شعريًّا والواضحة على نحو مدهش لجلال الدين الرّومي تشغل أكثر من ستّة مجلّدات غاية في الرّوعة ، وبما يقوم به شعراء معاصرون آخرون . وعلى الرغم من ذلك فإنّ معظم الأشعار الفارسية الرائعة لا تزال في صورة مخطوطات ، لمّا تُطْبَع حتى في لغتها الأصلية !. وحتّى حيواتُ معظم هؤلاء الشعراء لا تظهر في دوائر المعارف المتداولة ، وهكذا أضاف المترجِمُ على سبيل المساعدة رواياتٍ موجزة للقليل المعروف عنهم .

نُشّئ عنايت خان في أسرة مهتمة كثيرًا بالفنّ ، وبالموسيقا على نحو خاص ، في بارودا ، كُجرات ، من أعمال الهند ، في ثمانينيات القرن الماضي وتسعينياته . وكانت إحدى لغات الأسرة الأُرْديّةَ ، وهي تعديلٌ هنديّ للفارسية ، وتلقّى اهتمامًا خاصًّا بالشعر في مرحلة الشباب المبكّر . والشعرُ الذي يناقشه هنا كان معروفًا لديه طول حياته ، وقد هاله عندما جاء إلى الغرب سنة ١٩١٠ م أن يكتشف أنّ نفرًا قليلاً من الناس سمعوا عن هؤلاء الشعراء العظام . وعندما تكلّم عليهم ، تكلّم (كما هي الحال دائمًا) على نحو مرتجل تمامًا دون أن يستخدم أيّ تعليقات ، بقَدْر ما نعلم . وكان صنيعهُ في تقديم هؤلاء الشعراء ، كما هي الحال في مجالات أُخَر كثيرة ، عملاً رائدًا . فقد كان عمر الخيام الشاعرَ الوحيد بين هؤلاء الشعراء المعروف عند الجمهور الغربيّ ، بفضل ترجمة فيتزجيرالد لـ « الرّباعيّات » التي تُعدّ اليوم ذات قيمة مشكوكٍ فيها من جهة كونها ترجمة أمينةً .

والآن ، وبعد مضيّ سبعين سنة ، غدا هذا الشعرُ معروفًا أكثر في الغرب ، ورغم ذلك يظلّ ممكنًا أن تسألَ أستاذةً للأدب عمّا إذا كانت سمعت بجلال الدين الروميّ وتتلقى إجابةً بالنفي . ولذلك فإنه من المناسب تمامًا أن نتابع العمل الرائد لعنايت خان من خلال هذا التقديم الجديد لتعاليمه ولأعمال الشعراء أنفسهم .

ويمثّل هذا الكتابُ خطوةً مهمّة نحو الأمام في تقديم نصوص عنايت خان . وهذه هي المرّة الأولى التي قُدّمت فيها محاضراتُه في كتابٍ لعامّة الناس بكلمات قريبة قدر المستطاع إلى الكلمات الفعلية التي تكلّمها . وقد جُعِل هذا ممكنًا من خلال السلسلة العلمية « الأعمال الكاملة لحضرة بير - و - مُرْشد عنايت خان » (East- West, The Hauge) . ويتضمّن المجلّد الثاني من تلك السلسلة (١٩٢٣ م ١ ، المنشور سنة ١٩٨٩ م) ، هذه المحاضراتِ الخمسَ . وتقدّم « الأعمالُ الكاملة » نصًّا لكلّ محاضرة اعتمادًا على المخطوط الأقدم والأفضل ، وهو تسجيل مختزل في الأعمّ الأغلب . وبالنسبة إلى هذه المحاضرات لم يبقَ تسجيلٌ مختزل (لأنّ « سكرتيرات » عنايت خان لم يسافرن معه) ،

ومخطوطنا الأساسيّ مطبوع على الآلة الكاتبة . ونحن نجهل مَنْ دوّن المحاضرة أو أعدّ النسخة المطبوعة على الآلة الكاتبة ، التي حُرّرت على نحو واهٍ ؛ قد تكون رابيا مارتن ، مديرة المركز الصّوفي في مدينة سان فرانسيسكو . لأنّ « الأعمال الكاملة » ممنوعة من التداول ، والنشرة الحالية تجعل في المتناول لأول مرّة الكلماتِ الفعلية لعنايت خان .

وسلسلةُ المحاضرات التي يُعاد تقديمُها هنا كانت قد أُلقيت بعد ظهر أيام الثلاثاء في الساعة الثانية والنصف من الثالث من نيسان إلى الثامن من أيار ، ١٩٢٣ م ، في صالة عَرْض بول إِلْدَر بوكِسْتُر ، وهي المؤسّسة الرئيسة من قبيلها في سان فرانسيسكو ذلك الزمان . شُهِرَ عنايت خان بأنّه « رحّالة الموسيقا ، والأدب والفلسفة » ، وقدّم سلسلتين أخريَيْن ؛ الأولى في الموسيقا والأخرى في الفلسفة الروحية ، في صباح كلّ يوم أربعاء ومساء كلّ يوم خميس على الولاء . والآنسة حياة ستادلنجر ، التي لا تزال تستوطن أوكلاند ـ كاليفورنيا ، تتذكّر جيّدًا حضورَها هذه المحاضراتِ عندما كانت شابّة . وهي تتذكر أنّ عنايت خان جلس في رَدْهةٍ وحيّا بحرارةٍ كلّ شخصٍ يدخل ، مع عَرْض زنبق الكالا الأبيض على قدميه . وهي تتذكر أيضًا أن الجمهور كان كبيرًا ومتحمسًا جدًا . كان مطلوبًا دفعُ دولارٍ واحدٍ (كان مبلغًا كبيرًا في تلك الأيام) ، وصالة الْعَرْض الواقعة في ٢٣٩ بوست ستريت كانت فخورة بأن تعلن عن أنّها « مكيّفة الهواء ومنشّطة بفضل تجهيزات الأوزون الإلكتروني » ، (ولعلّ هذا يحدّ من اندفاع أولئك الذين يتخيّلون أنّ حركة « العصر الجديد » بدأت في الستّينيات) . ومما هو مؤلم أنّ نصّ إحدى المحاضرات ـ الثانية في السلسلة ، وهي عن عمر الخيام ـ لا يبدو أنّه قد تمّ الاحتفاظ به . ويعطي الْكُرّاس الْمُعَدّ على نحو أنيق نكهةً صادقة لتلك الأوقات ، ومن هنا نقدّم صورة الصفحة التي تشير إلى السّلسلة الحاضرة (إعلان المحاضرات التي ألقاها عنايت خان عام ١٩٢٣ م) .

SUFI POETS: A series of six Tuesday afternoon lectures, April 3rd to May 8th, inclusive

Tuesday Afternoon, April 3rd, at 2:30 o'clock
THE POET AND THE PROPHET.

The various scriptures of the nations are interpreted by the Prophets and Spiritual Poets of every age, not as dogmas, but as appeals to the heart of man. They point the way to our spiritual freedom; with one stroke of the pen they emancipate us as souls, and with the other they have shown us to speak straight from the heart, and with all spontaneity, breaking the barriers of human limitation and spiritual bondages. To interpret Persian religious and philosophic poetry with full understanding of the sense intended by the writer, requires intimate acquaintance with Moslem thought, and in particular with theology and mysticism.

Tuesday Afternoon, April 10th, at 2:30 o'clock
OMAR KHAYYAM.

All authorities, intellectual and spiritual (despite the fallacies of modern interpretations), describe this poet as one who drank deeply of wisdom, and this is revealed through his many famous works on astronomy, mathematics, metaphysics and philosophy. He was a master of the exact sciences.

Tuesday Afternoon, April 17th, at 2:30 o'clock
JALLAL-U-DIN-RUMI.

The Masnavi has all the beauty of the Psalms, the music of the hills, the color and scent of roses; but it has more than that, it expresses in song the yearnings of the soul to be reunited with God.

Tuesday Afternoon, April 24th, at 2:30 o'clock
SHAIKH MUSLIH-UD-DIN SAADI.

The Gulistan (Rose Garden) represents the consummation of a wide knowledge of life and men, and though Saadi's own life was fraught with hardships and trials, he maintained serenity of spirit and a heart attuned to the great problems of humanity. In the simplicity of his heart he says tenderly of his own work:

"We give advice in its proper place,
Spending a lifetime in the task.
If it should not touch any one's ear of desire,
The messenger told his tale;
It is enough."

Tuesday Afternoon, May 1st, at 2:30 o'clock
HAFIZ.

Hafiz breathes originality in all his works; he has defects, but only his own; he has beauties, but only his own. He may be condemned, but cannot be compared. He is considered by some authorities to be the greatest poet of any age or country. The name Hafiz literally means "the man who remembers." He spent his life remembering God and preserved these remembrances in verses which to this day are consulted as oracles.

Tuesday Afternoon, May 8th, at 2:30 o'clock
FARID-DU-DIN ATTAR.

The Mantiqu't Tayr is a description of the Mystical Quest of the Birds (Sufi Pilgrims) for the Simurgh (God).

1st. Valley of Search.
2nd. Valley of Love.
3rd. Valley of Knowledge.
4th. Valley of Non-attachment.
5th. Valley of Unity.
6th. Valley of Amazement.
7th. Valley of Realization of God.

Tickets: Single lecture, One Dollar
Season Ticket, six lectures, Five Dollars

وأودّ خَتْم حديثي بملاحظة شخصية . أنا أحدُ محرِّرَيْن (إلى جانب منيرا فان ڤورست فان بيست ، وهي متوفّاة الآن) لـ « الأعمال الكاملة » وبعد نشر المجلّد « ١٩٢٣ ، ١ » سنة ١٩٨٩ م ، اقترحتُ على صديقي وزميلي العزيز « أبي الخير » صاحب دار نشر « أوميغا » أن نصدر كتابًا يتضمّن هذه المحاضرات ومقاطع مناسبة من أشعار الشعراء المدروسين . لقد بذرتُ البذرة فحسب ؛ أما « أبو الخير » فقد استنبتها ، ورعاها ، ثم نَمَت في الحديقة التي أنت على وشك أن تتنزّه فيها . ولا أستطيع في أية حال أن أعبِّر عن السرور الذي يتملّكني إزاءَ هذه الحصيلة التي لا يُحْلَمُ بها .

شريف غراهام

توكسون ، أريزونا

١٤ آذار ، ١٩٩٣ م

مقدّمة المترجم إلى الإنكليزية

ثمة حكاية تروي كيف أنّ الحكمة كانت يومًا مجموعةً في مكان واحدٍ على شكل بحيرة كبيرة من الزئبق ، ثم تبعثرت في قطعٍ صغيرة ، انتثرت فوق الأرض . لكنّه يحدث أحيانًا كثيرة أنّ بعض القطع تتضامّ وتتكتّل ، ليس ابتغاء إعادة تشكيل البحيرة ، بل في شكل عناقيد لتذكّرنا بطبيعة الصورة الكاملة التي وجدت يومًا .

حدثت مثل هذه التجميعات بين الهسيديين Hassids في بولونيا وروسيا في القرنين السابع عشر والثامن عشر ، وفي اليونان في مرحلة ما قبل السُّقراطية ، وفي أوائل القرن السابع عشر في إنكلترا ، وفي باريس في سبعينيات القرن التاسع عشر ، وعلى مدى عقدَيْن في منتصف القرن الماضي في شمال شرقيّ الولايات المتحدة . هذه البِرَك ذات التجويف الصخريّ الفتّان تحدث . وإنّ واحدةً من الأكثر ألقًا وُجدت في الشرق الأوسط ، بين المتكلّمين الفرس في القرون الثلاثة : الثاني عشر والثالث عشر والرابع عشر . فإنّ العطّار وسنائي والرّومي وسَعْدي وحافظًا مجموعة متألّقة تمثّل تاج الأدب العالمي المرصّع بالجوهر . ولم يحدث أن ظهر مثلُ هذه المجموعة من جديد في أيّ مكان من العالم .

كانوا فنّانين وكانوا إلى ذلك رُعاةً روحيين عظماء . كانوا شعراء دراويش ، ذلك الخطّ القلبيّ الخفيّ والواضح جدًّا مع ذلك ، الذي يرجع قبل إبراهيم [عليه الصلاة والسلام] إلى مصر القديمة ، وإلى ما قبل فجر الوعي . وعندما رأيتُ أوّلَ مرّة واحدًا من تلك الرسوم اليدوية الـ « high-five » التي تعود إلى أربعة عشر ألف سنة في أحد الكهوف في جنوبيّ فرنسا ، شعرتُ بالمودّة العميقة جدًّا التي يقترحها الصوفية والشعراء . يستخدمون الكلمات ، وما هذه سوى واحدة من مهاراتهم ، لاستدعاء

الجمالِ ، الرّوعةِ الموجودة في صميم كلّ دافعٍ دينيّ . وإليك ما يقوله حضرةُ عنايت خان في هذا الشأن :

> أيًّا كانت الاختلافاتُ التي يمكن أن ترينا إيّاها الأديانُ المختلفة بشأن أُسس ما هو حقّ وما هو باطل ، فلن يختلف شخصان البتّة حول هذا المبدأ الطبيعي الفذّ : أنّ كلّ ذاتٍ تنشدُ الجمالَ ، وأنّ كلّ فضيلةٍ واستقامة وخير لا تعدو أن تكون إيماضةً من جمال . ومتى تخلّق الإنسانُ بهذا المبدأ الأخلاقيّ لم يحتجْ إلى أن يلتزم اعتقادًا أو إيمانًا خاصًّا ، أو يقيّد نفسه بطريق خاصّ . يمكنه عندئذ أن يسلك الطريق الهندوسي ، أو الطريق الإسلاميّ ، أو طريق أية كنيسة أو إيمان ، شرْطَ أن لا يحيد عن هذه الجادّة الملكية : أنّ الكونَ كلَّه ليس إلاّ تجلّيًا للجمال . ونحن نُعمي أنفسنا باعتماد مسلك واحد[1] للجمال . (ص ٢٠٨ ، فنّ الوجود والصيرورة The Art of Being and Becoming) .

ولكن ما السّببُ في كون هذه القطع والبرَك من الزئبق متملّصةً جدًّا ونادرًا ما تظهر ؟ يتراءى لي أن التوازن المعقّد للبراعة اللفظية والإلهام نادرٌ ؛ لأنّ البلاغة ترتبط ارتباطًا عميقًا بالجانب المعتم ، بالرغائب المادّية ، بالنفس ، بالـ « أنا » .

وأيّ لسانٍ يؤدّي هذا على نحو مثير ، لسانٌ كاذب ، إنه مشعاعٌ للأوهام ذَرِبُ اللّسان . والجمعُ بين أستاذٍ للغة وأستاذ للنّور يهيّئ لرقص ثنائيّ . ويظلّ الروميّ يذكّرنا كيف أنّ الكلمات مبهمة وخدّاعة . وكلّ ما يمكن أن تقوله الكلمات عن الله هو شيء من قبيل « ليس نسّاجا » . وليس معظمُ الحقيقة المباشرة موجودًا في الكلمات ، ورغم ذلك « فإنّ الذين يحبّون الكلمات ينبغي أن يستخدموها للوصول إلى الله [سبحانه] » . الكلماتُ تغازل ، وتُلحّ وتُحاكي وتدنو ، لكنّها غيرُ التجربة التي تشير إليها . الصّمتُ ، والودُّ ، وربما الموسيقا ، تعيش أقرب إلى حمى الحقيقة .

الرّوميّ[2] ثانيةً :

(١) هذا رأي عنايت خان ؛ ويحتاج إلى نقاش ليس ههنا مكانه [المترجم العربي] .

(٢) يشير إلى الشاعر الكبير جلال الدين الرّوميّ ؛ أحد شعراء هذا الكتاب .

أصْغِ إلى الأرواح الماثلة في القصائد
دَعْها تأخذْك حيثُ تشاءُ هي .

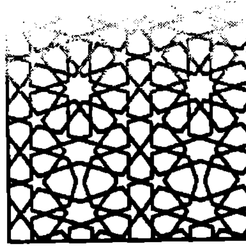
والترجمةُ ، إن حدثت في وقتٍ من الأوقات ، تحـاول أن تخرج من الطريق وتجعل طَعْمَ هـذه الأرواح العظيمـة مبـاشرًا . سُمُّوا « الكُمَّل » في التقليـد الصوفيّ . لقـد كانوا ، ويكونون ، هنا معنا . ويطمح هذا العملُ إلى أن يكون جزءاً من ذلك الرَّكْب .

دَعِ الجمالَ الـذي تهـواهُ أنفسُنـا يكنْ سُلوكًا لنـا في السِّرِّ والعَلَنِ (☆)

جلال الدين الرومي

كولمان باركس
٣١ آب ، ١٩٩٢ م

(☆) النَّظمُ للمترجم إلى العربية .



الشاعر والنبيّ

الشاعرُ والنّبيُّ

أحبّاءَ الله ،

موضوعي اليوم هو « الشاعر والنبيّ » . في اللغة الإنجليزية قولٌ يُرْبَط فيه اسمُ « النبيّ » دائمًا مع اسم « الشاعر » ، رغم أن كلمة « نبيّ » تشير إلى ما هو أكبر كثيرًا من المعنى الذي يعزى إليها أحيانًا في الغرب . ومبعث ذلك أنّ كلمة « نبيّ » كثيرًا ما تُستخدم في شخصٍ يُخْبِر عن المستقبل ، شخصٍ يقوم بالنبوءة ، لكن الحقيقة أنّ ميدان النبيّ أكبرُ كثيرًا من القيام بالتنبُّؤات فحسبُ . فكلمة « نبيّ » تتضمن : الزعيم الدّيني ، القدّيس ، العرّاف ، الصوفيّ ، المعلّم .

إنّ مصدر الشعر والنبوّة واحدٌ وهو المصدرُ نفسُه لا محالة : الشعرُ يتلقّى إلهامه من مصدر النبوّة نفسه عندما يكون الشاعر شاعرًا حقيقيًا . وعلى الرغم من ذلك ليس لزامًا أن يكون الشاعر نبيًّا ، لكنّ النبيّ شاعرٌ لا محالة .

وسببُ هذا تراه موضحًا في « أساطير » الهندوسيين من خلال « سارازفاتي Sarasvati » ، إلّهة الموسيقا والأدب ، فحِلْيَتُها ، جلوسها مع الطاووس ، ومع الفينة Vina ، ممسكةً بيدٍ البطاقات ، وبالأخرى زهرة لوتس ـ هذا كلّه يعني أنّ معرفةً حقيقيةً للحكمة الإلهية تعبّر عن نفسها في دنيا الجمال ، جمال النغم والإيقاع في الموسيقا .

ثمّ ما جوهرُ الشعر ؟ إنّه نصفُ موسيقا . إنه موسيقا الفِكَر . إنّ له أنغامًا حادّة وخفيضة كما هي الحال في الموسيقا . إنّ له أشكالاً مختلفة . إيقاعه يمثّل الموسيقا . والإلهام الإلهيّ يعبّر عن نفسه دائمًا في شكلٍ جميل ؛ لا يكون من دون جمال البتّة . ويبيّن لنا هذا أنّ كلّ ما هو جميلٌ هو تعبير إلهيّ ؛ وكلّما كان جميلاً كان أعظمَ في الجوهر الإلهيّ .

ولا شك في أنّـه في تلقّي إلهـام الشعر ، يكون العملُ لزامًـا من كلا الجـانبين ـ من جانب الشاعر ، ومن الرّوح الإلهيّ . فالشاعر الذي يأتي بقلبه إلى حـالٍ تـأذن لـه ، إن جـاز التعبير ، بـأن يعوم في محيـط الحكـة الإلهيـة سيحرّك على نحو طبيعيّ ذراعيـه في الإيقـاع . ولا يعني ذلـك أنّـه يعبّر عن الشعر في الإيقـاع ، بـل يتلقّى المعرفـة في الإيقاع . والإيقاع الذي يتلقّاه هو الإيقاعُ الوحيـد ؛ والموسيقـا التي يسمعُهـا في الحيـاة يعبّر عنها بالكلمات ، تَبَعًا لمعرفة اللغة التي يمتلكها .

وثمـة مثـالٌ رائع لهـذا في شـاعر هنـدوسيّ موغـل في القِـدَم . كان رجـلاً من أصـل متواضع جدّا ، ابن نسّاج قطن ؛ رجل لم يتلقَّ في طفولته أية ثقافة . كلّ مـا عنـده من أمر الثقافة اكتسبه من الحياة ، مما علّمته إيّاه الحياة ؛ وحيـاتـه غـدتْ إيقـاعَـه ، وكان متناغمًا جدّا إلى حدّ أنّ براهمة ذلك الزمان ، الـذين لم يـأذنوا للطبقـات الأُخَر بـالـدّنو منهم ، دعَوْه إلى حفلة عشاء .

ولمأدبة البراهمة طريقة خاصّة يتمّ ترتيبها وفقًا لها . فكلّ شخصٍ لـه طـاولـة يجلس إليها ، ويقدَّم الطعام على أوراق . ولا شك في أنّ الشاعر كُرِّم بدعوتهم ، لكنّ طـاولتـه لم توضع في الصفّ نفسه الذي وضعت فيه طاولات الْبَرَاهِمة . لاحظ هذا ، لكنّ إيقاعه لم يتغيَّر ؛ لقد قَبلَ الأمر .

وثمّة ضربٌ من التسليـة خلال تنـاول العشـاء ، وذلـك عنـدمـا يكون لكلّ شخصٍ فرصةٌ للتعبير عن نفسه بالإنشاد أو الغناء . وهذا يبيِّن ما يحبّون ، وما يتخيّلون ، وماذا يكونـون ـ على أيّ مفتـاحٍ « ولِّفتْ » أرواحُهم ، وعنـدمـا جـاءت فرصـة الشعر ليقـول شيئًا ، أنشد قصيـدةً ارتجلهـا توًّا وفي المكان نفسـه . إنهـا قصيـدةٌ رائعـة ، أمّـا معنـاهـا فيقول : « شكرًا للخالق الذي خلقني في أسرة لا قيمة لها ؛ ممـا جعلني أُحيِّي الجميع ، أهل الشرف وأهل الضَّعَة ، أيًّا كانوا . ولو قُدِّر عليّ أن أُولد في طبقةٍ عاليـة ، لربّما أكون قَـدْ مِتُّ ، كما مات كثير من الفخورين ، من الغرور » .

أُصيب البراهمةُ بذهولٍ ، ورأوا حقيقةَ الفلسفة . كانت رائعةً ، ولا يمكن لعاقلٍ أن ينكر الجمالَ الذي يكمن في إدراك الإلهيّ في الإنسان ، بعيدًا عن منزلته أو أسرته . وقد قيل في المناسبة عندما انتهت المأدبة : « إنّ من يعرف البراهما Brahma بَرَهْمِيّ » . وبتعبير آخر ، إنّ مَنْ يرى الله ، من يتعرّف الله في كلّ شيء ، بَرَهْميّ » .

والدّيوان الرائع الذي نظمه هذا الشاعر الهنديّ وُجد على مدى قرون في شكل مخطوط ، ولا يزال يبجّل بوصفه مخطوطًا ، وثمّة متابعة عظيمة لهذه القصيدة الخاصة أو الفلسفة . ولغةُ هذا الرجل عادية جدًّا ؛ ومن ثم قد تُدْهَش من أنّ شعره سيكون مقبولاً في بلدٍ كثير اللغات ، كالهند مع اللغة السنسكريتية ، واللغات الهندوستانية ، وستّين من اللهجات المختلفة . ينبغي أن يكون ثمة سببٌ لذلك . والسبب أنّه ، في الداخل ، كان أدبًا كاملاً . وداخلَ الغلاف الخارجيّ كانت الصورة الداخلية الحقيقية . كان جمالاً حيًّا .

إنّ نظم الشعر مع الْجُهْد يُشبه عملَ أيّ عملٍ آخر . إنّه عمل ذهنيّ . أمّا الشاعر الحقيقيّ ، أو الشاعر المرتبط بالنبيّ ، فلا يبذل أيّ جهد . فالشعر يأتيه مثل تساقط الغيث . نعم ، عليه أن يعبّر عنه بالكلمات ، لكنّ ذلك أيضًا يغدو سهلاً عليه . وليس حقًّا أنّ الكلمات تأتي من المصدر الإلهيّ ، لأنّ الكلمات لا تسكن هناك ، الكلمات تسكن هنا . ولولا أنّ الكلمات تأتي بسهولة متناهية ، لما استطاع الإنسان أن يعتقد إلاّ أنّها تأتي من مصدر إلهيّ .

ووجه الحق أنّ ما يأتي من المصدر الإلهيّ هو ذلك النور الذي لا يبقى معه شيءٌ مستورًا عن عيني العقل . العقل يبدأ بالرؤية . وعقل النفس الملهَمَة يختلف من هذه الوجهة عن العقل العاديّ . العقلُ العاديّ يكون في حجرة يوجد فيها كلُّ شيء ، لكنّ النّور غيرُ موجود . وهو لا يستطيع أن يجد الأشياء التي تكون هناك ؛ ليس في مقدوره أن يمسّ شيئًا أو يرى شيئًا .

والعقلُ الملهَمُ يستطيع أن يمسّ أيّ شيء هناك . ولذلك فإنّه على غرار ما تغدو الفِكَرُ مُوحاةً لِقلْبِ الملهم ، تأتيه الكلمات والأبيات . وتظهر اللّغة كما لو أنها كانت موحاةً ، ولكن ليس ثمّة إلاّ النور ، وعندما يكون النور قد انبثق ، يكون كلٌّ شيء واضحًا وليس عليه إلاّ أن يختار لنفسه .

وهكذا فإنّه بالنسبة إلى الشاعر المُلهَم ليس ثمّةَ صعوبةٌ البتّةَ في التعبير . إنّه كلّه موجود . ولعلّك تسأل : « أين يسقط النور ؟ ما الذي يغدو واضحًا ؟ » إنّه عالَمُه الخاصّ . كلّ ما كان قد تعلّمه ، وكلّ ما كان قد سمعه واكتسبه ـ ذلكم هو عالَمُه . وعندما يكون ذلك النور قد سطع ، تكون الحجرةُ المظلمة مضيئةً . كلّ ما لم يستطع أن يراه قبلُ غدا سهلاً عليه . شيء مدهشٌ .

ونقرأ في سِيَر عددٍ من الملهمين أنّ باب الإلهام لديهم فُتِح منذ اللحظة التي أحبوا فيها إنسانًا في هذا العالم . بدأ الشعرُ في حياتهم من اللحظة التي تدفّق فيها الحبُّ من القلب . أيّ تصوّرٍ جميل ورائع ! لكنه إذا كان ثمة أيُّ عنصر إلهيّ ، فإنّه في قلب الإنسان . وعندما انفتح قلبُ الإنسان ظهر العنصرُ الإلهيّ وتجلّى للعالَم . إنّه لحقّ : إيقاعُ الحياة يموت عندما يُنْهى الحبُّ . يبدو الأمر كأنّ إيقاع الحياة يتلاشى عندما يكون القلبُ قد برَدَ .

وثمة أمثلةٌ أُخَر عندما يكون الشخصُ قد عانى قدرًا كبيرًا من الألم فينبثق عليه الشعر ؛ لكنّ ذلك لا يكون إلاّ إذا هزّ الألَمُ القلبَ ، أمّا إذا ظلّ القلب باردًا فلا . وعندما يُهَزُّ القلبُ ، يُجيبُه الطّبْعُ . الشعرُ فِطْرَةٌ في الإنسان ، وهو يتدفّق كلّما تجلّت النفس .

وليس من الضرورة أن تكون شاعرًا لكي تعبّر عن طبيعتك الفِطْرية ، إذ يمكن أن تعبّر عنها بكلّ الأشياء ؛ في الرّسْم أو الكتابة ، في العمل ، في الحياة اليومية . إنّ مراعاة الإنسان لحقوق الآخرين ومشاعرهم ، احترامه في التعامل معهم ، كياسته ولطفه : كلٌّ

ذلك يأتي كالشعر ، في شكل عادة : كلّه شعر . وعندما لا يتذكّر المرءُ أن يقول شيئًا سينشأ عن ذلك نغمات متناثرة ؛ وأما عندما يفكّر في أن يقول الكلمة فإن ذلك سيجلب التناغم والحلاوة . وأنت لا تحتاج إلى النَّظْم ، فإنّ أمامك طرقًا كثيرة لتظهر ما في قلبك . فالروحُ الشعريّ ، والموهبةُ الشعرية ، يمكن أن تعبّر عنهما في حياتك .

إنّ الشاعر الذي يعْجز عن إظهار شعره في حياته شاعرٌ ضيئل الحظّ من الشعرية . لّما يبلغ المرحلة التي يمكن فيها أن يُقال عن شعره إنه شعرٌ ناضج ، ليس الأمر ما نقول ، بل ما نكون . إننا جميعًا نعبّر عن قلوبنا ، وأنفسنا ، وأحوالنا في كلّ ما نقوم به من عمل . لكنّ نزعة تلقّي كلّ الجمال الذي يمكن أن نتلقّاه ، وإعطائه إلى الآخرين ـ تلك هي النزعة الشعرية ، وتترقّى هذه إلى مستوى النزعة النبويّة .

إنّ الروح العظيم ينبغي أن يظهّر نفسَه . أمّا لِمَ يفعل هذا ؟ ـ فلأنّه ميلٌ إنسانيّ فِطْريّ أنّ كلَّ الفِكَر الجميلة ، وكلَّ الأشياء الرائعة التي يراها الإنسانُ ، يجد الفكرةَ الأولى لديه أن يُرِيَها الشخصَ الذي يقف إلى جانبه : « انظر ما أروعَهُ » . وهو لا يرضى إلاّ بذلك .

وحين نتأمّل تاريخ العالَم ، سليمان ، وداود ، وإبراهيم ، وموسى ، وزردشت ، وعيسى ، ومحّمد ، وراما ، وكْرِشْنا ، وشيفا ، وبوذا ، هؤلاء جميعًا ـ قدّموا الحقيقة في الشعر ، في النَّظْم . والسّببُ أنّ أرواحَهم تُرْقَص عندما يشعرون بهذا ، عندما يكونون واعين للوجود في الله . يُقال : « نحن نحيا ، ونتحرّك ، ونكتسب وجودنا في الله » . وعندما يعي الرّوحُ هذا ، سيرقص ، ولن يكون في مقدروه السّكون . وليس في مقدور الرّوح الراقص أن يعبّر عن نفسه إلاّ في الإيقاع وفي الشعر . وهو لا يستطيع الإحجام عن تظهير نفسه في موسيقا تروق أرواحًا أُخَر .

إنّ أشعار حافظ ، والرّومي ، ما تزال في الشرق شيئًا جذّابًا مفعمًا بالنضارة . وبعدهما جاء عددٌ من الشعراء وتبنّوا الطريقَ نفسَه في التعبير عن أنفسهم ، لكنّه لا أحد

منهم عزف النّغمَ نفسه . فلا منافسة في الأشياء الرّوحية . المنافسة في الأشياء المادّية فحسب ، ومن ثم وُجِد عددٌ كبير من الشعراء منذ زمان حافظ ، لكنه ليس منهم من عزف النغم نفسَه . لم يستطع أحدٌ أن يضارعه .

إلهامُ الروميّ كان مختلفًا ، كان أكثر صوفيّةً . الشعور الذي يأنسه المرءُ في شعر الروميّ مختلفٌ عن ذلك الذي يأنسه في شعر حافظ . في شعر حافظ ثمة إيقاعٌ ، جمالٌ ، حُبّ ؛ أمّا في شعر الرّومي فثمة تبصُّر عميق وحبٌّ وتلمّسٌ للإلهيّ في الموجودات جميعًا . ولعلّ عددًا كبيرًا من الأشخاص في الشرق بلغوا مرحلة الورع بقراءة أعمال الروميّ المُلْهَمة .

وحتى اليوم ، وبعد مضيّ عدة قرون على رحيله من هذه الدنيا ، لا يستطيع إنسانٌ على قدْرٍ من رقّة الشعور ورهافة الحسّ أن يقرأ أشعاره دون أن يسكب العبرات . يبدو شعرُه يمتلك الحياة . فوراء الكلمات ثمة نورٌ إلهيّ . يتّسم شعرُه بتأثيرٍ يمكن أن يُخالط شغاف القلب ، يمكن أن يذكّر الإنسان بالصّفة الحقيقية للحياة . إنّه حقيقةٌ ، إنّه طبيعة . يقدّم الرّومي للإنسانية سِرًّا مكشوفًا لكلمة حياة في شكل شعر .

تقديمُ حافظ مختلفٌ ، رغم أنّ حافظا يُكِنّ احترامًا عظيمًا لأشعار الروميّ . وهو يقول في ملاحظاته حول أعمال الروميّ التي كان قد نظمها شعرًا بالفارسية : «عندما أفكّر في العمل العظيم لجلال الدين الرّومي ، ورغم أنّني لن أدعوه نبيًّا ، أرى أنّه قد أتى العالَمَ بكتابٍ مُقدّس » .

والسؤالُ الآنَ هو : « هل يُولَدُ الشعراءُ ؟ ـ هل يولَدُ الأنبياء ؟ » . والإجابة هي أننا جميعًا نُولَدُ ، نُولَدُ من أجل كلّ ذلك الذي نفعلُه ونمتلكُه ونحقّقه في الحياة . وليس في العالَم إنسانٌ ليس له رسالةٌ ينفّذها وينجزها ، وشقاءُ أيّ إنسان يتمثّل في عدم استعداده لفهم الغاية التي يولدُ من أجلها . فحياةُ الارتباك مبعثُها دائمًا أشخاصٌ يهيمون دائمًا في أوديةٍ بعيدة عن الغاية التي وُلِدوا من أجلها .

ثمة خَطَأ عظيم كثيرًا ما يقترفه الإنسان : أنه مستعدّ جدًّا للولَع بالأشياء ، وللبحثِ عن رغائبه الآنيّة ، منطلقًا من شيء إلى آخر ، وهكذا بمرور الزمان يُضيع الخيطَ الذي يجعله يشعر بطريقه ، وبعمله في الحياة ، وبمكانه ، وما كان يمكن أن ينجزه . ومتى أُضيع هذا الخيطُ ، غدا الإنسانُ بعيدًا عن الوطن . وهو لا يجد نفسه في الوطن في بلده الخاصّ ، في بيته الخاص ؛ خُذْه إلى الفردوس ورغم ذلك لن يشعر أنّه في الوطن ؛ لأنه فقد ذلك الخيط . هناك أغنيةٌ تُدعى : « بيتٌ ، بيتٌ رائع » لكنّ بيتَنا الحقيقيّ وأروعَ البيوت إنما هو المكانُ الذي يكون مكانَنا في الحياة .

في القيثارة مكانٌ لكلّ وتَر ، وعندما لا يوضع ذلك الوترُ الوضعَ الصحيح لا يخدم الغاية المنشودة ـ لا يُصْدِر الصّوتَ الْحُلْوَ الذي يُتوقّع منه . وكلُّ الناس في هذا العالَم مِثْلُ أوتارٍ مختلفة لآلةٍ واحدة ، الكون ، يعزف عليها **الكائن الإلهيّ** موسيقاه . وقوةُ الإحساس التي يُعْطاها الإنسان ، إنّما يُعْطاها ليبحث في الحياة عن مكانه ، عن هدفه . وكلّما اقترب من هدفه ، ازداد إحساسُه ، لأن سعادته الوحيدة في هدفه في الحياة .

ليس من العادة أن يسأل الإنسانُ العرّافين ، أو المستبصِرين أو الوسطاء الروحيّين ، عن « هدفه في الحياة » . فبأيّ حقّ ، وبأيّة قوة ، يعرف الآخرُ مكانَ الإنسان ؟ ـ إنّ معرفة ذلك مسؤوليةٌ خاصّة للإنسان .

إنّ للشعر والنبوّة جذورهما الضاربة في أعماق كلّ شخص . ثمّة مَلَكةُ حَدْسٍ يولَد منها الشعرُ والنبوّة . ورغم أنّ هناك اختلافاتٍ ، واختلافات عظيمة ، بين الأشخاص ـ ليس ثمة شخصٌ لا يمتلك في قلبه تلك الجذوة التي يمكن أن تسمّى « إلهية » ، وإذا ما استيقن الإنسانُ من هذا فلن يرى شيئًا من الأشياء مستحيلاً على الإنسان . ليس ثمة شيء يمكن أن يحقّق مستحيلاً على الكائن البشريّ . أو إن وُجِد شيء من هذا القبيل ، فالتقصير من جانب الإنسان ، وليس من جانب الله ، وإنّه بسبب افتقارنا إلى الصّبر ، والتفكير ، والصمت ، وقوة الإرادة ، والفعل الذي يُحْدِث التّواؤمَ والسّلام ، نغدو

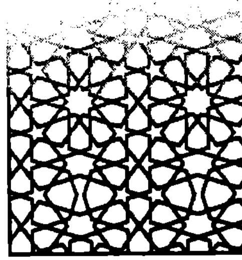
مشوَّشين في الحياة ونهيم بعيدًا عن ذلك الحبل الذي يربطنا بهدفنا ، بالحياة الإلهيّة ، بكلّ إلهامٍ ومعرفةٍ ، هذه التي إذا ما بحث عنها الإنسان بأناةٍ وشوقٍ أدركها لا محالةَ .

نعم ، ثمّة عملانِ متميّزان هما عملا الشاعر والنبيّ . والعمل المتميّز للشاعر يتمثّل في إعداد القلب لتلقّي ذلك النّور الذي يأتي ؛ وعملُ النبيّ هو الإتيانُ بذلك النور وسَكْبه في قلوب الناس . مثلُ هذا العمل يقوم به كلّ شخصٍ على نحو مصغّر . ففي مستطاع الأمهات أن يقمن به إزاء أطفالهنّ . وذوو الدّماثة من الأصدقاء يقومون بهذا إزاء أصدقائهم . إذ يستطيعون إعداد قلوبهم باللّطف ، وبالحبّ المفعم بالحياة ، يستطيعون أن يزرعوا في قلوبهم كلّ ما يجب أن يُنْتَج هناك .

لكنّه ليس في متناول كلّ إنسان أن يفعل هذا ، وعندما يحاول الإنسان أن يفعل شيئًا هو غيرُ مؤهّلٍ لفعله ، يسيءُ أكثرَ ممّا يُحْسِن . في أحيانٍ كثيرة يكون الناس متلهّفين فقط لجعل الأخت ، أو الأخ أو الصديق ، يرون الأشياء من وجهة نظرهم الخاصّة ، أو يعملون كما يشاؤون لهم أن يعملوا ، وهم بهذا يثيرون البغضاء . وهم لا يُنتجون إلاّ ضَرْبًا من التهيّج ، وكلّما لامسوا هذا التهيّج غدا مؤلِمًا ، والنتيجة قاتلة . ولذلك فإنه ليس من شأن كلّ إنسان أن يفعل هذا . وقبل أن يحاول الإنسانُ ، عليه أن يرى إن كان في مقدوره أن يقف على قدميه ؛ وعليه بعد ذلك أن يرى كيف يؤثّر الفكرُ والتأثيرُ أحدُهما في الآخر . وإنّ أمثل الطرق للتعليم تتمّ بالأمثلة . والكلمات تُضايق فقط . وكلماتٌ من غير حياة لا قوة لها . وما يُثمر خير النتائج هو أن ينفّذ الإنسانُ نظريتَه ، يحيا عقيدته ، يمارس أفكاره . وهذا يجعل الإنسانَ مثالاً لفكرته ، ولن يحتاج بعد ذلك إلى أن يقول . فهو المثال .

وأولئك الذين تكون قلوبُهم حيّةً ليس في مقدروهم إلاّ أن يقبلوا التعليم ، الفكر ، العونَ الذي يُقدَّم . لكنّ الحقيقة العِيانية أنّ ما فعله المعلّمون العظماء هو أنهم أتوا إلى العالَم باللهِ الحيّ . ففي العالم إيمانٌ بـ « الله » لكنّه أين يجد الإنسانُ « اللهَ » الحيّ ؟

ما يتوقَ إليه الإنسان هو « الله » الحيّ . أمّا أولئك الذين أداروا ظهورهم لله ، فليس ذلك بسبب أنّهم ضدٌّ الله ، بل بسبب أنّهم لا يستطيعون أن يجدوا الله الحيّ . وما جاء به الأنبياءُ في كلّ العصور إنما كان « الله » الحيّ - لينوِّر الإنسانية ، وليساعدها ، وليقوّيها في رحلة السَّيْر نحو الكمال .



سَنَائي : الظّلامُ الخيّر

مدخل المترجم(☆)

سَنائي : الظّلام الخيِّر

لا نكاد نعرفُ عن سنائي سوى أنّه عاش في غَزْنـة واتّصل ببلاط بَهْرامشـاه ، الـذي امتدّ حكمُه من سنـة ١١١٨ م إلى سنـة ١١٥٢ م . وربمـا يكون سنـائي توفي حوالي سنـة ١١٥٠ م . وعملُـه المشهور كثيرًا هـو « حـديقـة الحقيقـة » (١١٣١ م) . وقـد بقيت لـه كذلك مجموعة من القصائد الرقيقة .

تتضمّن الأسطورةُ الأكثر شهرة حول سنـائي التحوّلَ الرئيس في حيـاتـه من شـاعر بلاط إلى الصوفيّ الكبير الذي كتب « الحديقة » . كان سلطانُ غزنة ، بهرامشاه ، يباشر حملةً عسكريةً على الهند . وكان معـه سنـائي ليسجّل المعـارك شعرًا ، وليعلي من شـأن مليكه ، على عادة شعراء البلاط . والحقّ أنّ سنائي كان قد أنهى توًّا مِدْحةً من مِدَحه ، عندما مرّت الحملـةُ بحـديقـة (فردوس في اللغـة الفـارسيـة ، ومنهـا الكلمـة الإنكليزيـة « Paradise ») . سمعوا موسيقا جميلة وغناء يأتيان من داخل السِّياج . فتّشوا فرأوا أنّه الصّوفيّ السّيئ السّمعة ، والسِّكّير ، والمعلِّم « لاي خور » .

رأى لاي خـور السّلطـانَ واقترح خبزًا محمّصًا « لعمى بَهْرامشـاه » ، اعترض بعضُ الضبّاط ، وأوضح « لاي خور » أنّ « بهرامشاه ماضٍ في هذه الحملـة الحمقـاء إلى الهنـد في الوقت الذي يُحْتاجُ إليه في وطنه ، وبالإضافة إلى ذلك فـإنّ مـا يبحث عنـه موجودٌ في نفسه » . أدرك بهرامشاه حقيقةَ ما قاله المجنون ، ولكن ليس إلى الحدّ الذي يجعلـه يعود بجيشه إلى الوراء . ثم اقترح لاي خور خبزًا آخر « للحكيم سنائي ، ولِعَماه الأشدّ ! » .

(☆) تشير هـذه العبـارة « مـدخل المترجم » هنـا وفي الفصول الـلاحقـة إلى المترجم إلى الإنكليزيـة ؛ الشـاعر الأمريكي كُلِمان باركس . (المترجم إلى العربية) .

ـ « ماذا تريد ؟ »

ـ « أنت غيرُ مدركٍ الهدف من حياتك . ستأتي أمام عرش الله حاملاً هذه القصائد التافهة في مديح الجهالات السياسية » . نظر سنائي في عيني لاي خور ، وعرف على نحو مفاجئ هدفَ حياته . تخلّى عن خدمة السلطان ، رغم أنه كان موعودًا بنصف أموال المملكة وبالزواج من ابنة السلطان . كان بهرامشاه يائسًا ، وقد تلقّى الدرس نفسه ، وكان عاجزًا عن الرّدّ . أمّا سنائي فكان غير متأثّر بحالته الجديدة . وابتغاء أن يتشرّب الاستنارة ذهب إلى الحج . وعندما عاد إلى غزنةَ من مكّة ، كان معه « الحديقة » .

سأشدّد على الصّرامة عند سنائي . فهو يُوقِظ من خلال الاتهام والصدّ أكثر مما يوقِظ الرّومي . فثمّةَ إضاءة كالشمس هنا ، تسبق رَعْد الصَّيف عند الروميّ .

إنّ معظم ترجمات سنائي تمّت بالتعاون مع كتاب ميجور ستيفنسون عام ١٩٠٨ م . أما عمل ديفيد بِنْدِلبوري الأحدث عهدًا فله تناغم عميق مع سنائي ، و « الخاتمة » في كتيّبه عميقة جدًّا ورائعة . لم أحاول « الاستفادة » من أيٍّ من عملي بندلبوري ، لكنّني انشغلتُ بعددٍ من نماذج شعر سنائي التي يترجمها ي . هـ . براون في كتابه : « تاريخ الأدب في إيران Literary History of Persia » ، جـ ٢ .

يعلّم التلاميذ

أنتَ لا تميزُ بينَ
ما هو صِحّةٌ وما هو مَرض .
ليس في مقدورك أن تبيّن الْفَرْقَ بين
عالَمِ الغيب وهذا العالَم .
أنت لا تسلك الطَّريقَ .
أنت صبيٌّ يلهو ،
فخورٌ بحرّيّتك .
إذا كان سِحْرُ سيِّدةٍ كافيًا
للرّضا ، فلماذا تحتاجُ إلى الله ؟
إذا كنتَ تعرف ما يُبْهِجُ ،
فكيف يمكن أن تُجْذبَ نحو الخلود ؟
ولكن كُنْ أحيانًا ليّنَ العريكة تعلّم التلاميذ .
إذا وجد أحدُهم صعوبةً في تعلُّمِ
درْسٍ خاصٍّ ، فكن لطيفًا .
لا تثبّطْ هِمّةَ أيّ طفلٍ
بالنّقْد المرّ .

ضَعْ في فيه قطعةَ حَلْوى .
اِمْسَحْ على رأسِه . ساعِدْه على أن يحاول مرّة أخرى .
وبعد ذلك إذا رفض تلميذُك
التركيز على الصفحة ،
إذا لم يقرأ ، اطلب السّوط .
هدِّد بأخذه إلى المسؤولين .
قل إنّه سيُغلَق عليه في بيت الْجُرْذان
وإنّ الْجُرْذ الكبير سيأكله !
هكذا نلتزم السَّيْرَ على الطريق .
نكهاتٌ قليلة تشجّعُنا .
وهناك كتبٌ علينا أن نحاول
قراءتَها ، الأنبياء . كنْ متودّدًا
لأولئك واصنعْ صنيعَ التلاميذ
في الْفَهْم ، والحِفْظ ، رغم
أنّ هذا العالَم مملوءٌ بأناسٍ
لا يقرؤون ، ويظلّون
في سُبَاتٍ عميق .

التدفّق

عندما يُشْعِلُ الطريقُ نفْسًا
لا يكون ثمّةَ بقاءٌ في المكان .

القدَمُ تلامِسُ الأرضَ
ولكن إلى أمدٍ يسير .

الطّريقُ الّذي يُذيع فيه الحبُّ سِرَّهُ
يظلُّ دائمًا في حركةٍ ،
ولا تكون « أنتَ » هناك ، ولا عقلٌ .

يحثّ الفارس جوادَه على الْعَدْو ،
وعند ذلك ، يرمي بنفسِهِ
تحتَ الحوافر الطائرة في الهواء .

في وحْدة ـ الحبّ ليس ثمة قديمٌ أو جديد .
كلُّ شيءٍ عَدَمٌ .
اللهُ وحْدَه موجودٌ .

عند أرباب العِشْقِ يغدو حجابُ الظواهر شفّافًا جدًا .
والرّسومُ الدقيقةُ عليه لا يمكن أن
تُوضِحَها اللّغةُ .

الغيومُ تتبدّد عندما تطْلُعُ الشمسُ ،
وعالَمُ ـ الحبّ يفيض مع النّور .
لكنّ ماء السَّحاب يمكن أن يكون قاتمًا ،
ونافعًا .
ثمّة عاطفةٌ تغطّي البهاءَ ،
بدلاً من أن تنحلَّ فيه .
وإنّهُ لاختلافٌ دقيقٌ ،
كالانتقال في الفارسية
من كلمة « ودّ »
إلى كلمة « عمل » .
يحدثُ ذلك بوضع نقطة فقط
فوق الحرف الثالث أو تحته .
ثمّة تصوّرٌ لجمال
الاتّحاد لا يعملُ بقوة
في حديث الباطن .
لتنطلِقْ يداكَ وقدماكَ ،
كما يتدفّق الجدولُ ، يَجْهَدُ
كأنَّ ذلك طبيعةٌ له ، ليبلغَ المحيط .
وبعدئذٍ لا يكون ثمّةَ ذِكْرٌ كثير
للبحث .

الشّهرةُ ، أو الضَّعةُ ،
أن تكون في الطّليعة أو وراء ، هذه الشواغِلُ
صخورٌ وأماكن إعاقة
تُبطّئُ سَيْرَك . كُنْ متجرّدًا كحبّة الْقَمْحِ
خارجَ قشرتها ، وعاريًا مثلَ آدم .
لا تَنْشُد سوى
الطَّلْعةِ .
لا تتحدّث عن « أنتَ »
بعيدًا عن « ذلك » .
الوعاءُ المملوءُ لا يمكن أن يملأ أكثر .
كنْ كلَّ شيءٍ ، ولا شيئا .

وردة الذّكْر البرّيّة

أولئك العاجزون عن أن يَحْزَنوا ،
أو عن الكلام على حبِّهمْ ، أو عن الذّكْر ، أولئك
الذين لا يستطيعون ذكرَ اللهِ
مَصْدرِ كلّ الأشياء ،
يمكن أن يوصفوا بأنّهم هُراءٌ فارغٌ ،
أو سِنْدانٌ بارد ، أو مجموعة
أناسٍ قدماء مرعبين .
قل « الاسْمَ » . رطِّبْ لسانَك
بالذّكْرِ ، وكنْ أرضَ الربيع ،
يقظًا . دَعْ فَمَك يكتسب
سَداتَه الصّفراءَ الذّهبية كسَداةِ الوردة البرّيّة .
عندما تمتلئُ بالحكمة ،
ويمتلئُ قلبك بالحبّ ،
ليس ثمّةَ عطشٌ بعد ذلك .
ليس ثمة إلاّ صَبْرٌ غير أنانيّ
ينتظر عند العتبة ، صمتٌ
لا يُصغي إلى النّصْحِ

من أولئك المارّين في الشارع .

العمل النشيط

إذا كنتَ تبْغي الْحُظوةَ باللؤلؤة ،
فارحلْ عن الدّاخل ،
وطوّف في البحار .
وحتّى إنْ لم تجدْها ،
فأنتَ على الأقلّ
قريبٌ من الماء .
كنْ محاربًا !
اطلبْ شيئًا ما
بقوّة ! امتطِ صهوةَ جوادِك
واستعدّ للبحث .
لا تَقْبَلْ تاجًا
مصنوعًا من هذه السّماء المرئيّة .
انتظر ما يأتيكَ به جبريل .
اجْهَدْ في العمل الذي
يوصلك إلى الله !
الضعيفُ والمريضُ لا « يفكّران » إلاّ

بالاستسلام . استَلْقِ أمامَ
الباب الّذي تتوقُ إلى أن تدخلَهُ .
أعلِنْ حبَّك كلَّه .
الكَلْبُ وحْدَه يَقعي متبطِّلاً
يَلْعَق عَظْمًا .

الظّلامُ الخيِّر

ثمّة سرورٌ عظيم في الظّلام .
عَمِّقْهُ .
الارتباكاتُ التي يحمرّ الوجهُ منها خَجَلاً
في العتمة
تشوِّش ،
لكنّ وجهًا أسفعَ مُسْوَدّا
يمكن أن يبتسم مِثْلَ حَبَشيٍّ ،
أو فراشةٍ مشتعلة ،
يقتربُ من الله .
أزهرُ من كلّ الأقمارِ ، بلالُ ،
حبيبُ محمّدٍ ، الأسودُ ،
ظلَّله في الإسْراء .
دَعْ أعمقَ أسرارِك مخفيًّا
في الظلام تحت جلاء وضَحِ النهار
وقِناع الليل المسْدَل .
وكلٌّ ما يُقدَّم لك من هذين الاثنين

إنما هو من أجل رغباتك . وهما يسمّان
أحيانًا . وأسفلَ كثيرًا ، إذْ يُمحى
وجهُك ، وإذْ يجري ماءُ الحياة بِصَمْتٍ ،
ثمّةَ سجنٌ لا مأكلَ فيه ولا مشربَ ،
ولا تعاليمَ أخلاقية ، ينفتح على حديقةٍ
ليس فيها إلاّ الله . لا نَفْسَ ،
لا شيءَ إلاّ كلمة الخلق « كُنْ » .
أنتَ ، يا مَنْ تستمع إليّ ، لُفّ بساطَ
الزمانِ والمكان . ارجعْ إلى الوراء ،
إلى الكلمة الوحيدة .
من دون تردُّدٍ ، تقبَّلْ ما أقول .
خذْ « لا خير »
من أجل غناك وقوتك .
اجعلْ « لا شيءَ »
حكمةَ الْحُبّ في كأسِك .

عارٍ في بيت النّحْل

التذلُّلُ خيرٌ لك الآن .
لا تضعِ الخِطَطَ لإظهار قوّتك .
أنت عارٍ في بيت النّحل !
ولن يفيدك أن تكون
ذراعاك وساقاك قويّتين .
فعند الله ، ذلك أكثر كذِبًا
من ضَعْفِك .
وفي بابه ليس مقامُك
وقوّتُك المادّيةُ سوى غبارٍ
على وجهك . كنْ عاجزًا
وفقيرًا .
ولا تحاولْ أن تقابلَ عينَه !
فذلك مثلُ توقيع وثيقة
تشرّف مقامَك
إن استطعْتَ أن تحذر الأشياء ، فافعل !
أمّا عندما تحيا في البيت مع الله ،

فلا تَرْتُقِ العالم وتجمعه بخيط الرغائب
ولا تفتَقْهُ وتبدّدْه
بالإحباطات .

في ذلك المكان الوجودُ نفسُهُ
وهْمٌ . وكلٌّ ما هو موجودٌ ، هو واحد .

عندما تغيبُ في ذلك ، تغدو صورتُك الشخصية
مسجدًا واسعًا فارغًا .

عندما تنشغلُ بنفسك ،
تكون معبدًا لعبادة النار .
تلاشَ ، ودَعْ كلَّ شيء يجري كما هو .
وعندما لا تفعل ذلك ، تكون مُهْرًا جامحًا ،
ممتلئًا بالحبّ الشاذّ والْعَضّ .
وفيًّا حينًا ، وغادرًا أحيانًا .
كُنْ كالعبدِ الذي لا يملك شيئًا
ولا هو جائعٌ ولا شبعان ،
ولا يؤمّل بأيّ شيءٍ ،
ولا يخشى أحدًا .
الْبُومةُ التي تعيش قرْبَ قصر الملك
تُعَدّ طائرًا لسوء الحظّ ،
مهمَلاً ومنذِرًا بالشّؤم . أمّا بعيدًا في الغابات ،

إذ تجلسُ وحْدَها ، فينمو ريشُها مُشْرِقًا
أمْلسَ كالعنقاء(☆) المنبعثة من جديد .

لا ينبغي أن يُحفظ المِسْكُ قرب الماء أو الحرارة .
فالرّطوبةُ والجفاف يذهبانِ بشَذاه
أمّا عندما يكون المِسْك في موطنه
في جِراب المِسْك ، فإنّ الحرارة والرطوبة
لا تعنيانِ شيئًا . وعند باب اللهِ لا تُعدّ إساءتُك
ولا إحسانُك شيئًا .

أن تكون مسْلِمًا ، أو مسيحيًّا ، أو
عابدًا للنّار ، التصنيفاتُ تختفي .

أنت تبحثُ ، والله هو
مَنْ تبحثُ عنه ، والجوهرُ وراءَ أيّ سبب .

الدّرسُ اللاّهوتيّ السّطحيّ يتنقّل كالقمرِ
ثم يتوارى عندما تبزغُ شمسُ التجربة واليقين .

نحن هنا لأُسبوعٍ ، أو أقلّ .
ونحن نصِلُ ونُغادر على النحو نفسه تقريبًا .

كونُك في أن لا تكون .

يقولُ الذِّكرُ الحكيمُ : « يوم ترى المؤمنينَ والمؤمناتِ

(☆) طائر خرافي زعم قدماءُ المصريين أنّه يعمَّر خمسة قرون أو ستّة ، وبعد أن يحرق نفسه ينبعث من رماده وهو أتمّ ما يكون شبابًا وجمالاً [المترجم] .

يسعى نورُهم بين أيديهم »

أنِر الطريقَ ! يقول محمّد [عليه الصلاة والسلام] : « كَمْ هو جميلٌ ! »
تنطلقُ التنهدّةُ ، ويكون هناك اتحادٌ .

اِنسَ كيفَ جئتَ إلى هذه البوابة ، انسَ تاريخك .
اجعلْ ذلك كأنه لم يكن .

هل تعتقدُ أن النّهارَ يخطّطُ لِسَيْرِهِ
بما يقولُ الدّيكُ ؟

لا يعتمدُ الله على أيٍّ من مخلوقاته .
وجودُكَ وعدمُه سيّانِ .
كثيرون مِنْ أمثالك زاروا هذه الدنيا من قبلُ .

وعندما ينهمر يَنْبوعُ الضّياء ،
لا حاجةَ إلى حَثّه !
ذلك مِثْلُ حَفْنة قَشٍّ
تحاول مساعدة الشمس . « هذا الطريق !
فاسْمَحْ مِنْ فضلِك للضياء أن ينتشر ! » .

لا تحتاج الشمسُ إلى مَنْ يُعْلِن أمرها .
والمصباحُ الذي تحمله هو اعتمادُك على ذاتك .
أمّا الشمسُ فشيءٌ آخر !

نِصْفُ عَطْسةٍ قد تطفئُ مصباحَك
في حين أنّ كلّ عَصْف الشتاء

لا يطفئ « تِلْك » .

الطريقَ الذي ينبغي أن تسلكه ليس له اسمٌ خاصٌّ
إنه طريق مؤلّف من آهاتِك
وتجرُّدك . وما تفعلُه
ليس ورَعًا . آمالُك وهمومُك
كالْحُمُرِ الطّليقة ،
طيّعةً أحيانًا ، ومزعجةً على حين غِرّة .

يبدو وجهُك حكيمًا أحيانًا ،
وخجِلاً أحيانًا أخرى .
ثَمّةَ طريقٌ آخر ، الْمَحْوُ التَّامُّ
عندما يكون هذانِ تعبيرًا واحدًا .

رأى عُمرُ مرّةً جَمْعَ أولادٍ على الطريق
يدعو كلٌّ منهم الآخر إلى المبارزة .
كانوا جميعًا يزعمون أنّهم أبطالٌ ،
ولكنْ عندما جاء عمرُ المحاربُ الشديدُ
قريبًا منهم ، افترقوا .

انصرفوا جميعًا إلاّ واحدًا ، عبد الله بن الزّبير .
قال عمرُ : « لماذا لم تنصرف ؟ »
وَلِمَ يجب أن أنصرف ، لسْتَ طاغيةً
ولسْتُ مذنبًا » .

عندما يدركُ المرءُ قيمتَه الداخلية ،
لا يهمُّه أَن يكون مقبولاً
أو مرفوضًا عند أيٍّ إنسان .
الملِكُ هنا قويّ وعادِلٌ
قِفْ مندهشًا في حضرته
فلا شيءَ إلاّ تلك .

هِدايةُ دودة الأرض

اللهُ يعرف الأعماقَ
التي يمكن أن تبحر إليها كلُّ نفسٍ ، قدرةَ
كلّ مخلوق . اللهُ يخلُقُ
حِكْمتَك جزءًا من حكمِته ،
التي لا عَقْلَ فيها . إذ العَقْلُ
مصنوعٌ من عناصر ، مثلما أنّ الشّهوة
تأتي من الجسم . معرفةٌ أخرى
تعيش خارجَ الزمان . الصّمتُ
أمام ذلك أعظمُ بلاغةٍ .
خيرُ طعامِ حياتِك سِماطٌ ليس عليه شيءٌ .
ليس لديك رغبة قادرة على تمنّي
ما قد أعدّه الله لكَ من قبل .
صِلْ غدًا باليومِ وادخلْ
في فَرَحٍ جديد ، يقول الله ! وذلك يكفي !
الله يبحث عنك ! فكن مِثْلَ
الْمُقْعَدِ . ابقَ صامتًا ، وفي مكانٍ واحدٍ .

الجهلُ خيرٌ إزاء ذلك الذّكاء .
إنّ مَنْ يجعلُ غيرَ الموجود وجودًا
يُوقِفُ إيقاعَ الطَّمْث لينشئ
طفلاً . صورتُك تتضمّن سِرّ الله
فيها . اللهُ يَعْرِفُك أكثرَ كثيرًا
مما تعرف أنتَ نفسَك . لا تصرِّحْ
بأسَاكَ . الله يذكره سابقًا .
وهو يسمعُ دبيبَ النملةِ على
الصخرة في اللّيلة الظلماء ، والحجرَ
يتدحرجُ في الجدول ، والدّودةَ
تلهج بالثناء في باطن الأرض .
عندما تتلقّى الدّودةُ طعامًا
من الأرضِ تندفع قُدُمًا ،
وهكذا يُقدَّم لنا درْسُ الهِداية .
اتَّبعْ ما تعيشُ فيه ، المقدَّم إليك ،
وإلاّ ستأتي في النهاية تسْبحُ
في محيطٍ من خِزْيك .

اللُّغزُ

إنّ من يبقى بعيدًا عن المعاناة
ليس عاشقًا . أنا أؤثر حبَّك
على كلّ شيءٍ آخَر . أمّا الغنى
فإن جاء ، أو ذهب ، فليس مهمًا .
الغنى والحبُّ يسْكنان عالَمَيْنِ منفصلين .
أمّا ما دمتَ أنتَ تحيا هنا في داخلي
فلَنْ أستطيع القولَ إنّي أُعاني .

الوقتُ المطلوب

إنّ سِنين كثيرةً ينبغي أن تمرّ قبل أن
تستطيع الشمسُ تحويلَ صخرةٍ يمنيّةٍ إلى ياقوتة .
وأشهرًا ينبغي أن تمرَّ قبل أن تستطيع بذرةُ القطن
أن تقدّم غطاءً لا تجعيد فيه .
وأيّامًا يجب أن تنقضي قبل أن
يُصبح مقدارٌ من الصّوف حَبْلَ مشنقة .
وعشراتِ السّنينَ لا بدّ منها ليتحوّل
الطفلُ إلى شاعر .
وحضاراتٍ تسقط وتختفي آثارها
لتنمو روضةٌ فوق هذه الآثار ،
الصوفيّ الحقّ .

رحلةُ النفس في عوالمِ الزّمان

ـ ١ ـ

مُلْقًى من مَنْشئي ، رُبِّيتُ
في هذه الدّنيا البائسة من جانب حَضْرةٍ
مجسَّدةٍ في حركات السماء ،
السّماءُ نفسُها التي عُنِيتْ بآدم ،
ووجّهتْ أولادَه إلى الأعلى
من خلال مقياس الوعي
وَفْقًا لطاقاتهم .
هِيَ الكُلُّ
الذي فيه تنمو كلُّ الأشياء ،
والقوة الطبيعية المتكاثرة .
وهي تدعو السَّرْوَ
وهو يرتفع مستقيمًا . وتدعو الإنسان ،
وسائِلُها الحيُّ يتقدّم ليجعله منتصبا .
هكذا تمّ تشكيلي ،
وتنقّلتُ في الصحراء ،

وفي الجبال لازمَتْني
حيواناتٌ بريّة حَوْلي وفي داخلي .
ثمّ استيقظتُ فيّ انتباهةٌ وكَشْفٌ ، فأبصرتُ وجه روحي ،
وأحسستُ بأنّني أُجتَذَبُ إلى الأعلى ، ولكن أظلّ مشدودًا إلى الأسفل أيضًا ،
بفعل الآخر ، مقموعًا ، ومتحيّرًا ، ومن دون
اهتداء ، أسرعتُ ، كما لو أنّني فررتُ من بيت يحترق ،
إلى ممرٍّ ضيّقٍ يدور لولبيًّا نحو الأعلى .
أجرافٌ خطيرة ، القمةُ بعيدة .
كان رجائي الوحيد أن أموت .

ـ ٢ ـ

ثم في ذلك الظلام الدّامس ،
رأيتُ رجلاً طاعنًا في السنّ يطفحُ وجهُهُ بالنور .
صِحتُ : « أنت القمرُ ! »
« من أين أنتَ ؟ »
« أنا وراءَ المادّة والمكان .
أنا عِلّةُ الْخَلْقِ ، جئتُ هنا لأعيدك
إلى وطنك . تماسَكْ ،
ودَعْ ناري تلتهمك . لا تخفْ
من ضياع قوّتكَ هنا . هذه النارُ

هي التي فيها ينبوع الماء السّرمديّ .
وعندما تموت نفسُك الحيوانية ،
ستُولَدُ نفسُك الجديدة .
عِشْ متواضعًا معي ، وأنا
سأرفعُك إلى سِدّة العظمة » .

تحدّث كثيرًا إليّ في صمتٍ ،
من دون استخدام مقاطع لفظية . أعطاني
المحبّةَ والنور وعينين لأرى ،
ومعًا بدأنا .

ـ ٣ ـ

في اليوم الأول جئْنا إلى تلّة كبيرة من الرّماد
تجتازُها ذئابٌ ، يسّاقطُ من أشداقها
لحمٌ كريهٌ . لا عملَ لها إلا أن تتقاتل
ويُزمجرُ بعضُها على ظلال بعضٍ ،
حقيرةً تافهة .

وهناك رأيتُ حيّةً ، أفعى سامّة لها سبعةُ
وجوهٍ في رأسها الوحيد ، تبتلع وتغصُّ
عند كلّ نَفَس .

« هذه صُوَرٌ
لطبيعتك المفترسة » . قال دليلي .

« وهي يمكن أن تقتلك ، ما لم تظلّ قريبًا
من الزمرّدة التي تستطيع أن تصعق وتحرِق
أَعْيُنَ هذه الهوامّ .

أدار وجهه نحوها بعدئذٍ ،
فرأتْ وانسلّت بعيدًا ، تمسح
الطريق بأذنابها .

جئنا إلى مكان آخر ، وادٍ فيه عفاريتُ
لها أعينٌ تنظر شزْرًا من مؤخِر أعناقها ،
وسعادينُ على أوراكٍ ثقيلة كانت تُرقِصُ
أذرعتَها الثقيلة على نحو طائش .

قال : « هذه صورٌ
لخِسّتكَ وجَشَعِك » .

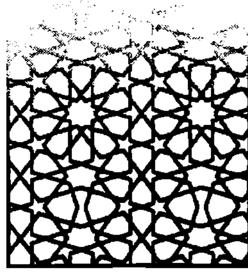
« سيِّد ، مَنْ يحكمُ هذه المنطقة ؟ »
« ملِكٌ كسولٌ بغيض ،
لا يعطي أحدًا شيئًا » .

غادرْنا ، وأتينا هُوّةً واسعةً
بدا من غير الممكن اجتيازُها .

« تقدَّمْ ، بشجاعة .
لديك شخص بجانبك
يستطيع أن يَفْرَق المياهَ

مثل موسى . سِرْ في المحيط » .
فعلتُ ، وغدا هو الرُّبّانَ ،
وأنا السفينة . غدا « يُونُسَ » .
وأنا ، الحوت . حملتُه ،
حتى لامَسْنا الأرضَ ، وكانت قدماي جافّتين .
قال : « والآن تسلَّق »
ووقفتُ متحيّرا ، لأنه لم يكن هناك
إلاّ الهواء . هل أفعلُ هذا
بعقلي ، أو بخيالي ؟ »
« لا هذا ولا هذا . دَعْ تلك الأقواسَ منزوعةَ الأوتار .
اغدُ سَهْمًا ، وطِرْ إلى العلامة
بقدمَيْن مريشتَيْنِ » .
وفعلتُ ، وحالاً استقررْنا
في عالمٍ من نُورٍ
باردٍ وفضّي ،
يقوى ويضعف .
« رسولُ الملِك ،
القمرُ ، يعيش هنا » .
وعلى مسافةٍ ، رأيتُ جزيرةً خضراء ،
فذهبنا إلى هناك ، ودخلْنا القلعةَ ،

حيث سَحَرَةٌ لهم رؤوسُ التنّين
وأذنابُ الحيتان يجعلون الشرّ يبدو
مِثْلَ الخير ، والغِرْبانَ كالطيور الذهبية ،
والْمَزابل كالحدائق .
كلٌّ الشهوات الحسّية بدت جذّابةً هناك ،
ومُغْويةً ، كما صوّرتْها زليخا
ليوسف . الغضب ، والشهوات الجنسية ، والْعُجْبُ
كانت هناك ، في مظاهر جميلة .
قال دليلي : « هذا مكانٌ للتطهّر .
ذقْ ما هو موجود هنا . اشربْ هذه السّموم !
فإنّ فيها الحرّية والصِّحة ،
والحيوية والقدرة الخفيّتين » .
شربتُها حتى الْحُثالة ،
توارى اللّيلُ . وطلع على الهضاب
فجرٌ ذهبيّ .
انفتحت عيناي في الفردوس ، تُطلاّن
على المرفأ الأزرق القاتم ، والمدينة اللازَورْديّة .
« هذه هي نهايةُ الزمان .
الموتُ لا يستطيع أن يمسّك الآن » .



العطّار : كنّاسُ الشّارع

فريد الدِّين العطّار

أحبّاءَ الله ،

أُحبّ أن أتوجه اليوم إلى موضوع العطّار ، وأعماله . وفريد الدّين العطّار واحدٌ من شعراء فارس الأكثر قِدَمًا ، ولا مبالغة في أن نقول إن أعمال العطّار كانت مبعث إلهام جلال الدين الرومي وعددٍ من النفوس الرّوحية وكثير من شعراء فارس . فقد أوضح الطريقَ إلى الغاية النهائية للحياة ، بإيجاد ضربٍ من التصوير في قالب شعريّ . ويمكن القول على نحو تقريبيّ إنّ أساتذة العالم العظماء جميعًا ، إن حدث أن كانوا قادرين على إظهار الطريق الصحيح للنفوس الباحثة ، كان عليهم دائمًا أن يتخذوا شكلاً رمزيًا للتعبير في قالب القصة أو الحكاية التي يمكن أن تقدّم المفتاحَ لمن يأنس في نفسه الاستعداد للمعرفة ، ويمكن أن تفيد مَنْ لم يكن مستعدًا ؛ ومن ثمّ يمكن أن يبتهج الاثنان ، النائم ، والآخر الموقَظ .

وهذا المثالُ تابعه شعراءُ فارس والهند ـ خاصّة الشعراء الهندوستانيين ـ وقد جعلوا قصّتهم في ذلك القالب الذي سيكون مقبولاً ، ليس عند الباحثين عن الحقيقة فحسب ، بل عند أصحاب الدرجات المختلفة في سلّم الارتقاء .

إنّ عمل العطّار الأكثر شهرة هو « منطقُ الطير » ، المعروف في اللغة الإنكليزية بـ « مؤتمر الطيور The Conference of the Birds » ، الذي منه كنا قد أخذنا فكرة « الطائر الأزرق » ؛ وقليلون جدًّا فهموا فكرة « الطائر الأزرق » أو « طائر السّماء » . وهي حكمة قديمة جدًّا ، من خلال استخدام الكلمة الفارسية « سماء» . ويُوضح هذا أن كلّ نفس لها سَعَةٌ خاصة يمكن أن تسمّى السّماء ، وهذه السّعة يمكن أن تستوعب العالَمَ أو السماء ، سواء أشاركت غيرها أوبقيت وحدها .

عندما يمشي الإنسانُ في حشْدٍ ، ماذا يرى ؟ ـ يرى وجوهًا كثيرة . أسمّيها أنا مواقفَ مختلفة . كلّ ما تراه في الأفرادِ ، كلّ ما يمْثُلُ أمامَك ، له تعبير ، له جوّ خاصّ ، له شكل خاصّ . إذا سمّيتَه باسمٍ واحد ، فهو الموقف : الموقف الذي يتخذونه إزاء الحياة ، الصواب أو الخطأ ، الحسْن أو القبْح . وأيُّ موقفٍ يتبنّونه يكونون هم أنفسُهم ذلك الموقفَ . ألا يُظْهِرُ هذا كم هو مناسب هنا استخدام السّماء ، التي تعني أيّ شيءٍ تسمّيها به ، أيّ شيء يمكن أن تتصوّرها إيّاه ؟

ولنقل بوضوح ، أيُّ شيءٍ يجعل الإنسانُ من نفسه يكنْ هو ذلك الشيءَ ـ معينُ السعادة أو الشقاء ، كلُّ ذلك في الإنسان نفسه . وعندما ينسى هذا ، يكون عاجزًا عن ترتيب حياته ؛ وكلّما غدا أكثر إدراكًا لهذا السرّ ، ظفر بالسّيادة ، وإن العملية التي يظفر بوساطتها بهذه السيادة هي المهمّة الوحيدة لهذه الحياة . وهي تلك العملية التي أوضحها العطّار في عمله في الأودية السبْعة التي اجتازها « طائرُ السماء » هذا .

الوادي الأوّلُ هو وادي البحث . فكم يبدو صحيحًا أن كلّ مولود يُولَدُ ومعه مَيْلٌ إلى البحث ، إلى المعرفة . فما نسمّيه محبّة البحث أو الفضول ، مولودٌ فيهم ، وهو يمثّل ذلك الشعورَ الدّاخليّ بالرغبة في البحث . وهذا يُرينا أنّ الإنسان مفطورٌ على هذا ، وهو لا يمكن أن يهدأ إلاّ إذا بلغ ذلك الإشباع الذي يعني البحث عن تلك المعرفة التي يرغب في امتلاكها .

ولا شكّ في أنّ ما يمنع الإنسانَ من الظفر بتلك المعرفة التي تنشُدها نفسُه حقيقةً إنما هو نفسُه . فنفسُه الصغيرة تقف دائمًا أمامَه ، مانعةً إيّاه من البحث عن الشيء الوحيد الذي هو مطلوبُ كلّ نفسٍ . ولذلك فإنّه من الجائز القول إنه لا شيء أكثر عداءً للإنسان في هذه الدنيا من نفسه .

في هذا البحث يتصوّر الإنسانُ أنّه يجب أن يكتشف من العلم ، أو من الفنّ ، شيئًا يكون وراءه ؛ وسواء أكان من خلال البحث المادّيّ أو الرّوحيّ ، سيصل المرءُ في نهاية

المطاف ، وينبغي أن يصل ، إلى ذلك الهدف الذي هو هدفٌ لكلّ إنسان . والعلماءُ والمهندسون ، أولئك المنهمكون في البحث عن الأشياء المادّية ولا يفكّرون في الروحانيّات ، حتى هؤلاء سيقتربون ، بعد القيام بقدر كبير من البحث ، من المعرفة نفسها التي هي المعرفة النهائية ؛ ولذلك فإنه مهما كانت الصورة التي يمكن أن يظهر لنا فيها الشخص ـ مادّيًا أو مُلْحِدًا أو لاأدْرِيًا ـ فلا يمكن أن نسمّيه كذلك ؛ لأنَّ هدفه في النهاية هو الهدفُ نفسه ، مكسبُه هو المكسب نفسُه ، إن كان حقًّا قد بلغ أعماقَ المعرفة ، إن أوغل إلى الْقَدْر الكافي . أيًّا كان مطلوبه ، فسيصل إلى الهدف نفسه .

وعندما يكون المرءُ قد بحث إلى الحدّ الكافي ووجد شيئًا مُرضيًا ، يظلُّ غير قادرٍ على الاستمتاع بذلك الإرضاء حتى تتهيّأ له ملَكةٌ من الملكات ، وتلك هي ملكة الحبّ والتقوى . ألا نرى في حياتنا اليومية أنّ ذوي العقل العظيم والاهتمامات الواسعة كثيرًا ما يبدون قد فقدوا شيئًا ؟ عندما يحدث أن يكون ثمة شخصانِ أحدهما ذكيٌّ جدًّا ، قد يشعر الآخر بأنّ هناك شيئًا لا بدّ منه لجعل حياتها كاملةً ، قد يشعر بأنّ العقل وحْدَه غيرُ كافٍ . ما هو ؟ ـ القلب هو الذي يجعل الحياة متوازنةً ، وغيابُه يجعل الحياة جافّة . إنه يشبه تمامًا القوى الموجبة والسّالبة . المعرفةُ والقلبُ : هذان الشيئان هما اللّذان يجعلان الحياة متوازنة وعندما تكون خاصيّة القلبِ قوية جدًا والعقلُ ضعيفًا ، تظلّ الحياة محتاجةً إلى التوازن . المعرفة وخاصيّةُ القلب ينبغي أن يتطوّرا على نحو متوازن .

ولذلك فعند العطّار أنّ ملكة التقوى تلك ، أو خاصيّة الْقَلْب ، هي الوادي الثاني ، والوادي الثالث هو تلك المعرفة التي تُشرق ، التي تأتي بمساعدة عنصر الحبّ والعقل . إنها تلك المعرفة التي تُسمّى المعرفة الروحية . فمن دون خاصّية الحبّ الْمُرَقّاة ، هل يكون الإنسانُ عاجزًا عن امتلاك تلك المعرفة ؟ ـ سأجيب : نعم .

ثمة أضواء دقيقة وظلال في حياة الإنسان لا يمكن إدراكها وفهمها تمامًا دون ملابسة

الجانب الأعمق في الحياة ، الذي هو جانب التقوى . الشخصُ الـذي لا يكون في حيـاتـه شاكرًا تمامًا ، لا يعرف جمالها . الإنسان الذي لم يعرف الدّماثة والحياء ليس في مقـدوره أن يتذوق جمالها أو يتعرّفه . ولا شكّ في أنّ ذا السّجايا اللطيفة كثيرًا مـا يُسْخَر منـه ، إن صادف أن يكون في مكان لا يُفْهَم فيه ، عندما يكون ثمة لغة أجنبية . ويُظْهر هـذا أنّ في الحياة دقّةً لا يكون العقلُ وحدَه كافيًا من أجلها . إذ إنّ خاصيّة القلب ينبغي أن تغدو مفتوحةً .

ذهب رجلٌ ذكيّ جدًّا إلى « جامي » وسأله أن يتخـذه مريـدًا لـه ويلقّنـه مبـادئ المعرفة . نظر إليه جامي وقال : « هل أحببتَ أيّ إنسـان ؟ » ـ قـال الرجل : « لا ، مـا أحببتُ » . قـال جـامي عنـدئـذ : « اذهب واعشـق أولاً . ثم ائتنى وسـأُريـك الطريق » .

الحبّ له وقتُه في كلّ مراحل الحياة . في الطفولة ، في الشّبـاب ، في الكهولـة ، في أية مرحلـة من مراحل الحيـاة يبلغهـا الإنسـان ، يظلّ الحبّ مطلوبًـا ويظلّ لـه دائمًـا مهمته التي يؤدّيها . وأيًّا كان الوضعُ الذي توضع فيه ، بين الأصـدقـاء أو الأعـداء ، بين أولئك الذين يفهمونك وأولئك الذين لا يفهمونـك ، في الرخـاء والشـدّة ، في الأمكنـة جميعًا ، وفي الأزمنـة جميعًـا ، لـه مهمتـه التي يؤدّيهـا . وعنـدمـا يقول المرءُ في نفسـه : « لا ينبغي لي أن أسمح لعنصر الحبّ أن يحدث ، عليَّ أن أحصّن نفسي ضـدّه » ، يسجن نفسه .

ليس في الدنيا غيرُ شيء واحدٍ يمكن أن يُري علامةَ السماء ، يُري العلامةَ الإلهيـة ، يقـدّم الـدليل القـاطع على الله ، وذلكم هو الحبُّ الصّـافي غير الأنـانيّ . لأنّ كلّ الخلائق النبيلة التي تكون متخفّية في الروح ستنمو وتزدهر عندما يساعدها الحبّ ويغذوها . قد يكون في الإنسان خيرٌ عظيم ، وقـد يكون ذكيًّـا جـدًّا ، لكنـه حين يظلّ مغلقَ القلب يظلّ عاجزًا عن إظهار ذلك النُّبْل ، ذلك الخير ، المتواري في قلبهِ .

و « سيكولوجية » القلب أنّه بمجرّد أن يبدأ الإنسانُ معرفة أنّ حياة القلب ظاهرةٌ مستمّرة ، تصيرُ كلّ لحظة في الحياة معجزة . إذ يُلقي ذلك ضوءًا ساطعًا على الطبيعة البشرية ، والأشياءُ جميعًا تغدو واضحةً جدًّا له إلى حدّ أنّه لا يبحث عن أي ظاهرة أعظم أو معجزة : إنه هو نفسُه معجزة . وما يُسمّونه التّخاطُر telepathy(☆) ، أو قراءة الأفكار ، أو الاستبصار clairvoyance(☆☆) ، هذه الأشياء جميعًا تحدث ذاتيًّا ، عندما يكون القلبُ مفتوحًا .

وعندما يكون المرء فاتر العاطفة غليظَ القلب ، يشعر في نفسه كأنه في قبر . إنّه حَيٌّ ، وليس في مقدوره أن يستمتع بهذه الحياة ؛ لأنه عاجزٌ عن التعبير عمّا في دخيلته . ليس في مقدوره أن يبصر النور والحياة خارجًا ؛ إنّه في لَحْدِه . ولكن ما الذي يعوق الإنسانَ عن الارتقاء بخاصيّة قلبه ؟ موقفه الصّارم . ذاك أنه يبتغي المتاجرة بالحبّ . فهو يقول : « إن كان لك أن تُحبّني فسأُحبّك » . ومتى بدأ المرءُ يدقّق ويقيس ويزن أفضالَه وخدماتِه وكلّ ما يفعله من أجل من يحبّ ، جهل الحبَّ .

يرى المحِبُّ المحبوبَ وحده لا شيء سواه . والأمرُ كما يقول جلال الدين الرومي : « اعشَقْ مَنْ شئتَ ، إنسانًا من الناس ، الله المتعالي ؛ فأيًّا مَنْ تعشقْ فسيأتي يومٌ يُجمع فيه العشّاقُ جميعًا ، عشاق البشر وعُشّاق الله ، أمام عرش الحبّ ، ولن يحكم هناك سوى طلْعةِ ذلك المعشوق الأوحد » . وعلامَ يدلّ هذا ؟ ـ في حبّ المرء صديقَه ، وفي حبّه جارَه ، وحتى في الحبّ الذي يبديه لعدوّه ، لا يفعل سوى شيءٍ واحد ؛ يحبّ الله . وإنّ مَنْ يقول : « إنّي أُحبُّ الله ، ولا أستطيع حبَّ الإنسان » لا يحبّ الله ؛ ليس في مقدوره أن يفعل ذلك . فحالُ مِثْلِ هذا الإنسان كحال من يقول : « أحبُّك كثيرًا ، لكنني لا أطيق النظر إلى وجهك » .

(☆) هو اتصالُ عقلٍ بآخر بطريقة ما خارجة عن نطاق الاتصال العادي . (المترجم) .

(☆☆) هو القدرة على رؤية كلّ ما هو واقع وراء نطاق البصر . (المترجم) .

وبعد هذا الوادي الثـالث ، إذ يحـدث تعرُّف الطبيعـة البشريـة ، وتعرّف المشـاعر الرقيقة التي تسمّى الفضائل ، تكون الخطوةُ اللاحقة ما يمكن تسميتُه في اللغة الإنجليزيـة annihilation ؛ الْمَحْو » . لكن مـا نسمّيـه المحق أو المحو ليس إلاّ ضربًـا من التغيير . فلا جوهرَ ولا عَرَض ولا رُوح ، ولا شيء من هذا القبيل يُمحى ـ بل يغيَّر فقط .

غير أنّ الإنسان أحيـانًـا لا يحبّ التغيير . وهو يجهل أنّـه لا يستطيع أن يحيـا دون تغيير . فـالإنسـان لا يحبّ التغيير ، لكنـه لا يمكن أن يحيـا من دونـه . ليس ثمّـة لحظـة واحدة في حياتنا لا يحصل فيها التغيير : التغيير حاصلٌ ، سلّمنا به أو أنكرنـاه . الْمَحْقُ أو الْمَحْو أو الموتُ يمكن أن يتراءى في صورة تغيير شديد الاختلاف ، ومع هذا ثمـة ألفُ ميتةٍ نموتها . فكلُّ خيبـة أملٍ ، كل لحظـة يتحطّم فيهـا قلبُنـا ، أسوأ كثيرًا من الموت . ورغم أنّ تجاربنا في الحيـاة كثيرًا مـا تكون أسوأ من الموت ، نظلّ نخوض غمـارهـا . وفي اللّحظة التي تبدو فيها عصيّةً على التحمّل ، نظنّ أننا لا نستطيع أن نوقفها ، ورغم ذلك نظلّ أحياء .

وإذا ما بقينا أحياءً بعد أن نموتَ ألفَ مِيتةٍ ، فلن يكون في الحياة شيء نخشاه . إنّ ضلالات الإنسان وتخيلاته هي التي تجعلـه يخشى الموت . هل في مقـدور أحـدٍ أن يقتل الحياة ؟ ـ إذا كان ثمة موتٌ ، فإنّه من أجل الموت ؛ أما الحياة فلن تموت . ذهب أحدُهم إلى صوفيٍّ بسؤال ؛ قال : « لقـد غَمُض عليّ الأمر زمنًـا طويلاً ، وقرأتُ في الكتب ، ولم أستطع أن أظفر بإجابة محدّدة ـ أخبرني ماذا يحدث بعد الموت ؟ » ـ قـال الصّوفيّ : سَلْ إن شئتَ شخصًا سيموت أمّا أنا فسأعيشُ » .

الأساسُ أنّ هناك سماءً واحدة ، هي وجودُك . إنّه مثلُ السماء . بتعبير آخر ، أنت تُسمّيه التكييف . ومَن امتلك أمرَ هـذا التكييف ؟ ـ ذاتٌ مضلّلـة تقول « أنـا » . وقـد ضلّلها الجسَدُ والعقلُ ، وسمّتْ نفسَها « شخصًا » . وعندما يكون مِعْطَفُ الإنسان مرقّعًا يقول : « أنا فقيرٌ » . والصحيح أن معطفه هو الفقير ، لا هو . وما تتضمّنه هذه القـدرةُ

الاستيعابية يصبح معرفتَه ، إدراكه ؛ وذلك يحدُّه ، يشكّل القيدَ الذي هو مأساةٌ لكلّ نفس .

وهذه القدرة الاستيعابية إمّا أن تُملأ بالنفس وإمّا أن تُملأ بالله . لا مكان إلاّ لواحدٍ . إمّا أن نحيا بمحدوديتنا ، وإما أن نحكِّم اللهَ في ملكوت اللامحدود . ويمكن القول بتعبير أوضح : إننا نَستلِبُ البيتَ الذي امتلكه دائمًا شخصٌ آخر ونملؤه بالضّلالات وندعوه بيتَنا نحن ؛ ولا ندعوه بيتَنا فحسبُ ، بل ندعوه نفسَنا وذاتنا . ذلك إذًا وهْمُ الإنسان ، وليس من شأن التعاليم الدينية والفلسفية إلاّ أن تخلِّص الإنسانَ من هذا الوَهْم ، الذي يَحْرِمه من ثرائه الروحيّ . على أنّ الغنى الروحيّ أعظم ضروب الغنى ، والسّعادة الروحية هي وحدها السعادة ؛ وليس ثمّة سعادةٌ أخرى .

ومتى استطاع المرءُ التحرّر من وَهْم نفسه ، بلغ المنزلةَ الموصوفة في الوادي الرابع ، وادي التخلّي ، ويكون خائفًا . يتساءل عندئذٍ : « كيف أستطيع إعطاء بيتي لآخر ، حتى لو كان الله (سبحانه) ؟ ـ هذا جسدي ، عقلي ، بيتي ، شخصيتي . كيف أتخلّى عنها ، حتى لله (سبحانه) ؟.

هذا في الظاهر أمّا الحقيقة فإنها ليست شيئًا في مقدوره الاعتمادُ عليه . إنها وَهْم صِرْفٌ ، وقابلٌ للمَحْو . هل يستعصي شيء على المحو ؟ ـ لا شيء . ومن ثَمّ لماذا الخوفُ من أن نتصوّر لحظةً أنّه لا شيء . ذلك الخوف الفطريّ لدى الإنسان سببُه أنّ الإنسان لم يعوّد نفسَه على مواجهة الحقيقة . ثمّة خشيةٌ في عقول الناس من خسارة أنفسهم ، لكنهم لا يعرفون أن ليس في الأمر خسارةٌ للنفس . إنه خسارة للوَهْم فحسبُ . وواقعُ الأمرِ أنّهم سيجدون أنفسهم عندما يخسرون هذا الوَهْم . وفي هذا الوَهْم ، أضاع الإنسانُ نفسَه ، ويتمثّل التقدّم في أن يتخلّص الإنسانُ منه ، أن يتعالى عليه .

وببلوغ الوادي الخامس ، وادي الوَحْدة ، يكون الإنسانُ قد حرّر نفسَه من أوهامه ، وهذا الْحَدَثُ هو الذي يسمِّيه الإنجيل « الولادة الثانية » ، عندما تكون

النفس قد تحرَّرت من أوهامها . إنه ولادةُ الروح . فثمة ولادةُ الجسد ، وولادة الروح . ولكن كيف تعبّر هذه الولادة للرّوح عن نفسها ؟ - بمَ يحسّ المرءُ ؟ تعبِّر عن نفسها أولاً في ضَرْبٍ من الاندهاش مع مَرَحٍ عظيم . يتضاعف اهتمامه بالحياة ، ويستمتع بكلّ ما يراه . ينشغِل قليلاً ، لكنه يَعْجَب بكلّ الأشياء .

ويتمثّل الاندهاش في أنّ النظر إلى الحياة يغدو تسليةً رائعة . والعالَمُ كلّه يغدو بالنسبة إلى الإنسان ضربًا من المسرح الحافل باللاّعبين . ويبدأ عندئذ في تسلية نفسه بأُناس هذا العالَم ، مثلما يحدث أن يلعب المرءُ مع الأطفال ويظلّ رغم ذلك غيرَ منشغلٍ بما يقومون به ، لأنّه لا يتوقّع ما هو أفضل . وإذا ما فعل الأطفال شيئًا مختلفًا عن الآباء ، فإنهم لا يكونون مهتمين بذلك كثيرًا ؛ ذلك أنهم يعرفون أنّ هذا مكان حياة الأطفال ، وليس في مقدور المرء أن ينتظر منهم ما هو أحسن . وهكذا الحال بالنسبة إلى الإنسان . ما يحبُّ وما يكره ، ما يُؤثر وما ينكر ، كلّ هذا يهمُّه ، لكنه لا يشغله تمامًا .

وثمة مرتبة أخرى ، فإنّ هذا الاندهاش يُفضي به إلى أن يرى هذا الذي استحوذ على قلبه : يرى محبوبَه في كلّ إنسانٍ ، حتى في عدوّه .

يُرى المحبوب في كلّ الأشياء . وكأسُ السّمّ التي يقدّمها ليست سامّة . وأولئك الذين ضحّوا بأنفسهم وقاسوا الآلام من أجل الإنسانية ، كالمسيح (عليه السلام) ، قدّموا للدّنيا مِثالاً يُظهِر الرّوحَ التي بلغت منزلةً يظهر فيها العدوُّ أمام العارف صديقًا ، محبوبَهُ . وليست هذه منزلةً يتعذّر بلوغُها ، لأنّ مادّة الرّوح الحُبّ ، وهو سائرٌ نحو كمال الحبّ . وكلّ الفضائل التي عرفها الإنسانُ ، كان الحبُّ معلِّمَه إيّاها . ولذلك فإنّ عالم الخير والشرّ هذا ، عالم الأشواك والأزهار ، يغدو مكانًا للبهاء والرَّوْعة فحسبُ .

الوادي السادس ، وادي الْحَيْرة ، هو الوادي الذي يُدرك فيه ويفهم ما وراء

الأشياء ـ سبب كلّ الأسباب ، عِلّة كلِّ العِلَل . لأنّ كلّ حَـدْسٍ وقوة ينمو في الإنسـان في انجلاءٍ تامٍّ .

الوادي السّـابع ، وادي الإدراك اليقينيّ لله (سبحـانـه) ، هو ذلـك السّـلام الـذي يَنْشُدُه كلٌّ روح ، سواءٌ أكان سلامًا روحيًّا أو ماديًّا ، يبحث منـذ الصّبـاح حتى المسـاء عن الشيء الذي يغدق عليه نعمة السّلام . عند بعضِ الأرواح يأتي السّلام أثنـاء النوم . أمّا العـارفُ ، فـإنّ ذلـك السّلام يصبح منزلَـه . ومتى أغلق عينيـه ، وأرخى جسَـدَه ، وأوقف تفكيره ، وغيَّب عن وعيه المحدودَ المتناهي ، انطلقَ يعوم في فضاءات المطْلَق .

مدخل المترجم

العطّار : كنّاس الشوارع

يعُدُّ الرّوميُّ العطّارَ وسنائي أستاذَيْه في الشعر . فقد تعلّم منهما أكثر ممّا تعلّم من أسلافه الآخرين . يقول مولانا(☆) :

رُوحٌ العطّـــارُ فينـــا بَصَرًا كان سنـــــــائي
جَسَـــدٌ نحنُ سيـــأتي ببهـــاءٍ وسنـــاء

كان العطّارُ غزير الإنتاج . ويُقال إنّ عدد مؤلّفاته يساوي عدد سور القرآن الكريم ؛ أي مائة وأربعة عشر مؤلَّفا . بقي منها في حدود الثلاثين ؛ ومن ذلك : رسائل أخلاقية ، وقصص حبّ ، وسِيَر نثرية لبعض الصالحين ، ومجموعة رباعيّات ، والكتاب الرائع « منطق الطير » ، وإلاهى نامة .

كان فريدُ الدّين العطّار ، كما يشير اسمُه ، عطّارًا وطبيبًا وشاعرًا . وكما يذكر هو نفسُه ، فإنه كتب مؤلّفاته في دكّانه ، أثناء معاينة ما يدنو من خمسمائة مريضٍ يوميًّا ! كان يفحصهم ويعالجهم بخلاصات الأعشاب التي كان يُعدّها لهذا الغرض . كانت خبرته في الجواهر . عرف القوة العِلاجية لبلسم التنّوب وعِطْر الورود ، وعرف أيضًا الجوهرَ الأوحد في قلْب الوجود كلّه . كان صوفيًّا عارفًا .

(☆) نصّ البيت بالفارسيّة :

عطّار روح بود وسنائي دو جشم اِو ما بي سنائي وعطّار آمديم

وترجمتُه الحرفية : كان العطارُ روحاً ، وسنائي عيناه ، أما نحن فجئنا بعد سنائي والعطار . (المترجم إلى العربية) .

وُلِد فريدُ الدين في نيسابور سنة ١١١٩ م ، ثم قتله المغول سنة ١٢٢٠ م . والتواريخ هنا تعتمد على التخمين بعض الشيء ، على غرار كلّ المعلومات التي يؤتى بها في أمثال هذه المقدّمات . وسنة الميلاد أو الوفاة في مثل هذا المقام قابلة للزيادة أو النقص بما يساوي عشر سنوات إلى عشرين سنة . ومثل ذلك أيضًا التعارضات في المسجَّلات . لكنّه يبدو أنّ العطّار عُمِّر نحوًا من مائة سنة . وفي أَخَرةٍ من حياته التقى الرُّوميّ الصبيّ ، فعرّفه الجوهر ، وقبّله وزوّده بـ « أسرارنامه » ، كتابه الذي يتحدّث عن سَجْن الروح في العالم المادّي .

ومعظم المختارات هنا مستمدةٌ من كتابه « إلاهى نامة » . وهو كتابٌ يأخذ شكل قصّة . فإنّ أحد الملوك يسأل أولاده السّتة عمّا يصبون إليه . يريد الأوّلُ فتاةً فائقة الجمال لتكون زوجًا له . يريد الثاني براعة في فنون السّحر . يريد ثالثٌ كأس جمشيد ، التي يرى بها الإنسان أقاليم الوجود السّبْعة . ويريد الباقون ماءَ الحياة ، وخاتم سليمان ، والإكسير السّرّي ، وكلّها أشياء فخمة ورائعة ، لكنّ الأب الملك يحاول بقصَصِه وصوره أن يصرف كلاًّ منهم عمّا شغله ، إلى رغبةٍ أسمى وأنبل .

وقد عُدّلت المقتطفاتُ المستمدّة من « منطق الطّيْر » وفقاً لترجمة سي . إس . نوت C. S. Nott .

المرأة التي ارتدت زِيَّ رجل

لقيتُ ذاتَ مرّة رحّالةً نِضْوَ أسفارٍ عَرَف مَلكًا
عنده ستة أولادٍ بارعين في الفنون . كانوا أساتذةً
في عددٍ من الفنون : الفلسفة ، والنّجارة ، واللّغات ،
والغراس ، والإلّهيات ، والزراعة .

كانوا مطّلعين ومَهَرةً في كلّ شيء ،
لكنّهم ما زالوا ممتلئين فخرًا ، دون حدود ظاهرة .

أجلسهم الملِك حواليْه : « ماذا تريدون
من حيواتكم ؟ ـ هل لديكم رغباتٌ كثيرة ،
أم هي رغبةٌ واحدة ؟ ـ أخبروني لأعرف ما تتعلّمون » .

الولدُ الأول : « هناك فتاةٌ من أجمل ما يخطرُ على بالٍ ،
ورائعة تستحق المدح . إن قُدِّر لي
أن أظفر بها ؛ فلن يكون في مقدوري أن أتخيّل
رغبةً أخرى .

الأبُ : « افهمْ . إنه على قَدْرٍ من الخطر
أن تعيش طويلاً تحت وطأة تلك الرغبة الجامحة بها .
كُنْ مِثْلَ تلك المرأة التي ارتدت زيَّ رجل .

وإذ انفصلتْ عن زوجها ، صارت
قاضيًا وقائدًا . أتعرفُ
تلك القصّة ؟

وجهُها يسطعُ على ضوء النهار ،
بينما شعرها ، ظهرها ، ملمس
بشرتها ، عِطْر الليل المباشر
عِطْر الظلام . وهي ليلاً ونهارًا
في إيماءةٍ واحدة من اللّطف والإيمان ، تفاحة
من الفضة الخالصة في طاسٍ من التفاح الأخضر .
يسافر الزوجُ إلى الحجّ ، الحجّ المبرور
الذي يحقّق الصفاءَ ، والصّبر ، والتذكّر الدائم
للمولى سبحانه . وهي تقدّر فيه كثيرًا توقَه
إلى تلك الصفات النبيلة . السماء تميل
وتتسع لحبّهما .
يتركها ليسهر على شؤونها أخوه الشابُّ ،
رجلٌ حذِرٌ ، ودنيءٌ ، ليؤدّي واجبه .

وفي الْبَدْء ، يؤدي واجبه . لكنه بعد حين ينظر إليها
على نحو مختلف . وفي لحظة يميل إليها
مائة حياة لكلّ حيواته المحدّدة
تندفع في ذلك التغيُّر . وشعاع الدولاب

يدور في مكانٍ من دون صوت . وهو لا يستطيع أن يفكّر .
يرتمي بجانبها . أرجوكَ . هو لم يتوسَّل
من قبل . أرجوك . « وماذا عن الإخلاص ؟
إخلاصُك لأخيك ، وإخلاصي لزوجي ؟
لا تعني عنده الكلماتُ شيئًا . « لكنَّ الموتَ
ليس أكثر رُعْبًا من هذا النسيان » ، تقول
له . لكنّ عليه أن يفعل شيئًا
لتلك الرغبة الجامحة التي يأنسها بين جنبيه .

يُدْخل أربعةَ مارّة يأتي بهم من الطريق ، أربعة
متشرّدين . يدفع لهم شيئًا من المال ليدّعوا
ارتكاب الرّذيلة مع هذه المرأة .
يُحكَم عليها وتؤخذ إلى ثنيّةٍ في جبل عالٍ .
وهناك تُرْجَم
وتُترك للموت . لكنّها لا تموت .
تبدأ في استعادة وعيها ، أثارةً من أنينها .
يطلعُ النهارُ . يراها بدويّ مسافرٌ وحده ،
ويخاطب الشخصَ قائلاً : « مَنْ أنت ،
تحيا كأنّك ميّت ؟ » ، لا تحير جوابًا . يعادلها على
ظهر حماره ويأخذها إلى الرّبع ،
وهناك يعتني بها ويقدّم لها الشاي وحِسَاء الفاكهة

وهي على فراشِ القشّ في خيمته .

وتحت الحجارة المؤلمة يتراءى وجهُها مرّة أخرى .
ويحدث للبدويّ مثلُ الذي حدث
للأخ الشابّ . ويرتدي كلَّ يوم قميصه
كأنّه كفنه . يضرع إليها :
« كوني زوجتي » .
« دَعْني أسترجِعْ حياتي . فلسْتُ على قيد الحياة » .
« لا تُفْسِدِ إحسانَك إليّ
بهذه الرغبة المفاجئة في الحبّ .
دعني أكن أختًا . لديّ حبيب .
والآخرون عندي أشقّاء » .
تحدثُ معجزةٌ ، ويوافق البدويّ
بعدَ لأيٍ . يتخلّى عن هذا الأسلوب من التحبّب
ويغدو أخًا . في هذا الوقت
يصل غلامُهُ الأسودُ من سفرٍ .
لا أحد يتوقّع هذه العودة السريعة .
يرى الخادمُ المرأة فيحبّها .
يتدفّق الكلامُ من جَسدِه : « أنا الليلُ ،
وأنتِ القمر . لماذا لا نكون معًا ؟ » .
كثيرون يسألون هذا . لِمَ ينبغي أن تكون طِرازًا آخر ؟ »

الحبّ المفاجئ ينقلب إلى كراهية .
ينهض في منتصف الليل ويمضي
إلى المرضعة حيث ينام ابنٌ رضيع للبدويّ .
البدويّ نفسُه متزوّج
وعنده طفلٌ رضيع غاية في الوسامة . يقطع الغلامُ الأسودُ
رأسَ ابن البدويّ في سريره .
يترك للأمّ دميتين صامتتين
ويخبّئ الشفرة الملطخة بالدم
تحت وسادة المرأة التي أحبَّها .

يملأ العويلُ المكان كلّه . ويدرك البدويّ
أنّ المرأة بريئةٌ ، ويدرك أيضًا
أنها لا تستطيع البقاء هناك البتّة
مع الشكوك والأحزان .

يعطيها ثلاثمائة دينار ، وتنطلق
في السّير نحو المحيط . تجيء إلى
ما يلوح أنّه منصّةٌ وضعت بجانب الطريق .
إنّها مشنقة . يقف عليها شابٌّ
كان على وشك أن يُشنَق بسبب عدم دفعه ما عليه من مغارم .
« كم ديونه ؟ »
« ثلاثمائةِ دينارٍ » .

تدفعها عنه وترحل عن المكان سريعًا .
لكنّه يلحقها . وما هي إلاّ نظرةٌ واحدة
حتى يقع الفتى في حبّها . يدٌ تمتدّ في الدّخان
يضرع إليها : « لاأستطيع الفِراق ، ساعديني » .
« أهذا جزاء إحساني ؟
عليك أن تنصرف ، فلا يمكن أن نظلّ
معًا على هذا الطريق . انظر إلى المحيط
بدلاً من ذلك ، فالسفينة التجارية عند الرصيف .
فكِّرْ في أشياء أُخَر . يتحوّل إصراره أيضًا
إلى كراهية وكذب .
يقول لصاحب السفينة : « لديّ
أَمَةٌ خادم ولا عيبَ فيها
سوى عجرفتها
إنها مغرورة على نحو
لم أرَه في حياتي . بمائة دينار » .
ينهال عليها بالشتائم عندما تمتطي مَتْن السفينة .
يرى صاحبُ السفينة وجهَها فيقع في حبّها .
تجثو أمام عمال السفينة وتتوسّل إليهم
أن يحموها . تسألهم أن يعاملوها
معاملةَ بناتهم ، وأمهاتهم ، وأخواتهم .
يفعلون ذلك لأمدٍ قصير ، لكنهم سرعانَ

ما تنتابهم الحماسة للظفر بها . يتهامسون في عملهم
كتلاميذ المدرسة .
تُحِسُّ بأنّ ماء البحر يتحوّل إلى دمٍ
حول السفينة . تدعو أخلص دعاءٍ
عرفتْه في حياتها ، ليخلّصها الله سبحانه
من هذا الجشع الجنونيّ
للرجال . وإذ تكون مغمضةَ العينين
يصعد اللّهب من المحيط المتأجّج .
وعندما تفرُغ من دعائها ، يكون كلُّ رجلٍ هناك
قد غدا كومةَ رمادٍ ناعم حيث كان واقفًا .
تكنس الرّماد وتلقيهم في
المحيط . وتجلس عندئذٍ
لتخيط لنفسها رداءَ رجل .
وبريح هادئة تغادر السفينةُ إلى مرفأ
آخر . فيرى الناسُ على الشاطئ مشهدًا غريبًا :
شابًّا نحيلاً أدار وَحْدَه سفينةً
تحتاج إلى فريق عمل لا يقلّ عن ثلاثين ومحمّلةً
بشحنةٍ جيدة الرّبط . « كيف أدرتَها ؟ »
« لن أروي قصّتي إلاّ لمليك هذا البلد » .
وهكذا أُخذتْ إلى مجلس خاصّ مرتديةً

زيّ الشابّ . « مجموعةٌ من البحّارة التافهين
أحبّوني ، الشابّ الأحدث سنًّا على السفينة .
سألتُ الله سبحانه أن يغيّر رغبتهم .
صَعِدتْ النيرانُ من الماء والتهمت
كلّ من كان على السفينة إلاّيَ ، وأنا
لستُ رجلاً ! أنا قطعة فَحْمٍ
خلّفتها النار . وأنا أدرك
التحذير الذي وُجِّه إليّ .

لا أبغي شيئًا ممّا على هذه السفينة .
اقتسِموه كيف شئتم . لا أريد سوى
خدمةٍ واحدة . شيّدوا لي بيتًا صغيرًا
على الشاطئ لأفرغ للعبادة .
وينبغي أن يكون الأمرُ الصّارم
أنّه لا أحد ،
سواءً أكان رجلاً أم امرأة ، طاهرًا أم غير طاهر ،
في مقدوره الاقترابُ من ذلك البيت » .
ولسنواتٍ ظلّت تعيش هناك في وحْدة النسّاك
ويحدُث إذْ ذاك أن يقع المِلكُ في شرك المرض .
يستدعي وزراءه . « اجعلوا الناسكَ الشابّ
الحاكمَ الذي سيأتي » . ينطلق وفدٌ

إلى ذلك البيت النائيء على الشاطئ . تطردهم قائلة :
« ولكن ليس لديّ زوجة » .
يأتون بمئاتٍ من الفتيات مع أمهاتهن ،
كلّهن محمّراتُ الوجوه خجلاً ، ينتظرن أن يقع عليهن الاختيارُ .

تفكّ الناسكةُ ضفائرها وتكشف عن صدرها .
« عُدْنَ إلى أزواجكنّ وآبائكنّ ،
وأخبرنَهم بأنّني امرأةٌ وبأنْ ليس لديّ رغبةٌ
في الْحُكم » . لكنَّ الوزراء يظلّون مصرّين
على أن تغدو الحاكمَ ، وتظلّ هي مصرّة على البقاء
في معتكَفِها على التخوم بين المحيط والصحراء .
تختارُ بدلاً من ذلك أن تغدو طبيبةً . وتطلب
من المشلولين أن يأتوا إليها . وعندما تنفخ
على أيديهم وأقدامهم ، يبرؤون .

تستدعي الْعُميانَ ، فيبصرون عندما يسمعون
صوتها . وعندما يموت الملك ،
لا يكون ثمة حكومة في هذا البلد ،
إلاّ طَلْعتَها التي تشفي السَّقام .

وعَوْدًا إلى نقطة البدء في هذه القصة ،
يعود زوجُها من الحج ليجد أخاه

أعمى ومشلولاً . مثبّتًا على هيئة واحدةٍ ، لا يستطيع
إبصار طعامه ، ولا يستطيع تناوله .
لكنه يظلّ يردّد فِرْيته حول زنى الزوجة .
يستولي على الزوج أسًى عميق ، لكنه أخيرًا
يخرج من هذه الورطة : « في سفري سمعتُ عن امرأةٍ
تشفي مثل هذا الذي أنتَ عليه ؟ العمى ، الكساح » .
يشدّ أخاه على حمار وينطلق .
يلتقيان البدويّ . فيقول : « إن عبدي الأسود
في الحال نفسِها » . حماران وحِمْلانِ من البشر
وإلى جانبهما رجلان طيّبان ؛ ويلقيان المتهرّب من دفع الدين ،
الذي هو الآنَ أيضًا أعمى ومُقْعد .

تتراءى لها من بعيد قافلةٌ من ثلاثة حُمُر قاصدةً إليها .
تُخفي نفسها . « هَلْ لكِ أن تعالجي هؤلاء الرجال ؟ »
« نعم ، ولكن بشرط أن يعترف كلٌّ منهم
بالذنب الذي سبّب له ما هو فيه . وإلاّ
فسيظلّون على ما هم عليه » .
يقول الأخُ الشابّ : « أفضّل
أن أظلّ أعمى ومُقْعدًا . ولساعاتٍ
وأخيرًا يُعلنها . لا شيءَ مخفيّ بعد الآن : تودّده إليها ،
كذبه ، زوجة أخيه تحت الأحجار .

« مُقعَدٌ وأعمى بما اقترفت يدايَ ، اقتلْني أو
سامِحْني . أنا تحت رحمتِك » .
ويصيح خادم البدويّ أيضًا : أنا أيضًا أخاف
التحدّث » .
يقول له البدويّ : « أعفو عنكَ الآن ، أيّا كان من أمرك » .
« قطعتُ رأسَ ولدِك في المهد » .
وعندئذ يصيح المتهرّب من دفع الدَّين : خلّصتْني امرأةٌ
من الشنق ، وأنا بعتُها للنّخاس » .
تدعو لهم المرأةُ ، فيُشفون .
تُبعدهم جميعًا سوى زوجها .
تكشف عنها القناعَ . فيصيبه الذهولُ . يستعيدُ رُشْده .
« كانت عندي زوجة ، وأنتِ تشبهينها تمامًا
في كلّ تقاسيم الوجه ، لكنّ حِبّتي
الآنَ غدت ترابًا » .
« أنا لا أشبهُها ، أنا زوجك ،
لستُ ميتةً ، ولستُ خائنةً . واللهُ سبحانه جاء بي
إلى هذا المكان ، والآن جاء بك أنتَ » .
يخرّان ساجدَيْنِ لله سبحانه على الرّمل ،
عقلٌ واحد عند الاثنين .

يدعو الزوجُ الناسَ جميعًا
ويخبرهم بالقصة الكاملة .

يستمع إليه الأخُ الشابّ ، والمماطل ،
ممتلئين خجلاً ، وسرورًا .

وعندئذٍ تنصِّبُ زوجَها ملكًا
وتجعل البدويّ رئيسًا للوزراء .

وتقدّم الهدايا القيّمة
للأخ الشابّ ، وللمماطل ،
وللعَبْد ، وهكذا يحصل الرجالُ على ثروتهم الجديدة
وعلى حكومةٍ يديرونها .

أمّا هي نفسُها فتعود إلى المعتَكَف
إلى جانب المحيط لتتابع ، كما هي الحال قبل ،
ذِكْرَها المتواصل لله .

الاستماع إلى الناي

كان رجلٌ أعمى على الطريق يقول :
الله ، الله . أسرع إليه الشيخُ نوري ،
« ماذا تعرف عن الله ؟ وإن كنتَ تعرف ،
فلِمَ أنتَ على قيد الحياة ؟ » . أطرق الشيخُ ،
وانتشى بهذه الأسئلة الروحية .
ثم انطلق نحو مكان منخفض ، حيث
كانت مَقْصَبةٌ قد قُطعت لتوّها .

سقط ، ثم نهض ، سقط ثانية ،
طارحًا نفسه على أطراف القصب الحادّة .
هُرِع الناسُ إليه فوجدوه ميتًا ، والأرضُ
ندية بالدّم ، ووجدوا مكتوبًا على رأس كلّ قصبةٍ
كلمة « الله »

هذه هي الطريقة التي ينبغي
أن يستمع فيها الإنسانُ إلى النّاي . يُقتَل
ويُلقى في الدّمِ .

كنّاس الشوارع

« أيْ كنّاسَ الشوارع ، إنّ شيئًا ما فيك
يُضايقني . فأنتَ تجوب الشوارعَ
باحثًا عن شيء لم تُضِعْه .
لن يكون في مقدورك أن تظفر بذلك !.
ردّ كنّاسُ الشوارع : « والأغربُ أنّي
إن عَجَزْتُ عن أن أجد ما لم أضيّعْه ،
فإنني سأشعر بأسًى شديد » .
لا يستطيع المرءُ أن يَجِد أو يفقد ،
يَصْمِت أو يتكلّم . لا
هذا ولا ذاك ، بل الاثنان معًا .

ابحثْ عن وجهِكَ أنتَ

وجهُك ليس لا نهائيًّا ولا سريعَ الزّوال .
ليس في مقدورك أن ترى وجهَك الخاصّ ،
ترى انعكاسًا فقط ، وليس الوجهَ نفسَه .
وهكذا تتنهّد أمامَ الْمَرائي
فتغشّي السَّطْح .
من الأفضل أن تُبقي نفَسَكَ باردا .
احبسْه ، مثلما يفعل الغوّاصُ في المحيط .
بحركة خفيفةٍ تذهبُ صورةُ المرآة .
لا تكن مَيْتًا ، أو نائمًا ، أو يقظًا .
لا تكنْ شيئًا .
ما تريدُه أكثرَ شيءٍ ،
ما تجوب الآفاقَ ابتغاءَ العثور عليه ،
أَفْنِ نَفْسَك كما يُفْني العشّاقُ أنفسَهم ،
وستكون ذلكَ الذي عنه تبحثُ !

المولود الجديد

تحدّث محمّد عليه الصّلاةُ والسلام إلى أصحابه
عن مولود وُلد لتوِّهِ : « هذا الصغيرُ
قد يبكي في عَجْزه التامِّ ،
لكنه لا يشاءُ العودةَ
إلى ظلمة الرَّحِمِ .
هكذا الحالُ بالنسبة إلى نفسِكَ
عندما تُبارح نهائيًا العُشَّ
وتطيرُ إلى السَّماء
فوقَ السَّهل الفسيح للحياة الجديدة .
لا تستبدلُ نَفْسُكَ تلك الحرّيةَ
بالدّفء الذي كانت تنعَم فيه .
دَعِ الْحُبَّ دليل نَفْسِك .
اجعلْهُ المكانَ الذي تلجأُ إليه ،
نوعًا من الدَّيْر النّائي ، ملاذًا
لإدراك الجوهر الأعمق للوجود .
ومن هناك أنشِئ طريقًا

إلى اللهِ [سبحانه] .
دَعْ كلَّ عَمَلٍ متناغمًا مع نفسِك
ومكانها الرّوحي ، ولكن لا تَعْرِضْ
تلك الأعمالَ أسفلَ الشارع
على رأسِ عصا !
الزمِ الصَّمْت والسِّرَّ في أعمال الرّوح .
لا تقلق كثيرًا بشأن جَسَدك .
الله [سبحانه] خاطَ ذلك الرّداء . دَعْه كما هو .
كُنْ أكثرَ شجاعةً وإقدامًا .
غيِّرْ نَفْسَك » .

تصوّف

لا تُرى الشّمسُ إلاّ بضياء
الشمس . وكلّما عَرَف الإنسانُ ،
عظمتْ حَيْرتُه ، كلّما اقتربَ من الشَّمسِ
ازداد انبهارُه ، حتى يصل إلى درجةٍ
لا يعود يكونُ فيها موجودًا .
يَعْرِفُ الصّوفيُّ دونَ عِلْمٍ ، دون
حَدْسٍ أو معلوماتٍ ، دون تأمّلٍ
أو وَصْفٍ أو وَحْيٍ . الصُّوفيةُ
ليسوا أنفسَهم . هم لا يوجدون
في الأنفسِ . إنّهم يتحرَّكون
كما يُحَرَّكون ،
يتحدّثون كما تأتِيهم الكلماتُ ، يرَوْنَ بالبصيرة
ما يدخلُ أعينَهم . لقيتُ مرّةً
امرأةً فسألتُها إلى أين قادها الحبُّ .
ـ « يا أحمق ، ليس ثمة مكانٌ يُوصَل إليه .
المعشوقُ ، والعاشِقُ ، والعِشْق ، لا تعرف الحدود .

من مؤتمر الطَّيْر

الْهُدْهُدُ ، ذو العُرْف المتألّق كالتّاج الذي يعمل دليلاً ، يتحدّث عن الوادي الخامس في الطريق ، وادي الوحدة :

« هناك كلُّ شيءٍ يُكسَّر في أجزاء ثم يُعاد تشكيله .
الجميعُ يرفعون رؤوسَهم في ذلك المكان
من عنق واحدٍ .
ولأنّ الوجودَ الذي أتحدّثُ عنه وراءَ
الوحدةِ والتعدّد ، وراءَ
وقبل وبعد ، ولأنّ كلَّ ما هو مرئيٌّ
يتلاشى فلا يكون شيئًا مذكورًا ، لذلك كلّه لا شيء يمكن
التحدّثُ عنه أو تأمّلُهُ .

وفي هذا الوادي يتوارى المسافرُ الرّوحيّ
والكائنُ الفذُّ سيتجلّى .
الجزءُ يغدو الكلَّ ،
وفي مدرسةِ الأسرار ،
ما العِلْمُ ؟
يتردّدُ العقلُ على تلك العَتَبةِ
مِثْلَ طِفْلٍ أعمى .

وبعدَ وادي الوحدة يأتي وادي
الحيرة ، والأسى ، والأشواق
الحارقة . ليلاً ونهارًا معًا ،
النارُ ، والكآبة .

وإذا ما سُئِل المسافرُ هنا :
« هل أنت موجودٌ ؟ ـ أين أنتَ ؟ ـ هل أنتَ خالدٌ ؟
سيقول بيقين تامٍّ :
« لا أعرفُ شيئًا . لا أعرف
مَنْ أنا . أنا غارقٌ في الحبّ ،
لكنّني لا أعرف مَنْ أحبُّ .
قلبي فارغٌ ومملوءٌ في الوقتِ نفسِه » .
وفي نهاية حجّهم يأتي السِّيمُرْغُ[1] إلى الباب .
أمّا الخازنُ ، الذي امتحن نقاءَهم
بالأسئلة ، وشِدَّتَهم
بالرفضِ ، فقد فتح البابَ
ونحّى جانبًا مئاتِ الأقنعة ،
وكُشفت حقائقُ جديدة .

قُدِّم إليهم كتابٌ .
قرأوه ، وعندما قرأوه ،

(١) تعني بالفارسية ثلاثين طائراً (المترجم) .

فهِموا حالَهم .

لقد كبروا هادئين ومنعزلين ،
ومدركين أن السِّيمُرْغ العظيم
كان هناك بينهم وأنّ الحياة الجديدة
التي أرادوها بدأت داخلَ ذلك الحضور .

كلٌّ شيءٍ فعلوه قبلُ أُزيل عنهم ،
ورأى كلٌّ منهم في وجه الآخر
العالَمَ الدّاخليَّ . لم يتأكدوا
من أنّهم كانوا ما يزالون هم أنفسَهم ،
أو أنّهم صاروا شيئًا إلهيًا .

وأخيرًا ، وفي حالِ تأمّلٍ عميق ،
عرفوا أنّهم كانوا السِّيمُرْغَ ،
وأنّ السِّيمُرْغ كان الثلاثين طائرًا .

رأوا وجودًا واحدًا فحسبُ .
وليس ثمة تجربة يمكن أن تَعْدِل هذه التجربةَ .

أَسْلموا أنفسَهم للتأمّلِ ،
وبعد برهةٍ سألوا السِّيمُرْغَ ،
دون استخدام اللّغة ، أن يكشفَ لهم لُغْزَ
الوحدة والتعدّد في الكائنات .

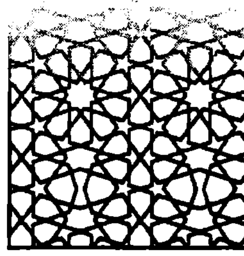
ومن دون تكلُّم ، جاءتهم الإجابةُ : « هذا الجلالُ
مرآةٌ . لو أنكم اقتربتُم بصفتكم ثلاثينَ طائرًا ،
فإنّ ذلك هو ما ستجدونه . أربعون طائرًا أو خمسون
ستأتي وترى أربعين أو خمسين .

ورغمَ أنكم غُيِّرتُم تمامًا الآنَ ،
فإنكم ترونَ أنفسَكم كما كنتم قبلُ .

أحسنتُم في أن كنتم ذاهلينَ وتوّاقين
وشاكّين ، ومُدْهَشينَ .

أَفْنوا أنفسَكم فيّ بسرور ،
وستجدون أنفسَكم » .

وقد فعلوا ، كما يتوارى ظِلٌّ
في ضياء الشّمس ، وهذا كلُّ شيء .



الرُّوميّ :
أغنية الطّير تتحرّك خلالنا كالمطر

جلال الدّين الرّوميّ

أحبّاءَ الله

موضوعُ حديثي اليوم هو جلالُ الدّين الرّوميّ ، أعظمُ شاعر عرفتْه الدنيا : ذلك الشاعرُ الذي ترسُمُ رسالتُه ، في حياته وفي أعماله معًا ، معالِمَ عهدٍ جديد ، خطوةً جديدة في التصوّف الذي كان أقدم مدرسة للصوفية والفلاسفة ، والذي انبثق عن المدرسة الصوفية القديمة في مصر . والبدءُ الأوّلُ الأكثر شهرةً لتلك المدرسة الخاصّة كان إبراهيم [عليه الصلاة والسّلام] الأبَ لأديان العالم الثلاثة العظيمة : اليهودية ، والمسيحية ، والإسلام .

أعطى جلالُ الدين حياةً جديدة وصورةً جديدة للتيار الصّوفي ، ومن عصره انتشرت الثقافةُ الصّوفية في العالم كلّه . ومبعث ذلك أنه لم يكن صوفيّا ومتأمّلا فحسبُ ، بل كان أعظم مثقّف في عصره ـ رجل دولة وسياسيًّا عظيمًا ، على رأس القانون في بلاده (مثل قاضٍ كبير) . تمتّع بسمعة طيّبة بين الناس بوصفه رجلاً عالي الثقافة ؛ ذكاءً وعمليةً واتساعَ وَعْي ؛ أستاذًا في الإلهيات . والحقّ أنه كان رجلَ العَصْر في بلده . قرأ الشعر ، وبعض قصائد العطّار ، لكنّ تعاليمه كانت قائمة على تدريب عرفانيّ .

وقصّةُ حياة الروميّ غاية في الإدهاش ، خاصّةً تيقّظه للمثل الأعلى الصوفي . كان مرّة جالسًا وقد وضع إلى جانبه مؤلّفاته المكتوبة باليد . وفي ذلك الوقت ما كان ثمّة طباعة ، ولا كتب مطبوعة ، وكانت المخطوطات كنوزًا . دخل عليه رجلٌ مرقّعُ الثياب . ومن خلال مظهر ذلك الرجل يستشفّ المرءُ أنّه شحاذٌ ، متسوّل ؛ لكنّه في

الوقت نفسه كان يمشي كما يمشي الملوكُ . ومن دون تقديم التحيّة ، كان أوّلَ شيء يفعله أن ينحّي المخطوطات التي كانت أمام الرومي .

ما كان في وسْع الرومي أن يفهم سرّ أن يدخل رجلٌ مرقّع الثياب منزلَ مواطن ذي شأن ثم ينحّي المخطوطات التي يقيم لها صاحبُ البيت كبير وزن . لكنه كان في غاية التأدّب ؛ لم يسمح لنفسه بأن يعبّر عن ضيقه بهذا التصرّف . كان غايةً في ضبط النفس ، سأله فقط : « ماذا تريد أن تفعل ؟ » . قال الرجلُ : « ماذا تقرأُ ؟ ألّا تنتهِ منه ؟ . لقد أفنيتَ سنيَّ حياتك بالقراءة ولم تنته منه . أنت تقرأ في وريقاتٍ صغيرة لا يمكن أن تتضمّن ما يكشفه كتابُ الحياة باستمرار ، وقد استنفد هذا حياتَك كلّها . وقد بقي شيءٌ قليل ، فهل تستنفدُه أيضًا في هذا الذي أنت عليه ؟.

قال الرّوميّ : بماذا تفكّر ، ما الذي تريد إيضاحه ؟ » .

« أريد أن أسألك إن كنتَ قد تساءلتَ عن قصْد حياتك وهدفها . هل هذه المنزلةُ التي تحتلّها الآن ، هذه المرتبة والمكانة والشهرة ، هل هذه هي الهدفُ ؟ ما الذي تريدُ أن تصل إليه ، ما الذي تتطلّع إليه ؟ ـ ما الهدفُ والقصد الذي تضعه أمامك ؟ ـ هل حياتك سريعةُ الانقضاء مثلما يراها المرءُ من الميلاد إلى الموت ، مما لا يزيد عن أربعة أيّام ، أم أنها حياة سرمدية ؟

وإذا ما كانت سرمديّةً ، فأين يتمّ استمرارُها ؟ وإن كانت هذ المنزلة المرموقة لك اليومَ ، فإنها كانت ذاتَ يوم لشخص آخر ، وستكون في قابل الأيام لشخصٍ ثالث . وحتى لو كانت شيئًا مهمًّا ، فإنها ليست لكَ على الحقيقة . وهذه المخطوطاتُ الضعيفة عرضةٌ للفناء ذاتَ يوم . وإن كانت تلك حكمتَك ، فكم ستدومُ ؟.

هل تصفّحتَ مخطوطَ قلبك ؟ هل تصفحتَ كتاب الحياة ، لترى ما تعلّمه الحياة على الدّوام لكلّ إنسان ؟ ـ لقد عبدتَ الله ـ هل تحدثتَ إليه ؟ ـ هل رأيتَه ؟ ـ هل عرفتَه على الحقيقة ؟ ـ ما فائدةُ عبادتك ؟ . والدِّينُ الذي اتّبعتَه طولَ حياتِك ، هل

عرفتَ من أين جاء ؟ - ما مصدرُه ؟ - هل تريد أن تحيا كما يحيا كلُّ شخص في هذا العالم غيرَ عارفٍ لماذا جيء به إلى هذه الحياة ؟ - الخيلُ والجمال أيضًا تحيا وهي مشغولة ، لكنّه لا اعتدادَ بشغلها . الاعتدادُ بانشغال الإنسان يرجع إلى فَضْل هذا الانشغال . هل فكّرتَ بقيمة هذا الذي تنشغلُ به ، هل يمكن الاعتماد عليه؟ إن كان فضيلةً عابرةً ، فمن غير الممكن التعويلُ عليه » .

دفع هذا الرّوميَّ إلى أن يفكّر ، ودفعَه إلى أن يسفح العبرَات . وشخصيةُ هذا الرّجل المرقَّع الثياب ، ماذا سكبتْ على قلبه ! كانت أشبهَ بثَراءٍ لا حدود له . ما كان عند الروميِّ ما يقولُه . كان مأخوذًا بكلّ ما ذكره له ذلك الغريبُ الزّائر ، وعلى غرار ما جاء هذا الغريبُ الزّائر ، مضى ولم يترك أثرا . وعندما غادر قال الرّوميّ : « ذلك الإلهُ الذي أمضيتُ حياتي في عبادته ، رأيتُه اليومَ في صورة إنسان » .

كان الرّجلُ المرقّع الثياب شَمْس تبريز ، وكان الرّومي متأثّرًا جدًا بما قال له ، إلى درجة أن تبعه . وأوّلُ شيء كان على الروميّ أن يواجهه هو الانتقاد الشديد من كلّ الجهات . فليس في مقدور أحد أن يتصوّر كيف أنّ رجلاً عالي الثقافة ، وعلى هذا القدر من التمكّن والعلم ، يمكن أن يقضي وقته ملازمًا لهذا الغريب الرثّ الهيئة . فأين يمشِ أو يقف ، يمشِ الروميّ ويقف ، دون أن يعبأ بجمهور الناس الذين يتحلّقون حوله مهما كان عددهم .

وانتهى سوءُ الطّالع الظاهر هذا بتخلّي الرّوميّ عن مكانته . لم يكن قادرًا على الاحتفاظ بمنزلته مع هذا النقد المتزايد الذي يلاحقه ، ولم يكن لديه الفراغ ليشرح قصّته لكلّ الناس . كان مأخوذًا تمامًا بالاستماع إلى حديث شمس تبريز ، وليس لديه الوقت للدفاع عن نفسه . أنفد وقته كلّه لفهم هذا الذي يقول الشيخ . وانتهى الأمرُ بهزّةٍ مفاجئة : في يومٍ من الأيام غاب شمسُ تبريزعلى نحو مفاجئ ، على غرار ما جاء .

وجد الرّوميُّ نفسَه وحيدًا ، وليس وحيدا . وفي عالَم الفكر الذي كان يحيط به ،

لم يكن في طوق الروميّ إلاّ أن يرى الفِكَر العميقة التي أعطاه إيّاها شمسُ تبريز . فتح عينيه على نافذة الحياة . كان ذلك أكثرَ مما قال ، كان شيئًا أُوقِظ وفُتح في قلب الرّوميّ . كان نوعًا من الاتساع في إدراك الرّومي ووعيه . ما كان ثقافة أو تعليمًا ، كان أكثر من ذلك ـ كان ظاهرة .

تمثّل الروميّ ، كالطّفل ، كلّ كلمة نبست بها شفتا شمس تبريز ، وأودعها قلبه . لم يستطع إيقافَ فيض الدموع الذي استمرّ لأيام وأسابيع . فكّر إن كان ذلك خيرًا له ، لكنه ليس ذلك الخير الذي اعتدنا أن نتصوّره : كان أعظمَ خيرٍ يمكن أن يعرفه الوجودُ . كان رحمةً إلهية ومنّة ربّانية . وهو وإن كان عِلْمًا ، فإنه ليس العلمَ الذي يعرفه الإنسانُ ؛ كان فيضًا من المعرفة . كان مفتاحًا للسّماء والأرض . كان شيئًا تعجز الكلماتُ عن شرحه .

والآن فإنّ الروميّ فقد منزلته من ناحية ، وإلى حدّ ما فقد سمعته واحترامه ، في أنظار الناس وحتى في أنظار أولئك القريبين منه والعزيزين لديه ؛ لأنهم لم يستطيعوا أن يفهموا ما هو فيه . ومن وجهة أخرى فإن الشخص الوحيد الذي يمكن أن يعتمد عليه هو شمسُ تبريز ، وها هو قد غادر المكان .

وطبيعيّ بعد ذلك أن غدت حياةُ الرّومي حياةَ تأمّل ، حياة تفرُّس ودرْسٍ للطبيعة ، ثم حياة حبٍّ شديد لشخصية ربّانيّةٍ مثلت أمامه ذات يوم . وهكذا فإنّ كلّ ما هو ضروريٌّ للحياة الروحية دخل حياة الرّوميّ ، كلّ ما من شأنه أن يمهّد الطريق الرّوحيّ . ولذلك غدت حياة الرّوميّ ضرباً من الحياة تابَعَه الصوفيّةُ لعددٍ من القرون .

وأحياناً عندما تحمله فِكَرُه ومشاعرُه على التفكير كان ثمّة نوع من الامتلاء في قلبه يجعله يطلب من الموسيقيين أن يأتوا ويغنّوا ، في الطريقة التأمّلية للغناء ، وكانوا

يغنّون غالبًا كلماتِ شمس تبريز والرّوميّ : كلمات القلب الإنسانيّ الذي أيقظه الحبُّ الشديد ، كلمات توضح الطرائق الإلهية للحياة وسرّ التركيز .

وتوجد مثلُ هذه العادة إلى الآن في الهند وفارس : إذْ يحدث أحيانًا أن تُغنّى الكلماتُ الرائعة للشعراء العظماء كالرّومي وشمس تبريز مع الموسيقا ، ويجلس الناسُ هناك ويستمعون ويستمتعون ويستفيدون ، وتُولّف الكلمات وفقًا للأنغام مما يجعل الموسيقا أكثر إفادة ـ ويُعَدّ مثل هذا الاجتماع غاية في النقاء ، عندما تُعزف تلك الموسيقا المقدّسة .

ومن هذه الطريقة وُجدت طريقة كانت مختلفةً عن اليوغا الموجودة في الشرق .

أمّا الاختلاف فيتمثّل في ذلك الميل إلى النظر إلى الحياة كلّها بوصفها وهمًا ـ وهذا حقّ ـ وفي محاولة الابتعاد عنها ، على نحو يكون فيه الإنسانُ متحرّرًا من قيود الحياة التي تعوق تقدّم الإنسان : هذا الميل جعل ثمة نوعًا من الجدار بين اليوغيّ والعالم . كانت طريقةُ الرّوميّ في التأمّل وفاقًا لتأمل أستاذه ولما قال ، وللحقيقة التي تلقّاها منه : التفكّر في الحياة بتلك الطريقة ، ثم دمج ذلك كله بتموّجات الأنغام الموسيقية .

إنها اتصال تامّ وفي الوقت نفسه فوق الاتصال ، مما يعني أن تكون على البحر ومع ذلك ليس فيه ، إنها الرمزيّة نفسُها المستخدمة في الإنجيل ، مَشْيُ المسيح على الماء . ثمة ثلاث طرائق للحياة : الْمَشي على الماء ، والسّباحة في الماء ، والطريقة الثالثة هي الغرق في الماء . أولئك الذي يغرقون هم أولئك الذين يرتبطون بالعالم المادّيّ ، وهذا الارتباط يغرقهم في نهاية المطاف . ثم هناك طريقة لعيش الحياة تشبه السّباحة . والطريقة الثالثة هي السَّير على الماء ، أي النفاذ إلى الأشياء كلّها ومع ذلك عدم لمسها ، الوقوف فوقها ، أن يكون المرء في هذا العالم وليس فيه في الوقت نفسه .

وقد عاد هذا على صوفيّة الشرق بخير الجنى ، وقد تمثّل في سِحْر شخصياتهم وخِلابتها . فالشعور الذي نمّاه لديهم تأمّلُ آيات الله مكّنهم من مَدّ أمواج الحبّ

والْحُنوّ ، ومن النظر إلى الحياة بتفاؤل وأملٍ ، وبأمل لِجَعْلها في أحسن صورة ، ثم إذا كانت صعبةً ومخيّبة ، الاستفادة منها على خير وجه ، لتوجيه كلّ شيء ماديّ نحو غرضه الأسمى وجعل كلّ مظهر من مظاهر الحياة المادّية أداةً لتحقيق الإبداع التامّ ، على نحو لا يضيع فيه شيء مادّيّ .

ويرى الصوفيُّ أن التقيّ والمذنب كليهما قريبان منه . وهو يحب الصديق والعدوّ ، لأنه وراء الصديق ، والعدوّ يرى معشوقه ، وقدرته على عدوّه عجيبة ، لأنّ عدوّه لا يستطيع الاستمرار في عداوته له عندما يرى هو فيه صديقًا . إنّ تأمّل المعشوق هو الذي يحمله الصوفيّ بين جنبيه حيث حَلّ . إنه الكائن الأوحد الذي يعرفه ، وهو دائماً في حضرته ، وهو لا يستطيع أن يحتفظ بالعداوة ؛ فإنّ نار الحبّ تحرق وخْزَ شوك العداوة .

إنّ أكثر شيء يُؤسف له في هذا العصر هو ضآلة فهمنا لكلمة « حبّ » ففي غالب الأحوال يفهم الإنسانُ من الحبّ معنى المقايضة : إنْ تعطِني فسأعطيك . وما ذلك بحبٍّ ، إنّه في غاية الدّناءة أن يتوقّع المرءُ عائدًا . الدّرسُ الأوّل الذي ينبغي أن يتعلّمه المرء من الحبّ هو: ليس ثمة « أنا » . فإنّ « أنا » أعدى أعداء الحبّ . يخال الناسُ أنْ ليس ثمة خُسْرانٌ أعظم من خسران الـ « أنا : ـ وليتهم يعرفون أن لا شيء أعظمُ ربحًا من هذا ؛ لأنّه حين يتخلّى المرء عن الـ « أنا » يربح كلَّ شيء .

العمليةُ الكاملة للوصول الرّوحي هي هذه : تخلَّ عن الـ « أنا » واحصلْ على كلّ شيء . وهذا هو السرّ الوحيد الذي يتراءى وراء كلّ الأديان ، والفلسفات ، والتصوّف ، إذا ما استطاع المرء أن يدركه ، وليس في مقدور الإنسان أن يقول عنه الكثير ، ذاك أنه ضربٌ من الممارسة والسلوك . في كلّ شيء صغير يقوم به الإنسانُ ، تبرز هذه الـ « أنا » الصغيرة ، ويستنفد قمعُها قدرًا كبير من الوقت والعمل ، وقد وُجدت تعاليمُ التصوّف كلّها من أجل هذا الأمر . ولكن كيف يمكن قمعُ هذه الـ « أنا » الصغيرة ،

حتى لا تبرز وتقف في طريق رقيّ الإنسان ؟ - إنّ لدينا الكثير من الأعداء والكثير ممّن يعارضوننا . لكنّنا حين ننظر إلى الحياة نظرة فاحصة نكتشف أنّ أعدى أعدائنا على الإطلاق إنما هو « أنفسنا » . وكلّ ما نتوق إليه تصرفه عنّا وتُباعد بيننا وبينه هذه الـ « أنا » .

وقد قدّم جلالُ الدين الرّوميّ صورةً رائعة لهذه الفلسفة ، وهو يفتتح عمله الرائع « المثنويّ » بالقول : « أصْغِ إلى النّاي واسمعْ ما يحدّثك به . ما ذلك الشيءُ الذي يصدر عن النّاي فيستبدّ بنفسك ، ويتخلّل وجدانك ؟ » . ثم يعطينا مثالاً : النّايُ ، تلك القِطعة من القصب التي قُطعت من جذرها وأُبعدت عن أصلها ، له قِصّةٌ يريد أن يحكيها . إنّه مجوّفٌ ، قلبُهُ فارغ ، لكنه إلى جانب هذا الفراغ ، صُنعت عدّة ثقوب إلى قلبه ، على نحو يكون في مقدوره أن يُقدّم كلَّ النغمات التي يراد أن يصدح بها من أدنى النغمات إلى أعلاها . ثم يمضي الرومي قائلاً : « ولكن ما هذا النّاي وأين مغنّيه ؟ » إنّ الأول تحت شفتي المعشوق ، والآخِر يغني للعالم خارجًا .

وفي تلك النقطة يترك للإنسان أن يحلّ اللغزَ ، وفي تلك النقطة قدّم صورةً للإنسان ، الإنسانُ عُودٌ من الخيزران فُصِل عن أرومته : تلك الأرومة كلٌّ ، تامٌّ ، والعُودُ ناقصٌ . وقد جَعلت الحياةُ ثقوبًا لقلبه يمكن أن تعزف كلّ الأنغام : ومنذ أن تُصنع الثقوب تبدأ في إصدار الموسيقا التي تستحوذ على أرواح الناس . وبالإضافة إلى مثال الناي هذا ، ثمة قصيدة للروميّ غايةٌ في الرّوعة :« كثيرون غدوا أصدقاء لي بوساطة الحبّ ، لكنهم يجهلون فيَّ هذا الذي يجعلني قريبًا منهم ، ولو أنهم عرفوا هذا وحده ، لحلّوا مشكلة الحياة كلِّها » . ولكن ماذا يريدُ بهذا ؟ يريد أن يقول إنّ ما في القصبة من تجويف وفراغٍ هو الذي يجعلها أقربَ إلى شفتي الحبّ الإلهيّ . وتلك هي حال قلب الإنسان : قلبُ الإنسان هو نايُ الله (جلّ وعزّ) ، وهو يلامس شفتي المولى (سبحانه) حين يكون فارغاً(☆) . وما دام غير فارغ ، فإنه لن يلامس شفتي الله (سبحانه) .

(☆) نُعيد إلى الأذهان هنا أنّ هذا الكتاب موجّهٌ أصلاً إلى القارئ الغربيّ الذي لا يجد غضاضةً في قبول أمثال هذه التعابير . (المترجم) .

كلٌّ إلهام ، السرُّ التـامّ ، يمكن أن يقع على قلب الإنسـان ، ولن يجـد الإنسـانُ **سرَّ الحياة** في أيّ مكانٍ إلاّ في داخل نفسه ، والحقيقة أنّ الروميّ قد أظهر في إحدى قصائده الطريقَ الموصل إلى هـذا الهـدف ، وفيهـا يقول : « إن شئت الوصول إلى الحبيب ، وفي الوقت نفسه الوصولَ إلى كلّ أشياء هذا العـالم ، فلا ينبغي أن تجهـدَ في هـذا ، لأنّـه غير ممكن » .

ولا يعني هـذا أنّ كلّ الأشيـاء في هـذا العـالم ينبغي التخلّي عنهـا . لكنـه إذا كان الموقف في الحياة يعْرِض أمامنا حالةً يتوافر فيها شيئان ، ويُطْلَب فيها منّا إمّـا التخلّي عن الشيء الذي يوجد في داخلنا ، وإمّا التخلّي عن شيء يقع خارجنا ، فإنّـه من الخير التخلّي عن ذلك الشيء الخارجيّ ، والاحتفاظ بما يقع في داخلنا . هذا هـدف كلّ شيء في هذا الوجود . كلّ إنسان له مقاصد خيّرة ؛ كلّ إنسـان يريـد أن يوجِد الأحسنَ في الحياة . لكنّ المكان الأول الذي يجد فيه الإنسانُ صعوبـةً هو الشيء الـذي يغـدق عليـه الإنسانُ كبيرَ قيمة ، ورغم ذلـك لا يعرف إذا كان موجوداً ، وهنـاك شيء آخر لا يقيم لـه وزناً كبيراً ، لكنه في الوقت نفسه يعرف أنّه موجود .

وقيمةُ كلّ دين ، وكلّ فلسفة ، وكلّ تصوّف ، أن يسـاعـد الإنسـانَ في إدراك ذلـك الشيء في داخلـه ، إنّـه شيءٌ لا يستطيع إلاّ مَثَلُـك الأعلى ملامستَـه ، شيء لا يعرفـه إلاّ وعْيُك ـ وحتى وعيُك يعزّ عليه أن يوضحه على نحوٍ كافٍ لعقلك ، والوصولُ إلى هـذا في معمعة الأشياء الكثيرة التي تكون واضحة ، هو المَحَكّ .

يتساءل الإنسان : « هل آخذُ هذا الذي أعرفُه ، أو أمضي في اللّحاق بشيء أنـا غيرُ مستيقنٍ من وجوده ؟ ألا يمكن أن أخسر ؟ » لأنّ الحياة الحـاضرةَ تعلّم النـاسَ السلوكَ التجـاريّ . يتردّد الإنسـانُ في الإقـدام على فعل شيءٍ لا ربـح فيـه . لا يروقـه شيءٌ من هذا . الفضيلةُ ليست نفيسةً لديه . أمّا في الحقيقة فهي أعظمُ ربحٍ ، لأنه لا شيء آخر في الدّنيا يمكن أن يُرضي .

ولذلك فإنّ المرء في خاتمة المطاف يصل إلى الاقتناع بأنّ ثمّة شيئًا واحدًا في العالم يستحقّ الاهتمام ، وذلك الشيءُ هو الكسب الروحيّ ، أو الوصول إلى الله (سبحانه) ، ولا يحتاج المرءُ هنا إلاّ إلى أن يقوّي ملَكةَ الإيمان لديه ، هذه الملكةُ التي تقف وحدَها حتى عندما تلمس أنت مثلاً أعلى ليس فيه شيء آخر يمكن أن تحتفظ به .

أيّها الأصدقاءُ ، الاختلافُ بين العالم وبين الله يمكن أن يُرى بإدراك الاختلاف بين الشّمس وأشياءِ الأرض . كلُّ أشياء الأرض ينبغي أن يكون فيها شيء يمسكها - وإلاّ فإنها ستسقط . أمّا الشمس فلا شيء يمسكها ، إنها تقف بنفسها ، لا يدعمُها شيءٌ ، وهذه هي الحال مع الله (سبحانه) ، كلُّ أشياء الوجود تسندها الأسبابُ ، وإذا كان ثمة شيءٌ واحد يوجد من دون سبب فإنه الله . ولكن لماذا هو كذلك ؟ لأنّ وجوده الحقيقيّ هو نفسك .

إنّ رؤيتك نفسَك في كمالها هو رؤية الله ، لكنّه في الوقت نفسه ينبغي أن يُفهم أنّ ثمّة طريقتين للنظر إليه . اللهُ ، الله الدّاخليّ والحقيقيّ ، لا نستطيع حتى أن نسمّيه « الله » . سيكون من الخطأ أن نحاول إعطاءه اسمًا ، إذ سيكون محدَّدًا . إذا ما دعوناه « الأحَد » فإنّ في هذا إضافة وقسمةً ، ممّا لا يليق به ، ليس في وُسْع الكلمات أن تُبين ، وإن كان للمرء أن يبيّن اللهَ الحقيقيَّ (سبحانه) فإنّ بيانه هو « الصّمتُ » .

ثمّة طريقةٌ أخرى للنظر إليه . فابتغاءَ الوصول إلى الله (سبحانه) علينا أنْ نتصوّر الله داخل أنفسنا ، ولذلك فإنّ « اللهَ » كلٍّ منّا سيكون مختلفًا . بإعطاء الله شخصيةً وبالتفكير في تلك الشخصية ، نُضيع نحن شخصيتنا . وبرفعه إلى الأعلى ، نُرفَعُ نحن إلى الأعلى ، حتى ليحدث أنّ الله الذي تصوّره الإنسانُ يحملُ الإنسانَ حتى يصل إلى الله الحقيقيّ ، الله الذي تخيّله الإنسانُ يحمي ، أمّا الله الحقيقي فيُحيي .

هذا هو فضلُ كلّ دين ، كلِّ فلسفة ، كلّ تصوّف ، وهذا التيقّنُ من الحقيقة هو الذي يُدني شفاهَ أولئك الذين تيقّنوها ، هذا هو السرُّ العظيمُ للحياة .

مدخل المترجم

الرّومي : أغنية الطير تتحرّك خلالنا كالمطر

خلافًا للشخصيات الأُخَر في هذه المجموعة ، فإنّ حياة الرّومي موثّقةٌ تمامًا . فقد بقيت له سبع وأربعون ومئة رسالة شخصية ، وليس من شأني ههنا أن أعيد رواية التسلسل الخارجيّ لقصة حياة الروميّ الشهيرة . فقد انحدر من أرومةٍ روحيّة واضحة . كان أبوه بهاءُ الدين صوفيًّا كبيرًا أيضًا . وفي كتاب « المعارف » ، وهو نوعٌ من اليوميات الخيالية ، يصف الوالد كيف يقبله الله ويحنو عليه مثل العاشق في اللّيل . وتحقّقُ الرّوميّ من القرب هو أوثقُ نواحي حياته . إنّ الأحداث الخارجية عند الصوفيّ لا تكون بارزةً كما هي الحال في التغيّر الدّاخليّ . فلا الشعرُ ، ولا التحوّل ، ولا الأفعال ، لها تلك الأهمية التي كانت لفراغ القلب المتفتح عند الروميّ . كان ثمّة المحادثة الطّويلة مع شمس تبريز (الصُّحبة هي الكلمة التركية المقابلة ، وفي الفرنسية toucherl'essence ، كانا معًا في قلب الوجود) ؛ ثم الانفصال ، و « الكلام » المتصل في الشعر . أبقى الرّوميّ طَلْعةً وراء الذاتيّ ، وبعضُهم يلتزم الصّمتَ عند تلك النقطة ، في حين لا يستطيع آخرون سوى الذكر الخفيّ « الله » ، « الله » . وعلى الرغم من ذلك ظلّ الروميّ تحت إمرةِ « أوركسترا » ثقافية مكتملة ، كلُّ آلاتها جديدٌ .

إنّ عددًا من القصائد هنا يذكر النّاي ، وكان لدى الروميّ ما يمكن تسميتُه نظريةً لغوية مرتبطة بهذه الأداة . والنّايُ يقول شيئًا واحدًا من خلال قلب قصبته المجوّف : أريد أن أعود إلى أجَمتي . وبغضّ النظر عن تعقيد العملية ، يرى الروميُّ أنّ وراء كلّ صوت من أصوات اللغة ذلك الرنينَ الأزليّ للانفصال ، نواح الكائن البشري الذي أُبعد عن « الكل » . وهذه حقيقة ولغزٌ محيّر عند الرّوميّ . ويتساءل الرومي بدهشة لماذا

لا يكون هناك نغمةٌ مضاعفة ، متساوقة مع الشكوى ، بحرٌ من الثّناء على براعة ذلك المبدع الذي لم يقتلع القصبة من الأجَمة فحسب ، بل شكّل أيضًا الأسطوانة المعرّاة في صورة نايٍ ، يعني ذلك الشكل الإنسانيّ بثقوبه التّسعة .

وتتضمن القصائدُ هنا أمثلةً لمعظم الأشكال التي نظم فيها الروميّ . بعض الرّباعيّات (القصائد القصار) ، غَزَلان (القصائد المتوسّطة الطول) ، قطعة قِران ، مقطع نثريّ من « المخاطبات » ، عدد من المقطع الأكثر طولاً من « المثنويّ » ، ذلك العمل الرائع المؤلَّف من اثنين وخمسين ألفَ بيتٍ ، الذي أملاه الرّوميّ على عصام كاتبه ، خلال الاثنتي عشرة سنةً الأخيرة من حياته .

والقصّة المأخوذة من « المخاطبات » هي القصة التي حكاها شمس تبريز . كان شمسُ أستاذَ الروميّ ، ومُدْخِلَه إلى الحضرة ، فقد التقيا في أحد شوارع مدينة قونية . فقال شمس : « أيُّهما أعظمُ ، البسطاميّ أَمْ محمّد ، لأن البسطاميّ قال : « ما أعظمَ شاني ! » . وقال محمّد : « لا نُثني عليك كما ينبغي أن يُثنى عليك ؟ » أحسّ الرّوميّ بعمق السؤال الذي وُجِّه إليه ، وسقط من على ظهر الحمار الذي كان يمتطيه . استعاد الرّومي وعْيَه فقال : « محمّدٌ أعظمُ ؛ لأنّ البسطاميَّ أخذ جَرْعةً واحدةً ، فأُخمدَ عطشُه ، أمّا محمد فقد كان الطريق مفتوحًا له على الدّوام » . تحقّق شمسُ من أنه وجد الصّحبة التي ظلّ ينشُدها طول حياته ، ومن ثمّ فإنّ سرّ صداقتهما هو المعينُ والموضوعُ للشعر الذي يأتي .

نشير إلى الهلال

في هذا الوقت الذي نجلس فيه أنتَ وأنا هنا ، شخصيْنِ
بروحٍ واحدٍ، نكونُ حديقةً ،
مع النباتاتِ وزغرداتُ الطيور تتخلّلُنا كالمطر .

تطلع النجومُ ، ونحنُ خارج ذواتنا ، لكنّنا مجتمعان . نشير إلى الهلال ، إلى انضباطه وفرحه الضّئيل .

لا نُصغي إلى قِصَصٍ
مُفْعَمةٍ بالغضب المحبَط . يكون
غذاؤنا الضّحِك والحنوّ
الذي نسمعه حولنا ،
عندما نكون معًا .

وما هو أكثر استعصاءً على التصديق ، أننا عندما نكون جالسَيْن هنا في قونية ، نكون في هذه اللحظة في خُراسانَ والعراق .

لدينا هذه الأشكالُ الآن ،
ولدينا أشكالٌ أُخر في المكان الآخر
ممّا صنعه هذا الالتحامُ .

النّاي

استمع إلى الحكاية التي يحكيها النّايُ ،
عن الانفصال .
« منذ أن قُطِعتُ من أجَمتي ،
أصدرتُ هذا الصوتَ النائح .
وكلٌّ مَنْ فُصِل عن حبيبٍ
يفهم ما أقول .
وكلٌّ مَنْ اقتُلع من أصله
يتوق إلى العودة إليه .
وتجدني في كلّ تجمّعٍ ، أمزج
بين السرور والأسى ،
صديقٌ للجميع ، لكنّ قليلين
سيسمعون الأسرارَ التي تخبّئها
أنغامي . فلَمْ يؤتَ الناسُ الآذانَ التي تسمع ذلك .
جسدٌ يخرج من الرّوح ،

وروح يخرج من الجسد ، وليس في مقدورنا أن نخفي ذلك المزيج ، لكنه لا يُؤذَن لنا

بأن نرى الرّوحَ » . النّايُ
نارٌ ، وليس ريحًا . لتكن لا شيء .
استمعْ إلى نار الحبّ التي داخلت
نغماتِ النّاي ، كما داخَلَ السُكْرُ والذهولُ
الخمرةَ . النّايُ صديقٌ
لكلّ من يروقهم الثيابُ المرقَّعة
ويُدَعُّونَ بعيدًا . النّايُ
جُرْحٌ ومَرْهَمٌ في وقتٍ واحد .
ألفةٌ وتوقٌ إلى الألفة
في أغنيةٍ واحدة .
هَجْرٌ مشؤومٌ ،
وصَبابةٌ رقيقة ، معًا .
ومَنْ يستمع إلى هذا سِرًّا
يكنْ فاقد الوعي .
لِلّسانِ عميلٌ واحدٌ ،
هو الأذن .
وقوّةُ قصبةِ النّاي تأتي
من صنعها الحلاوةَ في مزرعة القصب .
وأيًّا كان الصّوتُ الذي تصدره

فهو لكلّ إنسان .

أيّامٌ مفعمةٌ بالتشوّق ، دَعْها تمضِ

دونَ امتعاضٍ من مضيِّها .

ابقَ حيث أنتَ ، داخل

هذه النغمة الصّافية العميقة .

البَدْر ، بلال

ثمة وجبةٌ صغيرةٌ قبلَ الفجر
في أيام رمضان . تسمّى السّحور ،
وقد جرت العادة أن يوقِظ الناسَ لها قارعُ الطبل .
وفي منتصف الليل ، جلس رجلٌ قرب باب
بناء مهجورٍ ، يوقّع على طبلته
إيقاعات للسّحور .
مرّ أحدُهم فقال : « انتظر قليلاً !
أولاً ، السّحور عند الفجر ،
أو قبل ذلك بقليل ، أمّا منتصف
الليل فليس وقتًا لهذا الإزعاج . ثم ثانيًا
لا أحدَ قريبٌ منكَ ! فلماذا تدقُّ الطبل
إذا كان ليس ثمة من يسمع ؟ هل هناك
نبأ خفيّ وراءَ ماتقوم به ؟ »
أجاب المسحِّرُ :
« ألا تكفّ عن أسئلتك ؟
أمّا عندكَ ، فقد يكون الوقتُ منتصفَ الليل .
وأمّا عندي فإنّ الفجر جِدُّ قريب . في عينيَّ

كلٌّ ليلٍ يبدو مثلَ النهار .
وعندك ، يبدو هذا البابُ صلبًا كالحديد ،
أمّا لِيَدَيْ فنّانٍ كبير
فيبدو قابلاً للتشكيل مثل الشمع .
عندك ، الجبلُ مادّةٌ صُلبة مكتّلة .
أمّا عند داودَ فالجبل موسيقيّ بارع
يمكن أن يَتعلّم منه . وعندك العمودُ
حجرٌ ميّت . أمّا عند محمّد ،
فهو صديق على وشك أن يخرّ لله ،
إنه حيّ ! وعند بعضهم ، تبدو ذرّاتُ
هذا العالم ميتةً ، لكنها ليست كذلك .
إنّ لديها معرفةً . وهي تقرّر !.
وأنت تسألُ : لمَ أقرعُ هذا الطبلَ حيث لا يوجدُ أحد ؟
عندما يذهب الْحُجّاجُ إلى مكّة ، يبيعون بيوتهم
ويدفعون الصّدقات ، وهم لا يسألون عندما يصلون
إلى الكعبة : « هل هناك أحدٌ في البيت ؟» .
إنّ كلَّ مَنْ مُلِئ بنور الصديق
عرف ما يشغل أيَّ فراغٍ .
وأينما حلّ مثلُ هذا
تظهر الكعبة .

والإنسانُ الحقّ يقف دائماً
هناك .. أمّا الآخرون فزوّارٌ فحسبُ .

يدعو الْحُجّاج : « يا ربّ ! »
وليس ثمة صوتُ إجابة ،
ومع ذلك لا يتبرّمون . فلِمَ هذا ؟
وهم يعرفون أنّ الذي يجعلهم
يردّدون « يا ربّ » هو نفسُه « هنا أنا »
مُبارِكًا أنهم جاؤوا من أجله .

إنّ في داخل كلّ تساؤل عميقٍ إجابةً عنه .
على غرار ذلك ، فإنّ شيئًا ما يجعلني أعرف
أنّ عليّ أنْ أقرع طبلة
السّحور ههنا .

بعضُ النّاس يذهبون إلى الحرب .
بعضهم يتحمّل الصعائب الشّداد .
بعضهم ينتظر بصبرٍ .
كلّ إنسان يقدّم خدمةً من نوعٍ ما
أمّا خدمتي فهي قرْعُ الطبل عند هذا الباب
حيث لا سامعَ إلا الله ،
الذي يأخذ ثوبًا وسِخًا
ويعطي نورًا داخليًّا .

الذي يأخذ الجليد الذائبَ لهذا الجسد
ويعطي ريفًا فسيحًا ،
الذي يتلقّى أحزاننَا
ويحوّلها إلى نهرٍ بهيج .
بتنهّدةٍ واحدة ، تأتيك الجائزةُ العظيمة .

بِعْ أسمالَك القديمة في هذه السّوق .
واحصلْ بثمنها على مدينةٍ لألاءة .

وعندما يُداخلُك الشكّ في شأن هذا الضرب من التجارة ،
اقرأْ تاريخَ الخبراء ، الأنبياء .
لقد مارسوا هذه التجارة طويلاً
حتى إنّ مخازنَ كبيرة كالجبال
لا تتّسع للبضائع » .

لقي بلالٌ عذابًا شديدًا من
جَلْدٍ بفروع الأشواك في هجير القيظ .
كان الدّمُ يطفر مع كلّ ضربة . « لماذا تُضيعُ
الوقت في العبادة وأنت تعمل
لي » . كلُّ ما بُوسع بلال أن يقوله
في حُمَيّا ألمه هو :
أَحَدٌ !
مع كلّ وخْزة شوكة :

أَحَدٌ !
كان أبو بكر مارًّا ، فاشتمّ رائحة
حبيبٍ لله ، ثمّ قال لبلالٍ في هَمْسٍ :
« اكتم سرَّ حبّك .
هذا الحبُّ بينك وبين الله » .
قال بلالُ : « تفضّلْ ، واغفر ما بدر منّي » .
وفي اليوم الثاني مرّ أبو بكر ،
لأمرٍ أو لآخر ، في تلك الناحية ،
فسمع الأصوات نفسَها ، وخز الأشواك
والإجابة :
أَحَدٌ !

حرارة

ذلك الحبّ العظيم جاءت مرّة أخرى
إلى صدْر أبي بكر ، وإذ ذاك
نحّى بلالاً جانبًا ونبّهه على أن
يكتم نشوةَ حبّه .
ندِم بلالُ ثانيةً ، وفي كلّ مرّة
يشعر بالرغبة بالصّياح ، يعضُّه النّدمُ ،
حتى أطبق أسنانه أخيرًا وأقلع عن الندم تمامًا
قائلاً في نفسه : « أنا ممتلئٌ تمامًا بالحبّ

وليس عندي مكانٌ للندامة !

أنا قَشّةٌ في ريح قوية .

كيف لي أن أعرفَ إلى أين سأنتهي ؟

هلالٌ ، بدرٌ ، قمرٌ ، نصفُ قمر ،

ليس لي إلاّ أن أتبع الشمس . لا ينشغل القمر

بضخامته أو نحوله !

كلُّ ما ينشغلُ به إنما هو الشمسُ !

البَعْثُ يجري الآنَ !

أيزعجني أن أكونَ

قويًّا مستعدًّا للإذعانِ

لقانونٍ ما في السّلوك ؟

في أرضِ الحبّ أبدو كقطّةٍ في كيسٍ ،

تُرفَع إلى الأعلى وتدوَّر في الفضاء .

ذلكم مقدار ما عندي من قدرة التحكّم بالظروف .

الماءُ الصافي يحملني في طريقه . أنا ناعورة

تدور نهاراً وليلاً ، تئنّ وتنوح .

ومن دوراني ، تعرفُ أنت قوةَ

النهر غير المرئيّ وحركته . الصديقُ المعشوق

نهرٌ . وسماء اللّيل ناعورةٌ

تدور في ذلك . نهرُ الحبّ

لا يعرفك الهدوءَ . وإذا أنتَ
أوقفتَ غصنًا فيه ، كسَرَه النهرُ . كلُّ ارتباطٍ لديك
أمسِكْهُ بقوّةٍ ودَعْه يتبدّدْ !

وإذا كنتَ لا تستطيع أن ترى دوراتِ السماء الهائلة ،
فانظر إلى العيدان المحطّمة التي تدور بجانبك ،
وفقاعات البحر حولك .

الريحُ الدوّارةُ ، الامتداد الدائم
للمحيط ، هذه أجزاء من الحركة نفسها .

الشمسُ والقمر ثورانِ
يدورانِ بصبرٍ حول
هذه الأرض الدائرة كرحى الطحن .

تتنقّل النجومُ بحرّية أكثر
من منزلة إلى منزلة تحكي أخبارنا ،
سواءٌ أكانت خيرًا أو شرًّا أو بين بين .

أحيانًا تكون جامدةً ، وأحيانًا تكون دافئةً .
أحيانًا نكون متباعدين ، وأحيانًا نكون معًا .

كلُّ شيءٍ خاضعٌ للتغيّر . فكيف لنا أن نقاوم ؟
إنّ حالنا كحال جواد يمتلكه رجلٌ ذو شأن ،
تارة في الْمَرْبط ، وتارة على الطريق ،
تارةً مربوطٌ إلى العمود ، وتارةً مطلق العِنان يجري

في المرج ، وتارةً يتبختر أمام الجمع .
ولكن ، تذكّر ، أنّ هناك لحظات خطيرة ،
مثل تلكما النقطتين في طريق القمر
اللّتين تدعيان ذيل التنّين ، حيث يحدث
الخسوفُ . فلا تنقطعْ عن ضياء الشمس !
البرقُ يندفع كالسَّوطِ ،
« ليس ذلك الطريق ! هذا ! أصغِ إليّ ! ».
لا تعبثْ بالأشياء التي تعوقُ ضوءَك .
عندما تتخلّى عن تلك ... ولكن كفَّ عن هذا
الحديث الحسَن القبيح . وسواءً أكان علانيةً أو سِرًّا ،
إنه يوم السنة الجديدة ! يندفع الماء عائدًا
إلى المسيل . يمشي ملِكٌ في شارعنا .
يقول الطبلُ : « لا تقلقْ بشأن الندامة » .
يستولي النومُ على حارس اللّيلِ .
ونحن نرهن كلَّ ما نملك .
« أحمرُ داخلَ أحمرَ داخلَ أحمرَ .
أسمعُ الغناءَ يأتي من هذا الطريق ،
ويغدو الضربُ بالسوط الشائك باقةَ وَرْدٍ » .
بلال يُذيع الأسرارَ .

عبير الروح يجري فيه .

يصِلُ محمّد [عليــه الصـلاة والســلام] . « أنت عــزيــزٌ عليّ يــا بــلال ، عــزيــزٌ جدًا » .

يسمعُ أبو بكر حديثَ نَفْس بلال

ويقول : « أنتَ على حقّ . أنتَ لا تحتاج إلى

ندامةٍ أخرى . والآن اندم

على ندامتِك ! » .

قل مَنْ أنا

أنا ذرّاتُ غبارٍ في ضوءِ الشمسِ .
أنا قُرْصُ الشمس .
ولذرّات الغُبار أقول : « امكثي » .
وللشّمسِ أقول : « واصلي الدّورانَ » .
أنا طَلٌّ الصّباح ،
وتنفُّسُ المساء .
أنا ريحٌ في أعلى الأيكة ،
والأمواجُ المتكسّرة عند الشاطئ .
الصّاري ، والموجِّه ، ومديرُ دفّةِ السفينة ، ورافدةُ القصّ ،
وأنا أيضًا الصّخرُ المرجاني الذي تنهار عليه .
أنا شجرةٌ يجثُمُ ببغاءٌ مدرّبٌ على أغصانها
الصمتُ ، والفِكْرُ ، والصّوت .
الهواءُ الموسيقيُّ يتخلَّل قصبةَ النّاي ،
والجمرُ الحجرَ ، والوميضُ
المَعْدِنَ ، الاثنتانِ معًا : الشمعةُ
والفراشة التي تدور حولها .

الوردُ ، والعندليبُ
الثَّمِل بالشّذا .
أنا كلٌّ أنظمةِ الوجود ، المجرّةُ الدّائرة ،
الذّكاءُ النامي ، الارتفاع ،
السقوطُ بعيدا ، ما يكون ،
وما لا يكون . أنتَ يا مَنْ تعرفُ
جلالَ الدين ، أنتَ الأحَدُ في
الكلّ ، قُلْ مَنْ
أنا . قلْ : أنا
أنتَ .

مباركةُ زواج ابنة صلاح الدين زرقوب من نظام الدّين قتّات

ليكن هذا القِرانُ خمرةً بالحلوى ، عسَلاً مذاباً بالحليب .
ليكن هذا القِرانُ أوراقَ النخلة وثمارها .
ليكن هذا القِرانُ نساءً يضحكن معًا لأيّام عند النهاية .
هذا القِرانُ ، إيماءةٌ لنا للتأمّل .
هذا القِران ، جمالٌ .
هذا الزواجُ قمرٌ في سماء خفيفة الزّرْقة .
هذا الزواجُ ، هذا الصّمتُ ممتلئٌ تمامًا بالرّوح .

قصّةٌ حكاها شمس

اعتاد أستاذُنا شمسُ أن يروي قصةَ قافلة كبيرة متجهة نحو مكانٍ ما ، إذ لم يجد رجالُ القافلة أناسًا قاطنين ولا ماء . كان ثمة بئر عميقة ، لكنه ليس هناك دلوٌ ولا حبْلٌ . ولتبيّن عذوبة الماء ، ربطوا وعاء صغيرًا بحبل من عندهم وألقوه . ارتطم بشيءٍ ما في البئر فسحبوه ، لكنّ الوعاء تكسّر . أنزلوا وعاءً آخر فضاع بالطريقة نفسها . وبعد ذلك أنزلوا متطوّعين عطاشًا من رجال القافلة ، لكنّهم اختفوا أيضاً !

كان ثمة رجلٌ حكيم . قال لهم : « سأنزلُ » ، كان قريبًا من قَعْر البئر إذ ظهر له مخلوقٌ أسودُ مرعب . قال له الحكيمُ : « لا سبيل إلى النجاة منك ، لكنّي آمَلُ أن أظلّ يقظًا لأرى ما يحدث لي » .

قال المخلوقُ الأسود : « لا تقصّ عليّ قصصًا طويلة ، أنتَ في سجني ، ولن تخرج حتى تجيبَ عن سؤال واحد » .

« سَلْه » .

« أين أحسنُ مكانٍ ؟ » .

فكّر الحكيمُ ثمّ قال في نفسه : « أنا ضعيفٌ تمامًا هنا . فإنْ أنا قلتُ بغداد جميلةٌ ، أو مكان آخر جميلٌ ، ربّما أجرح إحساسَه بقيمة وطنه بعدم ذكري إيّاه » . وهكذا أجاب الحكيمُ : « إنّ خير مكان بالنسبة إلى الإنسان هو المكانُ الذي يشعر فيه بأنّه في وطنه . وإن كان ذلك المكانُ حفرةً وسْطَ الأرض ، فهو ذلك المكان » .

قال : صحيح ، إنك إنسانٌ فذٌّ ، وإكرامًا لك سأُطلق سراحَ الآخرين وأدعُهم

تحت عنايتك ، وأُسلِّمك سلطانَ الدنيا . ولن يكون عندي سجناءُ بعد الآن ، وسأُبيح مياه هذه البئر لمن شاء » .

حكى شمسٌ هذه القصة من أجل مغزاها ، الذي يمكن أن يعبَّر عنه بأساليب أُخَر ، لكنّ أولئك الـذين أَلِفوا الأشكال التقليـديـة سيؤثرون هـذا الشكل ، فمن الصعب جـدًّا التحدثُ إليهم . احكِ حكاية مختلفةً اختلافاً يسيراً تجدهم لا يُصغون إليك البتّة .

الوفاة

كان النبيُّ محمدٌ [عليه الصلاة والسلام]
عددًا من صور الانبعاث الروحي في وقت واحد .
ههنا وفي هذا الوقت ، نقدٌ يسهل التعامل به .
تحلّل من قيد الزمان ، ووُلِد مرّتين ،
وغدا انبعاثاً حيًّا .

لكنّ الناسَ سيأتون ويسألون : « كم يحتاج المرءُ
من الوقت لكي يولد ثانيةً ؟ ».

وسيجيب دونَ كلامٍ ،
ببلاغة حاله الداخلية :
مُوتوا قبلَ أن تموتوا .

ولن تعرف ذلك ،
حتى تغدو مولودًا جديدًا .

وهذه هي الحال بالنسبة إلى أيّ شيء .
فلن تفهم شيئًا حتى تكون
ذلك الشيءَ الذي تحاول أن تفهمه .
صِرِ العقلَ ، وإذْ ذاك ستعرفه تمامًا .

صِرِ الحبَّ وكن فتيلاً حارقًا
في قلبِ نفسِك .
وسأجعل هذا سهلاً للغاية ،
إن كان المرءُ مستعدًّا لما أقولُه .
التّين رخيصٌ ههنا ! ومن السهل
أن تمرّ المعرفةُ الصوفية . وكلُّ ما أنتَ في حاجة إليه
هو أن تصل ، مثلما يحطّ
العصفورُ الذي يحبّ التّينَ
على شجرة التّين .
كلُّ إنسانٍ في هذه الدنيا يموتُ .
كلّ إنسانٍ في سَكْرة الموتِ .
استمع إلى ما يقوله كلُّ إنسانٍ
كما لو أنّه الكلماتُ الأخيرة
من أبٍ إلى ابنِه .
استمعْ بذلك القدر الكبير من العَطْف ،
ولن تشعر بالحسد أو
الغضبِ مرّة أخرى .
يقولون : « كلُّ ما هو آتٍ آتٍ »
افهم هذا ، إنّه ههنا صحيح الآن !
الصّديقُ الذي تتحدّث إليه يتكلّم

في هذيانِ موته ، هذه اللحظةَ .

إن كنتَ مستغرقَ التفكير تمامًا في هذا الضرب من الإصغاء ،
فتذكّر أنّ ثمة مُضْعِفًا عظيمًا .

اللهُ أعطاك هذا الضعفَ لبعض الأسباب .
سَلْ : لماذا ، قُلْ : « لقد سعيتُ ،
لكنني في شغلٍ خاسر .
فعلتُ ما حذّرتَني منه .
زعمتُ أنني لا أحبّ ظواهر أشياء الوجود ،
لكنني قد عبدتُها .
أينبغي أن أفكّر بالموت
أكثر ممّا أفكّر بالله ؟

في الخريف ، يكون أصلَ الأوراق الميتة
الجذرُ الحيّ المغطّى بالتراب .
آه يا أصلَ الأوراق الميتة ،
لسنواتٍ قرعتَ الطبلَ لتخبرني .
والآن فقط حيث أموتُ
أستيقنُ من أنّني سأموتُ !

حَنجرةُ الموتِ سُلِخ عنها الجلدُ وتمزّقت
بالصُّراخ عليَّ . وطبلُ الموتِ

يشقّق ويكسّر من الضرب
بمثل هذه القوة المذهلة .
لقد نُسِجتُ بقوة في شبكة
مهمّاتي التافهة ، والآن فقط
أشرعُ في سماع لغز
الموت في كلّ مكان .

الهلال

لقد سمعتَ عن خاصّيات بلال .
فاسمع الآنَ عن رقّة الهلال ،
الذي رُقّي أكثر من بلال .
لقد أنكر ذاتَه أكثرَ من بعضكم
أنتمُ الذين ترجعون إلى الوراء ، من كونكم كرةً مضيئة
إلى أن تُصبحوا مرّةً أخرى حجرًا معتّمًا .
تذكَّرْ قصّةَ الضيف الشابّ
الذي مثَل أمام أحد الملوك . « ثم كم سنُّك ،
أيها الصّبيّ ؟ ـ قل الحقيقة الآن أعلِنْها » .
« ثماني عشرة ، بل سبع عشرة » ستّ عشرة .
« الحقيقة نعم ، خمس عشرة » .
« واصل ! فستصل إلى رَحِمِ أمِّك » .
أو الرجل الذي ذهب ليستعير فَرَسًا .
« خُذِ الأشهبَ » .
« لا ، ليس ذلك » .
« لماذا ؟ » .

« إنّه يمضي في الاتجاه المعاكس . يرجع القهقرى » .
« ومن ثمّ يدير ذنَبَه نحو منزلِك » .

الحيوانُ الذي تمتطيه هو شهواتُك المختلفة .
بدّلْ رغائبَك . عندما تُقطع الأفرعُ الضعيفةُ
من الشجرة تغدو الثمارُ الباقية ألذَّ طعماً .
الرَّغبةُ يمكن إعادةُ توجيهها ،
بحيث إنها حتى عندما تعود بك إلى الوراء ،
تمضي بكَ إلى السلامة .

في مقـدور التصميم العظيم أن يجعـل « محيطين واسعين » بقَـدْر مسـاحـة بطانيةٍ صغيرة ، أو « سبعَمائة سنةٍ »
بقدْر الوقت الذي يستغرقه ذهابُك إلى من تُحبُّ .

الباحثون المخلصون يسلكون الطريق باستقامة ،
أمّا المغفّلون المتفاخرون الكسالى الأنانيّون
فيُفرِغون أحمالَ دوابّهم في فناء المزرعة
ويقولون : « هذا بعيد جدًّا » .

هل تعرفُ حكاية المسافرين
الذين جاؤوا إلى قرية في أوّل الربيع ؟
كان ثمّة بيتٌ مهجور له بابٌ مفتوحٌ .

« لماذا لا ننتظرُ حتى تنتهي هذه الفترة الباردة ،
ويسمّونها « برْد العجوز » .

دعُونا نضع أمتعتنا هنا ونرتحْ » .

سمعوا صوتًا عميقًا من الداخل يقول : « لا . أفرِغوا أحمالكم خارجًا ،
ثمّ ادخلوا ، هذه قاعةُ اجتماعات
على قدرٍ عظيمٍ من السّناء ! ».
هناك مثلُ هذه الأمكنة السّرّية المقدَّسة .

رغم أنّــه كان يعمـل في الإسطبـل سـائسَ خَيْـلٍ ، كان هـلالُ أستـاذًا متنوّرًا .

لم يفهم سيِّدُه حالَه .
عرف فوقَ وتحتَ وشمالاً وجنوبًا وشرقًا وغربًا ،
دليل الحواسّ ، ولا شيء آخر .
إنّ لونَ الأرض أمامَنا ،
لكنّ نور النبوة غائبٌ .
يرى أحدُهم مئذنةً ، لكنه لا يرى الطائر
الذي يجثم عليها ، يرى شخصٌ آخر الطائر
لكنه لا يرى الريش الذي يحملُه ، ويرى ثالثٌ
المئذنةَ ، والطائر ، والرِّيش .
قبل أن تستطيع رؤيةَ خيط الشعر ،
لن تُحلَّ عقدةُ الوَعْي .
الجسَدُ هو المئذنة ، الامتثالُ ،

الطائرُ . أو ثلاثمائة طائر ، أو مئتان ،
العدد الذي تشاء . الشخص الثاني يرى
الطائر ، الطائرَ وحده .
الشّعرُ هو السرُّ
الذي ينتمي إلى الطائر .
لا عشَّ مبنيًّا بمثل هذه المادّة
سيبقى مهجورًا . خيطُ التغريد يتدفّق
باستمرار من الطائر .
حاولْ أن ترى هذا الطائرَ فوق بُرْجه الطّينيّ ،
وكذا الشعرَ المتوّج في منقاره .
يمرض هلالُ لتسعة أيام يتمدّد مريضًا
في الإسطبل . لا أحد يدري مِنْ أمره شيئًا ،
سوى النبيّ محمد ، عليه الصلاة
والسلام .
يأتي للزيارة .
سيّدُ هلال مسرورٌ جدًّا .
باحتفاءٍ كبير يظهر من حجرته العُليا فيقبّل الأرضَ
أمامَ النبيّ . « أسألك باسم الله ،
أن تشرّفَ هذا البيت » .
« ما جئتَ إلى هنا لزيارتِك » .

لزيارة مَنْ إذًا ؟ » .

« ثمّة هلالٌ أطلّ على الدّنيا رجلٌ جديد نَشِّئ قريبًا من هذا المكان ،
يتساقط نورُ تواضعه
مثلما تتساقط الأزهارُ على الأرض .
أين هلالُ ؟
لم أرَهُ منذ أيّام .
ينبغي أن يكون خرج مع البغال والخيل » .
يُسرع النبي [عليه الصلاة والسلام] إلى الإسطبل ، إنّه مظلم ،
ونتَنُ الروث قويّ
لكن ذلك كلّه يتلاشى عندما تدخل المودّة .
إنّ المعجزات لا تبعث على الإيمان ،. بل
الذي يوحّد الناسَ إنما هو عبير الأخوّة والتقارب .
المعجزاتُ تقوّض أركانَ الإلحاد .
أمّا الإيمان فينمو بالحبّ .
وبالشّذا المعروف ، يصحو هلال .
كيف يمكن أن يحدث هذا في الإسطبل ؟
من بين أرجل الخيل يرى هلالُ
ثيابَ النبيّ [عليه الصلاة والسلام] ! يتقدّم زحفًا
من الزاوية المظلمة فيضع خدّه
على قدمي محمّد [عليه الصلاة والسلام] . يضعُ النبيّ الكريم خدّه

على خدّ هلال ويقبّل رأسَه ووجهَهُ .
كيف يمكن للإنسان أن يكون متخفّيًا !
هل أنتَ أحسن ؟ كيف حالُك الآن ؟
كيف !

يجلس المرءُ ويعتصر الثرى النديَّ لما فيه من نداوة
فكيف يكون الأمرُ عندما يغمرُه فيضٌ
من الغيْثِ النبويّ العذب ؟

كيف يحدث عندما ينهض كلبٌ أعمى قذِرٌ ،
ويجد نفسَه قد صار أسدًا هصورًا ، وليس ذلك الأسدَ الذي يمكن أن يُقتلَ ،
بل أسَدٌ روحيٌّ يُكسِّر السّيف
والرّمحَ بحضوره وحْدَه .

كيف يمكن أن يشعر ؟ إنسان يزحفُ لسنينَ
على بطنه بعينيه المغمضتين .
ثمّ في لحظةٍ يفتح عينيه ،
وإذا هو في بستان . إنّه ربيعٌ .
كيف تكون الحال وقد غدا حرًّا من « كيف » ،
طليقًا في حالِ انعدامِ الكَيْف ؟

النابحون يجلسون منتظرين حول مائدتك .
أَلْقِ لهم عَظْمًا !

هذا الاقتراحُ : اِغْسِلْ قبل الذهاب إلى خزّان الماء .
الأمواهُ هناك لها القدرةُ الكافية على تطهيرك
وإعطائك السلامَ ، لكنْ اغسِلْ نفسك
من أسئلة الكيف قبل أن تذهب .
تخلَّصْ من كلّ سؤالٍ عن أسباب المدهشات
والأعمالِ الخارجة عن الكيف .
لا تأخذ تلك الأسئلة معك
إلى خزّان الماء الكبير .

حُسام ! الخفافيش لا تضايق حسامَ الدّين .
فهو خبيرٌ بضياء الشمس !
لقد كُتب له حول القمر الجديد ، هلال .
والآن هو سيكتب حول بدر التمام ، الشيخ .
الهلالُ والبدرُ هما الشيء نفسُه .
الهلالُ يعلِّم التدرّجَ
والتأنّي وكيف يعطي الإنسانُ الولادة
لنفسه ببطء . الصّبرُ مع شيءٍ من التفاصيل
يجعل العمل الكبير تامًّا ، على غرار الكون .
وما تفعلُه تسعةُ أشهرٍ من العناية للجنين
سيفعله أربعون فجرًا
لكمالِكَ النّامي بالتدريج .

لن تربحَ هنا بالشهرة الواسعة والدعاية العلنية .
يأتي الاتحادُ من الفناء .
هذه الطّيورُ لا تتعلّمُ الطيّرانَ
مالم تُسقِطْ ريشَها !

حياةُ التواضع لا تُصغِر الإنسانَ ، إنها حياةٌ تملأ .
والعودةُ إلى ذاتٍ بسيطةٍ تُكسِبُ الحكمة .
عندما يؤلِّفُ الإنسانُ قصّةً لولده ،
يغدو أبًا وطفلاً
معًا ، يُصغي .

بعضُ الأرواح تنساب كالماء النمير .
تنسكبُ في أوردتنا
فنشعر بما يُشبه الرّاحَ .
وأنا أسلِّم بذلك . أضعُفُ .
نستطيع أن نُسافر بهذا المركب مُسْتَلقينَ .

اقتلع الْمبدِعُ قصبةً من أجَمة القصب ،
ثقبها عدّة ثقوب ، ثمّ سمّاها إنساناً .
ومنذ ذلك الوقت ، تنوحُ من ألمٍ موجِعٍ
بسبب الفِراق ، ناسيةً البراعةَ
التي أعطتْها حياةَ النّاي .

يقولون إنّي أقول الحقيقةَ .
ثم يسألونني
أن أعمل من نفسي
مَعْرِضًا للدّمى في السُّوق .
لستُ شيئًا معروضًا للبيع .
لقد اشتُريتُ من قبلُ .

لا تحاولْ أن تستمرّ على هذا .
فإنّك ستفقده .
لاتسحبِ السِّتارة .
فستنتهي .
هذه اللحظةَ مع كلّ واحدٍ منّا ههنا
فردوسٌ ،
لكن لا تحاولْ أن تدعَ هذا الطريق .
فإنّك ستتلفه .

اِرْحَلْ ، بعِلْمِكَ
وفلسفاتِك .
وحتّى لو أنك اختزلتَها
فجعلتَها بعَرْض شعرةٍ واحدةٍ ،
فليس ههنا مكانٌ لتلك ،
عندما يبزغُ الفجرُ الآنَ .
وعند تمامِ ضوءِ الشّمس في رابعة النهار
يكون من الوقاحة إشعالُ المصابيح .

أيّها الحبيبُ ، هذا الحديثُ عنك
يمنعني من الاستمتاع
بطَلْعتِك .
إنّ وجهَك ليتوارى
في غمرة ضيائه .
عندما أتأمّلُ شفتيكَ
لا أستطيع أن أقترب .
وتذكُّر أوقاتٍ أُخَر
يمنع هذا الآن .

أنتَ يا مَنْ سلَّمتَني الكأسَ ،
أنتَ روحي وحبِّي .
وأيًّا كانت صورُ الحماسة التي أمتلكُها ،
فإنّك تلك الصّور ، وأيّ نجاحٍ
هو نجاحُك ، صفِّق لنفسك !
هاتانِ يداك .

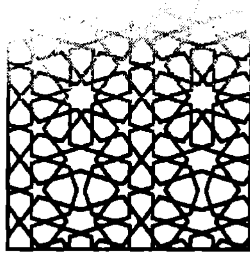
الآن

الآنَ إذ تَحْيا هنا في صدري ،
أيٌّ مكانٍ نجلس فيه يكنْ قنّةَ الجبل .
وتلك الصّوَرُ الأُخَر ،
التي سحرت ألبابَ النّاس
كدمى « البورسلان » الصينية ،
التي جعلت الرجالَ والنساءَ يبكون
لقرونٍ ، تلك الصّور تغيّرتِ الآنَ .
مااعتيد أن يكون مؤلماً هو مقعَدٌ جميلٌ
إذ نستطيع أن نرتاح تحت الأزاهير .
لقد صارت اليدُ اليسرى يُمنى .
والجدارُ المعتِمُ ، صار نافذةً .
الوسادةُ في كعب الحذاء ،
قائد الجماعة !
الآن صمتٌ .. وما نقولُه
مميتٌ لبعضهم
ومغذٍّ لآخرين .

وما نقولُه تينةٌ ناضجةٌ ،
لكن ليس كلُّ طائرٍ هو ذلك الذي يحطّ
فيأكل التّين .

العنز العرجاء

لقد رأيتَ قطيع الماعز
ينحدر إلى الماء .
العنزُ العرجاءُ الحالمة
تتوقّف في المؤخّرة على نحو مفاجئ .
كان ثمة وجوهٌ منزعجة من تلك العنز
لكنّها الآن تضحك ،
لأنها ترى ، عندما تنكص ،
أنّ تلك العنز تسير في المقدّمة !
ثمّة أنواعٌ كثيرة للمعرفة .
أمّا نوعُ العنز العَرْجاء فغصنٌ
يعود إلى جذور الحَضْرة .
تعلَّمْ من العنز العرجاء
وقُدِ القطيعَ إلى الرَّبْع .



سَعْدي : الزوجةُ وعشُّ الزّنابير

الشيخ مُصْلِح الدين سَعْدي

أحبّاءَ الله ،

موضوعُ حديثي اليوم هو سَعْدي ، الشاعر الصوفيّ العظيم في فارس . والحقّ أنّ كلّ شعراء فارس كانوا شعراء متصوفة . وعُرِفت وجهةُ نظرهم بأنها وجهة نظر التصوّف ، ولا ينطلي هذا الوصفُ على شعراء فارس فحسبُ ، بل على شعراء الهند أيضًا .

وقد عُدّت أعمالُ سعدي في الشرق بسيطةً ، ومربّيةً ، ومرقّيةً في الوقت نفسه .

ويتمثّل حُسْنُ أشعار سعدي في أنها تبدأ بتربية الأطفال . وقصيدةُ « كريما » تُعلَّم للأطفال في سنّ التاسعة ، أو العاشرة أو الحادية عشرة ، وفي الوقت نفسه ، ليس هذا الكتابُ مجرّد حكاية أو قصة مسلّية : إنها مثلُ بذرةٍ تُزرعُ في قلب الطفل في تلك السّنّ ، وبتقدم العهد تُزهر وتثمر التفكير والخيال الخيِّرين . و « كريما » قصيدة شكر ؛ الدّرْسُ الأول الذي يقدّمه سعدي فيها هو أن يتعلّم المرءُ كيف يكون شاكرًا ، كيف يعبِّر عن الامتنان ، كيف يقدّر الآخرين حقَّ التقدير .

وهكذا يعلِّمُ درسَ الشكر والتقدير من أجل كلّ شيء في هذه الدنيا ، لفضل الأمّ والأب وحبّهما ، للصديق والصاحب ، بأن يتعلّموا قبل كلّ شيء شكرَ الله على كلّ النِّعَم والأفضال التي يمتنّ بها سبحانه على الإنسان . ويفتتح سعدي « كريما » بالقول : « ياربّ ، يا رحيم ، أسألك غفرانك ، لأنني مقيّدٌ وفي عالم التقييد هذا معرَّضٌ دائماً لأقترف الآثام » .

وهو في الدّرس الأول يعلِّم الإنسانَ أن يعترف بقصوره ومحدوديته ، وأنّ هذه المحدوديّة تجعله قابلاً لارتكاب الأخطاء ، وفي الوقت نفسه يوصي سعدي بضرورة أن

يكون لـدى كلّ نفسٍ رغبـةٌ عميقـة في أن ترتفع فـوق القيـود وتتحـاشى الأخطـاء ، أن تنشدَ المحبة الإلهية وتطلب عفو الله سبحانه ، أن تقدّر حقّ التقدير أفضالَ الله عليهـا في هذه الدنيا ، كلّ ذلك ابتغاء الصعود إلى المرتبة المثالية للإنسـان الكامل . وعنـدمـا نرى الحياة اليوم يبدو لنا أنّ هذا هو الشيء نفسه الذي نحن محتاجون إليه .

وعندما يكبر الأطفـالُ دون أن يكون لـديهم هـذا الميل إلى التقـدير ، لا يكون في مقدورهم غالبًا أن يفهموا ما قدّمته لهم أمهاتهم ، مـا قـدّمـه لهم آبـاؤهم ، مـا واجبُهم إزاء أصدقائهم ، إزاء كبار السنّ ، إزاء معلّميهم . وعندمـا يكبرون من دون أن يكبر لـديهم الإحساس بضرورة تقديم الشكر ، فإنّ الطبيعة الأنانية التي تنمو لديهم على نحو آليّ تغدو مرعبةً . والطفلُ الذي لا يقدّر حقّ التقـدير في طفولتـه كلَّ مـا فعلتْـه أمُّـه من أجلـه ، لا يستطيع بعدئـذ أن يتعلّم أن يعـامل زوجَـه بـالرّفق واللّطف ؛ وذلـك بسبب دَرْسِـه الأول الذي تعلّمه من والدتـه . كلّ شيء ينشـأ عن الفطرة لا بـدّ من أن يهـذَّب ، ثمّ في تحقّقه ينبغي أن يكون كاملاً . وفي الجِبِلّة البشرية هناك ميلٌ إلى تـأكيـد الـذات منـذ الطفولة . الأكثرُ وضوحـًا في طبيعـة الطفل هو « أنـا » ، وكلّ شيء يمتلكـه يقول عنـه « لي » . وإذا لم يغيَّر هذا ، إذا ظلّ الوضعُ نفسُه عندما يكبر ذلك الطفل ، فإنه يصبح قاسيًا إزاء مَنْ حولَه ، بسبب « أناه » وما يقول عنه « مُلْكي » يغدو صعبًـا بـالنسبـة إلى كلّ أولئك الذين يعيشون معه .

وكلُّ التعاليم الدينية والرّوحية والفلسفية تمضي بنا نحو تطوير الشخصية . ثمة شيءٌ تصنعه الفِطرةُ في الإنسـان ، لكنّ ثمـة شيئًـا ينبغي أن يصنعـه الإنسـانُ نفسُـه . يولـد الآدميُّ آدميًّا فحسبُ ، لكنّ الآدميّ يتطوّر حتى يصبح إنسـانًـا . وإذا مـا بقي الآدميّ مجرّدَ فرد من أبنـاء آدم كما وُلِـد ، وظلّت الخـاصّيـات الأخَرُ التي وُلِـد معهـا دون ترقيـة ودون تهذيب ، فإنّه لن يحقّق الغاية من الحياة .

كلُّ المعلّمين والأساتيـذ العظماء في هـذا العـالم الـذين يظهرون من وقتٍ إلى آخر ، ونقرّ لهم بأنّهم قدّيسون وحكمـاء ، وأسـاتـذة ، ومعلّمون ، ومسـاعـدون ملهمون : ليس

المهمُّ دائمًا الفلسفةَ التي علّموها للناس ، وليس المهمّ دائماً المبادئَ أو صورة الدين التي قدّموها ؛ بل الأعظم أهميةً من هذا كلّه إنما هو شخصياتهم .

تعاليمُ بوذا يعتنقها عددٌ كبير من ملايين البشر ، لكنّ الأكبر من تعاليمه إنما هو الحياة التي عاشها ، والحكمة التي أفصح عنها في حياته ، لأنّ ثمّة تنفيذًا لهذه التعاليم . يولد الإنسانُ ولديه هدفٌ ، وذلك الهدف ينفّذ من خلال تهذيب شخصيته . هذه الطبيعةُ غير المهذّبة لـ « أنا » ، عندما تنمو في الحياة ، لها تأثيرٌ يشبه وخزة الشوكة . وكلٌّ من تخزه ، أينما كان وأيًّا كان ، ستُحدِث له شيئًا من الأذى ، شيئًا من الإزعاج ، شيئًا من الإتلاف .

هكذا هي حال الشخصيات مع البشر ، عندما لا تكون مهذّبة ، وعندما يجدون أمامهم كلّ المغريات ، كلّ الأشياء التي تخلب ألبابهم ، الأشياء التي يحبّونها ويعجبون بها ويتمنّون أن يمتلكوها ، وبعدئذ يواجهون نشاطات الحياة المتصارعة ، يصطدمون بكلّ شيء كأنه شوكة تمزّق ما يلامسها . ثم ماذا يحدث ؟

لا شك في أنّ الأشواك عندما تحتكّ بالأشواك يحطّم بعضُها بعضًا ، ويكون الأمر عاديًّا ، أمّا عندما تحتكّ الأشواك بالأزاهير ، فإنها تمزّقها إرْبًا إرْبًا .

وإذا ما سألتَ الأفرادَ في هذا العالم ، في مسالك الحياة جميعًا : « أخبروني مالصعوبةُ التي تواجهونها في الحياة ؟ » فقد يخبرونك بأنهم يحتاجون إلى الصحة أو القوة أو المكانة ، لكنه في معظم الأحوال ستكون الشكوى من أنّهم في صورة أو أخرى منزعجون من الآخرين : الصّديق ، الوالد ، الولد ، الزوج ، الجار ، الشريك . يكونون منزعجين أو قلقين وفي ضيقٍ من هذا التدخّل المؤلم منذ الصباح حتى المساء يلامسهم ويخدشهم . وعلى الرغم من ذلك كلّه لا يبدو أنّ الإنسان يفكّر بعمقٍ في هذا الموضوع . الحياة تُعمي ، وتجعل الإنسان منشغلاً ومنهمكاً بتسقّط عثرات الآخرين . لا يجد الإنسانُ الشوكَ الذي في نفسه ، بل يرى دائماً الأشواك الموجودة لدى الآخرين .

لقد حاول سعدي ، في لغة مبسّطة ، أن يقدّم للإنسان يد المساعدة من أجل الارتقاء بشخصيته في تلك الخاصّية الزهريّة ، لضبط هذه الشخصية التي خُلقت لتكون زهرةً ، ولمساعدتها . لقد كان شغلَه الشاغل طوال حياته أن يعلّم الإنسانَ كيف يمكن أن تتحوّل الحياةُ إلى زهرة . سمّى دواوينه « كُلستان » ، التي تعني حديقة الورد ؛ و « بوستان » ؛ أي مكانُ كلّ أنواع الشّذا ، مكان الشّذا .

وفي هذا حاول أن يوضح للإنسان كيف يمكن أن يتحوّل القلبُ إلى وردة . والحقّ أنّ القلبَ وردةٌ ، إنّه مصنوعٌ ليكون وردة ، إنّه مخلوق لينشر عبيرَه ، وليس إلاّ أن يهذّب الإنسانُ قلبَه ويَعتني به ، حتّى يُظهِر هذا القلب رهافةَ الوردة وجمالها وشذاها ، وتلك هي غاية حياتك .

ليس في شعر الشيخ سعدي إلغازٌ ، بل إنه حافلٌ بالفطنة والعقل ، وهو في الوقت نفسه مبتكر وأصيل ، والملمح الأكثر روعة الذي يراه المرءُ في شعر سعدي هو اتجاهه العقليّ الفَكِه . فسعدي مستعدّ للنظر إلى الجانب المضحك للأشياء وليسلّي نفسه ويستمتع . وقليلون جدًّا منا يعرفون ما يعنيه المرحُ الحقيقيّ الصادق ـ التفكّه الذي لا ينحدر إلى الابتذال ، الذي لا يبلغ حدّ السِّباب . مثل هذا المرح يُري إيقاع الرّوح ونغمه العميق . والحياة من دون فكاهة معتمةٌ وكئيبة . والفكاهة هي انعكاس لتلك الحياة الإلهيّة والشمس التي تجعل الحياة نهاراً . والإنسانُ الذي يعكس الحكمةَ الإلهية والفرح الإلهيّ يزيد في التعبير عن فكره عندما يعبِّر عن فِكره بمرحٍ وبهجة .

في أحد الأيام كان سعدي جالسًا في دكّان ورّاق يبيع الكتب ، حيث تُباع كتبُه ، كان البائعُ غائبًا عندما دخل أحدُهم وطلب أحدَ كتب سعدي ، غير عارف أنه كان يتحدّث مع سعدي نفسه . سأله سعدي : « وماذا تحبّ في كتب سعدي ؟ » ـ فأجاب : « نعم ، هو رفيقٌ مُسَلٍّ » . وقدّم له سعدي الكتابَ هديّةً ، وعندما همّ بدفع القيمة قال له سعدي : « لا ، أنا سعدي ، وعندما قلتَ عنّي إني رفيقٌ مُسَلٍّ ، أعطيتَني كلّ مكافأة أتمنّاها » .

أراد سعدي للحياة أن تكون فرحةً . والرّوحانية ليست في الوجه الطويل والتنهّد العميق . لا شكّ في أنّ هناك لحظات يتعاطف فيها الإنسانُ مع أحزان الآخرين . ثمّة لحظاتٌ تدفعك إلى الدموع ، وثمّة أوقات يتحتّم فيها عليك أن تلتزم الصمت . لكنّ ثمّة لحظاتٍ أُخرَ تستطيع فيها أن ترى الجانبَ الضاحك من الحياة وتستمتع بأشيائها الجميلة . لا يُولد الإنسانُ في هذه الدنيا من أجل الكآبة والغمّ . إنّ وجوده الحقيقيّ سعادةٌ ، الحزنُ شيءٌ غير عاديّ . ولا أعني بهذا أنّ الحزن ذنبٌ أو ألَمٌ ينبغي تجنّبها دائماً .

علينا جميعًا أن نجرّب الأمرَيْن كليها في الحياة ، علينا أن نحقّق هدفَ الحياة . ليس في مقدورنا أن نظلّ دائماً مبتسمين . وليس ثمّة ارتقاء روحيٌّ في تجاهل أيٍّ من جوانب الحياة . الرّوحانية ماثلةٌ في كلّ جانب من جوانب الحياة . ولأنّ الإنسان غيرُ مقيّد ، فليس ثمّة جريرة في أن يقف وسْطَ الحياة . لا يحتاج الإنسانُ إلى أن يذهب إلى الغاب ، بعيدًا عن الناس جميعًا ، لكي يُظهر خيريّته وفضيلته . فأية فائدة لخيريته وفضيلته إذا دفن نفسه في الغاب ؟ وصحيحٌ في غمار الحياة أنّ علينا أن نرتقي وأن نعبّر عن كلّ ما هو جميلٌ وكاملٌ وإلهيّ في نفوسنا .

أظهر سعدي فِكرًا رائعًا في عمله المسمّى « كلستان » ، وبكلمات بسيطة . يقول سعدي : « كلُّ نفسٍ أُريدَ منها هدفٌ معيّن ، ونورُ ذلك الهدف أُشعِل في تلك النفس » . إنها قصيدة قصيرةٌ ، لكنها في وزن كتاب كامل . علامَ يدلُّنا هذا ؟ على أنّ العالم في جملته مِثْلُ سيمفونية واحدة ، وأنّ الأشخاص جميعًا مثلُ نغماتٍ مختلفة . ونشاطاتُ هؤلاء الأشخاص متناغمةٌ مع إيقاع هذه السيمفونية ، وحيواتهم يُراد منها أن تكمل هذه السيمفونية .

والناسُ توّاقون لعمل شيءٍ من الأشياء ، وينتظرون لسنواتٍ وسنوات ، مغتمّين ، يائسين ، ينتظرون مجيء تلك اللحظة . ويبيّن هذا أن النفس تعرف فيما تحت وَعْيها

أن ثمّة نغمة ينبغي أن تُعزف ، وفي اللحظة التي ستعزِف تلك النغمةَ ستكون تلك النفسُ راضيةً . وعلى الرغم من ذلك تظلّ النفسُ تجهل ماهيّة تلك النغمة ، واللحظة التي ستعزفها فيها .

ما الحياةُ ؟ وما الذي يُلزِمنا بالعيش في عالم التقييد هذا ، عالم التغيّرات المستمرّة ، العالم المملوء بالكذب ، العالم المملوء بالألم والقلق ؟ إذا كان ثمة أيُّ شيء في هذا العالم يبقينا أحياءً ، فإنّه الأَمَلُ . الأملُ ، عسَلُ الحياة .

ليس في هذا العالم نفسٌ تقول : « الآنَ ، أنا راضيةٌ ؛ ليس لديّ رغبة أبعد » . في كلّ منّا ، أيّا كان وضعه في الحياة ـ غنيّ جدًّا أو ثريّ جدًّا ، صحيح الجسم تمامًا أو مريض ـ في الأحوال جميعًا ، يظلّ الإنسان توّاقًا ومنتظرًا لشيءٍ آتٍ ، وهو لا يعرف ما هو ذلك الشيء ، لكنّه ينتظره .

التفسيرُ الحقيقيّ للحياة هو الانتظارُ ، انتظارُ شيء . أمّا ما هو ذلك الشيء ؟ فإنّه تنفيذُ هدف الحياة ، الذي يأتي عندما تعزف النفسُ تلك النغمة ، تلك النغمةُ التي يُراد لها أن تكون نغمته . وهذا ما يبحث عنه ، سواء أكان ذلك على المستوى الخارجيّ أو المستوى الدّاخلي . ولن يكون في مقدور الإنسان أن يحقّق هدف حياته حتى يعزف تلك النغمةَ التي هي نغمتهُ . ولعلّ أعظم مأساةٍ في الحياة مأساةُ غموضِ الهدف . وعندما يكون الهدفُ غير واضحٍ يتألّم الإنسانُ ، لا يستطيع التنفّس . ذلك أنه لا يعرف ماهيّة الهدف ، لا يعرف ما ينبغي عليه أن يفعله .

هذه الحياةَ ستزوّد الإنسانَ بالأشياء التي ستفيده في اللحظة التي هو فيها ، لكنه في اللحظة التي يمتلك ذلك الشيءَ سيقول : « لا ، ليس هذا ما أريد ، إنّه شيءٌ آخر » . هكذا يواصل الإنسانُ حياته ، في الوَهم ، يبحث باستمرار ، غيرَ عارفٍ ما يبحث عنهُ . وسعيد جدًّا ذلك الذي يعرف هدفَ حياته ، إذ إنّ ذلك يمثّل الخطوة الأولى للتنفيذ .

ولكن كيف يمكننا أن نعرف هدف حياتنا ؟ هل من أحدٍ يخبرنا بذلك ؟ لا .

ليس في مقدور أحدٍ أن يخبرنا . لأنّ الحياة في جوهرها كشْفٌ ذاتيّ ، وسيكون خطأ كبيرًا لنا إن نحن لم نكن منفتحين على ذلك الكشف الذي تقدّمه لنا الحياة . ليس خطأ الحياة ؛ لأنّ الطبيعة الحقيقية للحياة أنها كشفٌ . الإنسانُ ابنُ الطبيعة ، ولذلك فإنّ هدفه يكون في الطبيعة . لكنّ زيف الحياة يبعث الغموض ، الذي يمنعه من بلوغ تلك المعرفة التي يمكن أن تسمّى كشف روح الإنسان الخاصّ .

وإذا ما سألتَني كيف ينبغي أن يتقدّم الإنسانُ ، فسأنصحُك بدَرْس أي شيءٍ ـ سواء أكان زائفًا أو صادقًا ـ يشدّك ويجتذبك ، أيّ شيء تُجْذَب إليه خارجيًّا وداخليًّا . ولا تكن شاكًّا ولا مرتابًا . ما علّمه السيّد المسيح منذ الصباح حتى المساء كان الإيمانَ ، لكن تأويل هذه الكلمة لم يُوضَح . قال بعضهم هو الإيمانُ بالكاهن ، أو بالكنيسة ، أو بالطائفة . ليس ذلك هو المعنى .

المعنى الحقيقيّ للإيمان هو الإيمان بالنفس . جاءني شخص فقال : « أريد أن أعتنق أفكارك ، فهل تقبلني ؟ ـ هل لك في أن أتّبعك ؟ » . قلتُ : « نعم ، ولكن هل لك أن تخبرني عمّا إذا كان لديك إيمان ؟ » . بدا مرتبكاً للحظةٍ ؟ ثم قال : « نعم ، لديّ إيمانٌ بكَ » . سألتُه : « هل لديك إيمانٌ بنفسك ؟ » . قال : « حسنًا ، لستُ متأكدًا » . قلتُ له : « إيمانُك بي لن يفيدني ، ما أحتاج إليه هو إيمانُك بنفسك » .

أيها الأصدقاء ، ما ينبغي أن نتعلّمه في الحياة ، هو قبل كلّ شيء أن نثق بأنفسنا . هذه النزعة العقلية المتذبذبة ـ إن كنت أنا أو إن لم أكن ؛ سواءٌ أكانت حسنةً أو سيّئةً ـ تُبقي الإنسانَ في ارتباك . ولسنواتٍ ربما يكون لدى الإنسان أفضلُ المقاصد والنيّات ، لكنه سيظلّ في المكان نفسه . لن يتقدّم ، لأنّ ارتباكه سيشلّ ساقَيْه . سيعتقد أنه يتقدّم ، ولكنه سيكون باقيًا في المكان نفسه الذي يقف فيه .

على الإنسان أن يمتلك المبادرة initiative . وهذه هي الكلمة التي تجيء منها كلمة بَدْء initiation . مَن المبادر ؟ ـ إنّه الشجاع الجريء . ومن هو الشجاع والجريءُ ؟ إنه

الإنسانُ الذي يثق بنفسه . فإنّ إيمانه بنفسه هو وحده الذي يكون ذا فائدةٍ له أو للآخرين .

يقول الناس : « إنّ بسيطي الإيمان والثقة بأنفسهم يتألمون كثيرًا وينتهون إلى الفشل » . أما أنا فسأقول : لا ؛ لأنّ ما يُكتسب أكثرُ كثيرًا مما يُخْسَر . وابتغاء تقوية الإيمان على المرء أن يواجه بعض صور الإخفاق . وأفضِّل الإيمانَ وأن أُعامل بسوءٍ على عدم الإيمان . إنّ القوة التي يحبونا إياها الإيمانُ والثقةُ هي القوة الإلهيّة ، الإنسان الذي يثق بالآخرين من زملائه يبعث الثقة في الآخرين . في مقدوره أن يُظهر أنه سيُحوِّل ما هو غير جديرٍ بالثقة إلى ما هو جدير بالثّقة ، وبالثقة الكافية في قلبه ، يستطيع أن يظهر القدرة على فِعْل هذا .

وإنّي أتذكّر دائماً الدّعاءَ الذي تلقّيتُه من سيِّدي ، من معلِّمي وشيخي . كان هذا الدعاء : « قوّى اللهُ إيمانَك » . وإذْ كنتُ حدَثَ السنّ ، تعجّبتُ من أنه لم يقل شيئًا عن السعادة ، أو العمر الطويل ، أو الثراء ، لقد تعلمتُ الآن أن أفهم معنى ذلك الدّعاء ، وأزداد فهماً له كلّ يوم . كلّ النِّعَم التي يحصل عليها الإنسانُ في الحياة ، كلّ ما في السموات والأرض ، يمتلكه الإنسانُ عندما يقوى إيمانُه .

ونحن نقرأ كلّ يوم في الكتب المقدّسة عن « الإيمان » ، لكنّه ما أقلَّ ما نثق بهذا الذي نقرأ ، وما أكثر الذين بدؤوا يسخرون منه في الوقت الحاضر . فالإيمان الذي تقدّمه هذه الكتب لا يُنتبه إليه . إنّه شيءٌ لا يجلب له شيئا . إنّه بسيطٌ جدًّا ومع ذلك معقّد جدًّا . إنه معجزة ، أعجوبة . كلُّ ضعفنا ، كلُّ إخفاقنا ، كلُّ تقييدنا ، كلُّ ألمنا ، تأتي من افتقارنا إلى تلك المادّة المسمّاة « الإيمان » . وكلّ نجاحٍ ، وسعادةٍ ، وتقدّم ، كلّ ما يحقّقه الإنسان من مآثر ، الفضلُ فيه راجعٌ إلى الإيمان .

وأعمالُ سعدي منذ البَدْءِ تعلِّم الدّرْسَ الأوّل في الإيمان ؛ في إدراك أننا لم نأتِ إلى هذا العالم عَبَثًا ، لنخرّب حيواتنا . نحن هنا لهدف ، وكلّ منّا إنما جاء لهدفٍ خاصّ .

كلٌّ منّا يصنع ذرّةً في هذا الكون ، ويُكمل السيمفونية ، وعندما لا نعزف نغمتنا ، فإنّ هذا يعني أنّ ثمّة نغمةً ناقصةً في سيمفونية « الكلّ » . وعندما لا نحقّق هدفَ حياتنا على هذا النحو ، هذا الهدف الذي خُلِقنا من أجله ، فإننا لا نحيا حياةً صحيحة ـ ومن ثمّ لا نكون سعداء .

تعتمد سعادتُنا على أن نحيا على نحو صحيح ، والحياةُ الصحيحة تعتمد على عزف تلك النغمة ؛ وتحقيق ذلك الهدف موجودٌ في كتاب قلبنا . افتح ذلك الكتاب وانظر فيه .

إنّ كلّ تفكّر ، وكلّ تركيز وتأمّل روحيّ ، يتمثّل فحسبُ في أن نفتح هذا الكتاب ، وأن نركِّز عقلنا ، وأن نرى ما هدفُ حياتنا . وما إن ندرك أنّ هدفنا النهائيّ وغايةَ حياتنا وسعادتها ، وصحتنا وخيرنا الحقيقيّين ، وغنانا ورخاءنا الصحيحين ، إنما تمثّل في تحقيق هدفنا ـ ما إن ندرك ذلك حتى يتغيّر اتجاه الحياة كلُّه .

مدخل المترجم

سعدي : الزوجة وعشٌّ الزّنابير

وُلِد سعدي في شيراز حوالي سنة ١٢٠٠م ، وتوفي هناك سنة ١٢٩٢م . وكثيرًا ما يصف كتّابُ السِّير في الأدب الفارسيّ حياة سعدي المديدة بأنها مرّت بثلاث مراحل متميزة : الخمسُ والعشرون سنةً الأولى أمضاها في التحصيل والتعلّم ، الثلاثون سنة اللاحقة في الأسفار البعيدة ، الثلاثون سنة الأخيرة في التأليف والعزلة الروحية « الدَّرْوشة » . اشتهر بين الناس بـ « شيخ سعدي » ، ممّا يؤكدّ أن طائفة من التلاميذ والمريدين كانت تتحلَّق حوله في المرحلة الأخيرة من حياته .

حظي سعدي بشهرة واسعة بسبب مجموعتين من القصص والأحاديث الأخلاقية ، وهما : « كلستان » (بمعنى حديقة الورد) و « بُستان » (المكان الذي تزرع فيه الخضر ، أو مكان الرائحة) . وأسلوب سعدي أكثر ظَرْفًا وتعليمًا من الشعراء الآخرين في هذه المختارات . وهو لا يعمل على حافّة النشوة الصوفية . إنه واقعيّ ، داخلٌ بقوة في منطقة السلوك . ماذا يمكن أن تفعل بعُش زنابير في البيت ، أو في موضعٍ قريب منه ، وزوجٍ عاطفيّة لا تريد أن تُزعجها . العالَمُ الذي يقيم فيه محدّدٌ أكثر منه عالمًا قائمًا على الانجذاب والوَجْد الصوفيّ . والمخادِعُ نصْرُ الدّين يوجّه هذه الحكايات أكثر من الخَضِر ، دليل الأرواح . ثمّة توجيهٌ وإرشادٌ ، لكنّه يقدَّم على نحو مُسَلٍّ . كان سعدي يجلس مرة قريبًا من دكان صغير لبيع الكتب ، إذ اقترب رجلٌ وسأل عن أحد كتب سعدي . قال سعدي من دون أن يعرّف نفسه : « ماذا تحبُّ في هذا المؤلّف ؟ » . أجاب : « إنّه رجلٌ مُضْحِك » . سُرّ سعدي بهذا التقييم وقدّم الكتابَ للرجل هديّةً .

وهذه الاختيارات استُمدّت كلّها تقريبًا من ترجمات جيمس روسّ في أوائل القرن التاسع عشر. كان روس جرّاحًا عسكريًّا مستقرًا بالقرب من مدينة كَلَكُتّا. وعلى غرار ستيفنسن في سَنائي وكلارك في حافظ، كان روس عسكريًّا إنجليزيًّا مقيمًا في الهند وعالمًا بالشعر؛ وهي ثنائية غريبة في زماننا، لكنها ليست ذلك الشيء غير المألوف إبّان الحكم البريطانيّ للهند. وانطلاقًا من الانضباط والحماسة المعهودين في النظام التعليمي الإنجليزي، مارسوا بقوة، في حرارة الهند، حبّهم العنيد والقاسي للشعر الصوفيّ الفارسيّ. أمّا الصعوبات التي اكتنفت جهودهم فيمكن تمثّلها من حقيقة أنّ الدكتور روس عاد مرّةً إلى بريطانيا في إجازة، وقد استغرقت رحلةُ العودة إلى الوطن أحد عشر شهرًا! وأنا أحيّي هؤلاء الأجداد العنيدين مع الإقرار بفضلهم العظيم: اللّواء ستيفنسن في الخدمة الطبية الهندية Indian Medical service، والمقدَّم هـ. ولبرفورس كلارك في The Bengal Laneers، والطبيب الجرّاح الكبير في الفوج الثامن عشر، كتيبة المشاة القومية، في دنيابور، جيمس روس.

سمعتُ مرّةً عن رجلٍ تعلّم كيف يكون زوجًا جيدًا وربّ أسرة ناجحًا . بَنَتِ الزنابيرُ عُشّها تحت سقف منزله ، لكنّ زوجَه لم تسمح له بأن يتخلّص منها . « مخلوقات فقيرة ، وهي محتاجةٌ إلى بيتها الصغير » . وفي يوم من الأيام لسَعَتْها الزنابيرُ بجانب الباب في الزُّقاق . صرخت مستنجدة ، فأجابها زوجُها : « لقد قلتِ إنّ الزنابير المسكينة لا تؤذي » . احذري شفقتَك ، واعلمي أنّ العَطْفَ على العسّاس لا ينشأ عنه سوى كثرة اللّصوص ، وإذ ذاك لا يرتاح أحدٌ .

رجلٌ أعزلُ تمامًا وليس عنـده أدنى متـاع ، انضمّ إلى قـافلتنـا في طريق حجّنـا إلى مكّة . كشف الرّجلُ عن نفسه قـائلاً : « لست سيّـدًا على أحـدٍ ، ولا أحـد سيّـدٌ عليّ . ما عندي راحلـةٌ ، ولا أحمل أمتعـة . لا تشغلني انتصـاراتُ المـاضي ولا أحزانُ المستقبل . أتنفّس الحرية الصافية في حيـاتي البسيطـة » . رجلٌ ثري يمتطي جملاً علّق على كلامـه قائلاً : « أيّها الدّرويش ، لن تعبر الصحراء ، فعُدْ إلى المـدينـة » . لكنّ الرجل الأعزل قطعها على القدمين في نُجعة اللّيلة الأولى ، في حين أنّ الرجل الغنيّ الـذي يمتطي الجملَ مات على نحو مفاجئ في نومه في تلك اللّيلة نفسها . ثم هنـاك مثَلُ الرجلُ الـذي جلس طوال اللّيلة ينوح بجانب سرير صديقـه المريض ثم توفّي في اليوم اللاّحق ، بينمـا شُفي المريض . كثيرٌ من الخيول السريعة تنفُقُ في الطريق ، بينمـا يتهـادى الحمـارُ الأعرجُ في الطريق إلى البيت .

كان عند رجل زوجةٌ جميلة توفّيت ، لكنّ حماتَه ظلّت تعيش في البيت ، مـدّعيـةً حقّها في مَهْر ابنتها ، جاء بعضُ الأصدقاء لمواساته والتخفيف عنه . « كيف الحـالُ منـذ أن ودّعتَ الزوج العزيزة ؟ » ـ أجاب : « إنّ غياب زوجتي لا يَعْدِلُ في صعوبته وجودَ أمّها . لقد فصلوا الوردَ عن الشّوك ، وأخذوا الكنزَ وتركوا لي الثعبانَ » .

وضعوا غرابًا في قفصٍ مع ببغاء ، وكلاهما كان ساخطًا . صاح الببغاء : « أين وجدوا مثلَ هذا المخلوق البشع ! » . كان الغرابُ يقول في نفسه : « أيّ ذنبٍ اقترفتُ حتى أستحقّ صحبة هذا الأحمق الثرثار المغرور ؟ » . أحكي هذه الحكاية القصيرة لأبيّن أنّ شعور العلماء النفّاجين إزاء بسطاء المعرفة شعورٌ متبادل تمامًا . في وقتٍ من الأوقات التقى ناسكٌ متحلّ بجماعة من الشعراء الجوّالين . بدأ شاعرٌ ساحرٌ من بَلْخ بالقول : « مرحبًا أيّها التقيّ العزيز . أستطيع أن أؤكّد أنّك تكرهنا ، ولكن أرجو ألا تتجهّم ، فقد بدوتَ من قبلُ عدوانيًّا على نحو كافٍ .

سألتُ أحد الفقهاء عن معنى الحديث النبويّ الذي يقول : « أعدى أعدائـك شهوةُ الجماع التي بين جنبيـك » . فـأجـاب : « السببُ أنّ أيّ عـدوّ عـاديّ تعـاملـه بلطفٍ سيتحول مع الزمن إلى صديق ، إلاّ شهوة الجماع . فكلّما دلّلتها واسترضيتها انحدرتْ بـك إلى الحضيض . ولا بـدّ من التـأديب القويّ لإيقـاف ذلـك العـدوّ المستـأسِـد عن الفَتْـك بك » .

كانت زوجُ أحد الدراويش حاملاً ، وقد اكتمل أمدُ حملها تقريبًا . دعا ربَّه قائلاً : « إن رزقني الله ولدًا ذكرًا فسأنفق كلَّ ما أملك على الفقراء ، إلاّ هذا الثوبَ الخَلَق الذي أرتديه » . وقد تحقّق هذا . فقد وضعت الزوجُ ولدًا ذكرًا ، وأقام الدّرويشُ وليمةً عظيمة احتفالاً بوفاء نَذْره . وبعد ذلك بسنوات ، كنتُ في طريق عودتي من سوريا عندما مررتُ ببيت أحد الأصدقاء وسألتُ عن الدرويش . « إنّه في السجن » . « كيف حدث ذلك ؟ » . « سَكِر ابنُه ، فقتل رجلاً في عراكٍ ، ثم فرّ من المدينة . وعندما يحدث مثلُ ذلك ، كما تعلم ، يُوضع الأبُ في السجن » . وهكذا هو يجلس في السجن ويضع طوقًا من الحديد حول عنقه ، وقد جرّ هذا على نفسه بدعائه ! . ولو قُدِّر أن يكون الولدُ حيَّةً لكان ذلك خيرًا من هذا الابن العاقّ الذي لا يتحمّل نتائج أعماله .

مللتُ صُحبةَ أصدقائي في دمشق ، فخرجت للاستجمام في البرّية حول القدس ، حيث أسرتْني جماعةٌ من العمّال الإفرنج وشغّلتني في حفر الخنادق . وفي تلك الأثناء رآني أحدُ أفراد الطبقة الحاكمة من أهل حلَب ، صديق قديم ، فأشفق عليّ وأعتقني من الأسْر بعشرة دنانير . أعادني إلى حلب وزوّجني ابنتَهُ ، التي انقلبت بسرعةٍ إلى حيزبون ذات لسان لاذع ، وهو أسوأ حظّ يمكن أن يجري لإنسان ! سألتُ صديقي : « هل سمعتَ بحكاية الرجل اللّطيف الذي حمى خروفًا من الذئب وفي تلك الليلة فصَلَ عنقه في السقيفة ؟ » .

حدث في بغداد أن زوّج رجلٌ متقدّم في السّن ابنتَه من إسكافٍ . وفي ليلـة العُرْس عضّ الإسكافُ المنتشي شفة الفتاة حتى أدماهـا . وفي الصبـاح الآتي رأى الأبُ الجرحَ ، فقـال للرجـل : « أمن الضروريّ أن تعضّ أسنـانُـك ابنتي مثلمـا تفعـل بجلـد الحـذاء ؟ ـ لا تعتدْ على هذا ! أنا لستُ مازحًا . عندما تحدث معاكسةٌ أثناء الجماع لا يزيل آثارها إلاّ الموتُ » .

سمع ملِكُ العرب بقصّة المجنون وحبّه ليلى ، فدعاه إلى قصره . ثم سأله : « ماذا رأيت فيها حتى صِرْتَ تنسى نفسَك وتجرح يدك عندما تقشر برتقالة » . أجاب المجنون : « كثيرون سألوا هذا السؤال ، ولكن حبّذا لو أمكن أن تراها .. » ، فتّشَ الملكُ وجيء بليلى ، كانت ناحلةَ الجسم سمراءَ ، أقلّ جاذبيّة من أقلّ جواريه إشراقًا . قال المجنونُ : « آه ، ينبغي أن تراها من نافذة عينيّ ، فثمّة فرقٌ كبيرٌ بين أن تُمسك شيئًا من الملح بيدِك وأن تضعه على الْجُرْح » .

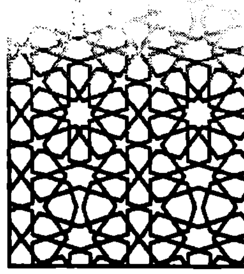
دخل أحدُهم المدينةَ مع قافلة قادمة من الجنوب ، كان مجدولَ الشعر ، وزعم أنّه من آل البيت وأنه عائدٌ لتوّه من مكّة . أنشد الملكَ قصيدةً محكمة ، قصيدة يمدح بها الملكَ ، الذي أعجبته كثيرًا . خلع الملك على الشاعر التقيّ الهدايا وعامله باحترامٍ كبير . ثم إنّ واحدًا من رجال القصر عائدًا من رحلة في البحر قال : « رأيتُ هذا الرجلَ شمال هذه البلاد في البصرة ، في عيد الأضحى السنويّ . ولا يمكن أن يكون قد كان في الحج » . تذكر شخصٌ آخر فقال : « نعم ! وأبوه كان نصرانيًّا من مالطا . وهو ليس من عِتْرة عليّ » . وقد وجدوا القصيدة في ديوان الشاعر أنوري . أمر الملِكُ أن يُحضَر . « قبل أن أنفيَك ، أسألك سؤالاً واحدًا : لِمَ كذبتَ على هذا النحو الفاقع ؟ » .

« يا مليكَ الدنيا ، سأقول قصيدة أخرى ، فإن وجدتَها مدّعاةً فسأقبل أيّة عقوبة تقولها » . « ابدأ » . « إذا أتاك فلاحٌ مسكينٌ بكوبٍ من اللّبن المخيض ، فسيكون ثُلثاه ماءً ، وإذا افتخر خادمك بمغامراته ، فعليك أن تتوقّع ذلك من جوّالي العالم ورحّالته !» . أعطى للمحتال مُؤَنَ السّفر ، وانصرف الباقون بسلام .

مَن نَصَح مغرورًا احتاج هو إلى النُّصْح .

حدثَ هذا عندما كنتُ شابًّا ، المرحلة التي ينبغي أن تكون مررتَ بها . كان لي صديقٌ نديُّ الصّوت كالنّاي ، ووضيء المحيّا كالفضة ، لكنّ شيئًا في سلوكه ، لا أتذكّره ، أزعجني ، ثم إنني كظمت غيظي . « أنت لا تسمع منّي فاذهبْ واسلك الطريقَ الذي تشاء ». وعندما انصرف سمعتُه يقول : « إذا كان الخفّاشُ لا يستمتع بصحبة الشمس ، فهل تقلّل الشمسُ من إشراقها ؟ » . شعرتُ حالاً بأنني لا أريد ذهابه ، لكنني لم أدعُه إلى الرجوع . سار في الأرض لسنواتٍ ، وعاد أخيرًا وقد صار صوته الطليُّ أجشَّ ، ووجهه اليوسفيّ غشّاه سوادُ اللّحية . « رحلتَ ظبيًا أنيقًا ، ثم عُدتَ كأنّك نَمِرٌ مُسِنّ » . هذه حكايةُ انقضاء الشباب . ليس ثمة تحكّم بالكيفية التي يذهب فيها . « ماذا حلّ بجمالك ؟ » . « ارتدى السّوادَ ، هذه اللّحية ؛ لينوح على رحيلهِ » .

في إحــدى اللّيــالي كنتُ أفكّر فيما فعلتُــه في الخمسين سنـــةً من عمري ، وأبكي في البرّيّة . في كلِّ لحظةٍ يخرج نَفَسٌ لن يعود . النعاسُ الساحر في الصباح يمنع المسافرَ عن السّفر . كثيرون أولئك الذين خططوا لبيتٍ فإذا هم يَدَعون البنـاء لجيلٍ آتٍ . رأيتُ أنّ تـأجيلي يمكن أن يــدوم لآلافٍ من السنين . صمّمتُ على أن ألـوذ بــالصّمت ، وقــد فعلتُ . لكنّ صديقًا قديمًا جاء إلى معتزَلي المقدّس الخفيّ وطلب أن أسهر اللّيل كلّه معه أقصّ القِصَص . « البطلُ عليٌّ لا يترك سيفَه في الغِمْـد ، وكـذلـك سعـدي ، المتحـدّث المِنْطيق ، ينبغي أن يتحـدّث » . كان ذلـك في الأوّل من نيسـان (إبريـل) ، وكانت الحديقةُ صاخبةً ونفّـاذة العبير في كلّ مـا هو حولنـا إلى حـدّ أنّي استسلمتُ وعنـد الفجر قلتُ : « أتمنى لهذه الأزاهير ولهذه الأحـاديث أن تظلّ مزهرةً على الـدّوام » . وعنـدمـا قلتُـه خطرتْ لي فكرةُ كتـابٍ سيُسمّى « حـديقـة الـوَرْد » ، المكان الـذي تتفتّح فيـه الأزاهير طوال العام .



حافظ : التحوّل الرّائع

خواجة شمس الدّين محمّد حافظ

أحبّاءَ الله ،

يـدور خطـابي اليوم حـول مـوضـوع حـافـظ ، الـذي يعرف اسمَـه كلُّ مهتمٍّ بشعر فارس ؛ لأنه بين شعراء فارس يقف حافظ فذًّا في تعبيره ، وفي عمق تفكيره ، وفي روعة تعبيره الرمزيّ عن بعض الأفكار والفلسفات .

وقد أتى على الناس حينٌ كان فيه المفكّرُ العميق والمفكّر الحرُّ يجدانِ صعوبةً بـالغـةً في التعبير عن أفكارهمـا ، ولم يتوار ذلـك الزمـانُ تمـامًـا . لكنّ هـذا العصر يسمح ، من خلال بعض الوسائل ، بقَدْر من حرّيـة التعبير أكبر ممـا كان في الأزمنـة القـديمـة . وفي ذلـك الوقت ، فـإنّ كلّ من عبّر بحرّيـة عن فكره حول الحيـاة وقـانونهـا الخفيّ ـ حول الرّوح ، الله ، الخَلْق ، التجلّي ـ لقي عنَتًا كبيرًا .

وقـد تمثّلت الصعوبـةُ في أنّ السُّلطـات الـدينيـة بضروبهـا المختلفـة كانت على قَـدْر كبير من النفوذ ، وتحت السلطان الدينيّ حُكِمت مبادئ الدّين البسيط . ولذلـك فـإنّ أولئك الذين اجتذبهم الجانبُ الخاصّ من الفلسفـة وجـدوا دائمًـا صعوبـةً في إيصـالـه إلى الناس . اضطُهد الكثيرُ منهم ؛ رُجموا ، ضُربوا بالسّيـاط ، قُتِلوا . أُنزلت بهم كلّ صنوف العقاب ، وعلى هذا النحو أُعيق تقدّم الإنسانية . وفي الوقت نفسه ، فإنّ الموقف المحـدودَ للعقل الإنسانيّ في شؤون الدين والفلسفة يُوجَد في كلّ العصور .

والصوفيّون ، الذين وجدوا بطريق التأمّل مصـدرَ المعرفـة في قلوبهم ، كان صعبًـا جـدًّا عليهم أن يقـدّموا للعـالم بكلمـاتٍ سهلـة القليلَ الـذي يمكن أن يوضحوه في شـأن الحقيقة . صحيح أنّ الحقيقـة لا يمكن أن يُتحـدّث عنها بـالكلمـات ، لكنـه صحيح في

الوقت نفسه أنّ الموهوبين موهبـةَ التعبير الشعري والنبويّ وجـدوا في أنفسهم دائماً ذلـك النزوعَ القويّ إلى التعبير عن وَجْدهم الرّوحيّ .

وجد حافظُ طريقةً للتعبير عن تجربة روحـه وفلسفـاتـه في الشعر . يَسْعـد الرّوحُ بالتعبير عن نفسه شعرًا لأنّ الروح نفسَه موسيقا ، وعندمـا يجرّبُ تحقّقَ الحقيقة الإلهية يكون لديه ميلٌ إلى التعبير عن نفسه في الشعر . ولذلك عبّر حافـظُ عن روحـه شعرًا . ولكن أيّ شعر ؟ شعرٌ مملوءٌ بـالضّوء والظلّ ، بـالخـطّ واللّون ، شعر حـافلٌ بـالشعور . وليس ثمّة شعرٌ في العالم يمكن أن يقارن بشعر حافظ في رقّته .

إنّ الرّوح الرقيق وحده ، الروح الذي لديـه أدقُّ إدراكٍ للضوء والظلّ معبَّراً عنهما بـالكلمـات ، هو الـذي يستطيع أن يفهم معنى إشراق الروح . وفي الوقت نفسـه ، فـإنّ كلماتِ حافظ اجتذبت إليها قلوبَ الْمُصْغين إليها جميعًا . وحتى عندمـا لا يفهمون هـذه الكلمات الفهمَ التامّ ، فإنّ أسلوب التعبير وإيقاعـه وخِلابتـه وجمـالـه تستبـدّ بهم . إنّـه الأسلوبُ نفسه الذي يتبنّاه سليمان ، لكنّه استُخدمت فيه لغةُ عصر حافظ .

تحدّث حافظُ بلغةٍ أكثر ملاءمةً للشعر أو أكثرَ انسجامًا معه . وتُعدّ اللغةُ الفـارسيّـةُ في الشرق اللغةَ الأكثر رقّةً ، اللغةَ التي تحتلّ المنزلةَ الأولى بين لغات الشرق جميعًا . إنهـا لغةٌ رقيقة ، وتعبيرُها لطيف . إنهـا لغـة معبِّرة ، كل شيء ربمـا يكون لـه عشرة أسماء ، للشاعر أن يختار منها ما يشاء . والفكرة الصغيرةُ قد يعبَّر عنها بعشرين طريقـة تختلف كلٌّ واحدة منها عن الأُخرى ، وللشّـاعر حريّـة الاختيـار من بين تلـك الطرائق . ومن هذه الوجهة كانت اللغةُ الفارسيّة والشعرُ الفارسيّ ثريّين بالتعبير .

كانت رسـالـةُ حـافـظ أن يعبّر ، لعـالَم دينيٍّ نـزّاعٍ إلى التعصّب ، عن حضـور الله [سبحـانـه] ، الـذي لا يكون موجودًا في السماء فحسبُ ، بل يكون موجـودًا هنـا على الأرض .

كثيرًا ما كان الاعتقادُ الدينيّ بـالله وبـاليوم الآخر سببًـا في بقـاء الإنسـان نـائمًـا ،

منتظرًا مجيءَ تلك الساعة وذلك اليوم الـذي سيكون فيـه وجهًا لوجـهٍ مع ربّـه ، وهو متأكّد تمامًا أن ذلك اليوم لن يأتي قبل أن يموت . ولذلـك فـإنـه ينتظر موتـه على أمل أنّه في الآخرة سيرى الله ؛ لأن السماء وحدها هي المكانَ الذي يمكن أن يوجد فيـه اللهُ ، وليس ثمـة مكان آخر سيوجـد فيـه الله . وأن ليس ثمـة سوى مكانٍ واحـدٍ محدّدٍ يصلـح للعبادة ، هو الكنيسة ، وأنّ أيّ مكان آخر غير هذا المكان لا يوجد فيه الله .

كانت رسالةُ حافظ إلغاءَ هذه الفكرة ، وجعلَ الإنسان شـاعرًا بـالسماء من جـانبـه هو ، وإعلامَ الإنسان أن كلّ ما ينتظره في آخرته مكافأةً على حسن أعمالـه في الـدنيـا ، يمكن أن يلقاه هنا في هذه الدنيا ، إذا ما عاش حياةَ الكمال .

المثـلُ الأعلى نفسُـه الـذي يراه المرءُ في كلّ دين ، الــذي علّمــه السيّــدُ المسيـح ، والقائل : « اللهُ حُبٌّ » ـ ذلك المثلُ كان الفكرةَ الرئيسة لحافظ ، الفكرة التي ظلّ يعبِّر عنها طول حياته في الـديوان . إذا كان ثمة شيء إلهيّ في الإنسـان ، فـإنّـه الحبُّ . وإذا وُجد اللهُ [سبحانه] في مكان ، فإنّـه يوجـد في قلب الإنسـان ، الـذي هو حبٌّ ، وإذا ما أوقِظ عنصرُ الحبّ في القلب ، كان ذلك القلبُ مكانًا لله [سبحانه] .

لكنّ حافظًا في الوقت نفسه أظهر في شعره المفتاحَ لهذا ، وذلك المفتـاحُ هو تـذوّقُ الجمال في مجاليه جميعًا . والجمالُ لا يكون دائمًا في شيء أو في شخص ، ويعتمـد الجمـالُ على مـوقف الإنسـان من الحيـاة ، كيف ينظر الإنسـانُ إليهـا ، ويعتمـد تـأثيرُه على قـوة إدراكنا . فالموسيقا نفسُها أو الشعرُ أو الرّسمُ نفسه قـد يصل إلى شخصٍ فيُحسّ بجمالـه في أعمق أعماق كيانه ، وربّما يُعْرَض على شخص آخر ، فلا يرى فيه أثارةً من جمال .

والتجلّي التامّ له جماله : أحيانًـا يكون الجمـالُ ظـاهرًا لـك ، وأحيـانًـا ينبغي أن تنظر إليه . قد يجيء شخص خيِّر ، ونحن دائماً مأخوذون بسحر جمال الخير ، وقد يـأتي شخص آخر يبدو قبيحًا ، لكنّ الخيرَ يكون متواريًا في مكانٍ ما فيه ، إن كنّـا سنبحث عنه ، إن كان لدينا رغبة في تبيّنه . وليس القبحُ دائمًا في الأشيـاء والأشخـاص ، بل في نظَرِنا .

ويتّجهُ شعر حافظ كلُّه نحو إيقاظ ملَكة تذوّق الجمال وحبّ الجمال ، الذي هو الشرطُ الوحيد للإحساس بتلك السعادة التي تهدف إليها حياتُنا . سأل أحدُهم صوفيًّا عن سبب هذا الْخَلْق كلّه ، فأجابه : « إنّ الله ، الذي وجودُه الحبُّ نفسُه ، أراد أن يجرِّب ماهيّةَ وجوده ، وفي سبيل ذلك جلّى نفسَه » .

اللهُ نفسه [سبحانه] وتجلّيه ، الرّوحُ والله : هذا المظهر الثنائي يمكن أن يُرى في كلّ أشكال الطبيعة ـ في الشمس والقمر ؛ في الليل والنهار ؛ في الذّكَر والأنثى ؛ في الإيجابيّ والسّلبيّ ؛ وفي كلّ الأشياء ذواتِ الخصائص المتضادّة ـ من أجل أن يجد مبدأُ الحبّ هذا ، الذي هو المبدأُ الأصليّ والوحيد وراء التجلّي التامّ ، الجمالَ لظهوره التامّ . ولذلك فإنّ تحقيق غاية الحياة وهدفها يتمثّل في التعبير التامّ عن مبدأ الحبّ .

وكثيرٌ من الناس ، بسبب تعلّمهم الفلسفةَ ونظرهم إلى هذا العالم بفكر متشائم ، أنكروا العالم ووصفوه بأنه ماديّ وزائف ، ثم هجروا هذا العالم وذهبوا إلى الغاب أو الصحراء أو الكهف وعلَّموا مبدأ إنكار الذات وإفنائها . ولم يكن ذلك طريق حافظ .

قال حافظُ إنّ طريقته تُشبه الانطلاق برحلة فوق البحر ثم القدوم إلى ميناء جديد ، وقبل النزول إلى الأرض يصير المرءُ خائفًا ، يقول : « لكنّ الناس سيهجمون عليّ ؛ أو يجتذبني المكانُ فلا أستطيع العودة إلى المكان الذي جئتُ منه » . لكنه لا يعرف لِمَ قام بتلك الرحلة . وهو لم يقم بالرحلة ليعود من دون نزول إلى الأرض .

أما موقف حافظ فهو النزول إلى الأرض . المخاطرة في ذلك . فإن كان مكانًا جذّابًا فهو مستعدٌّ لأن يُجتذب . وإن كان سيُهلكه ، فهو مستعدّ لأن يُهلَك . وهذا موقف جريءٌ . لا يبتعد عن هذا العالم الوهميّ ، بل في هذا العالم الوهميّ يكتشف ومضاتِ الحقيقة . وفي هذا الذهول يجد مرادَ الله [سبحانه] .

يُضاف إلى هذا كشفٌ عظيم آخر وضعه حافظُ أمام الإنسانية في شكلٍ أكثر جمالاً . فهناك الكثيرُ من الناس في هذا العالم آمنوا ذاتَ يومٍ بالله ، برحمته وعطفه ، بحبّه

وغفرانه ، لكنهم بعد أن يُصابوا ، بعد أن يروا فواجعَ وظُلْماً ، يتخلّون عن إيمانهم . كثيرٌ من الناس بعد ألمٍ عظيم ومعاناة تخلّوا عن الدّين .

السببُ هو أنّ الدّين الذي اعتنقوه علّمهم الله في صورة الْخَيْر في صورة القاضي . ومن ثمّ فإنهم يطلبون من القاضي العَدْلَ . العدل الذي يُرضي فِكَرهم الخاصّة . وهم يعدُّون معيارهم في العَدْل معيار الله . وهم يطلبون الخيرَ على غرار ما يفهمونه . ولذلك يأتي وقتٌ للصراع في قلوبهم . فهم لا يرون العدلَ ، لأنهم ينظرون من زاوية نظرهم . وهم يطلبون الخير ، واللّطف والرحمة من وجهة نظرهم . وثمة ظروف كثيرة تجعلهم يتخيّلون أن ليس ثمة عدلٌ ، ليس ثمة شيء اسمه المغفرة .

أمّا طريقةُ حافظ فمختلفة . لا تكاد تجد اسمَ الله في الدّيوان ، وهو لا يعطي ذلك الإيمانَ بالله ، العدل والخير . اللهُ عنده هو محبوبه ، الذي سلّم له في حبّ وتفانٍ تاميّن . وكلّ ما يجيئه من الحبيب يأخذه بحبٍّ وإخلاص شديدٍ على أنه مكافأة . وهو يؤثر السُّمّ الآتي من يد الحبيب على الرحيق الذي يأتي من الآخرين . يُؤثر الموتَ على الحياة إذا اقتضت ذلك إرادةُ الحبيب .

لكنّك قد تسأل : « وهل هذا عادلٌ ؟ » . لا سؤال عن العَدْلِ حيث يوجد الحبُّ ، الحبُّ يعلو على القانون . القانون تحت الحبّ ، القانون يولد من الحبّ . الخطأُ في هذه الأيّام أننا نجعل القانونَ أعلى من الحبّ ، ونحن لا نرى أن المبدأ الإلهيّ ، الذي هو الحبّ ، يقف فوق القانون . الإنسانُ يجعل اللهَ قاضيًا يقيّده القانونُ ، لا يستطيع أن ينفّذ إرادته ، بل عليه أن يعمل وفاقًا لما هو مدوّن في كتابه .

الله [سبحانه] ليس العَدْلَ . العَدْل طبيعتُه ، لكنّ الحبّ مسيطر . ويعطي مثلَ هذه الأهمية لأفعال الإنسان ولنتائجها . لكنّهم لا يعرفون أنّ فوق الفعل والنتيجة قانونًا يمكن أن يستهلك نار جهنّم ، يمكن أن يحكم لو قُدّر للعالم كلّه أن يغرق في طوفان الدّمار ـ لأنّ قوة الحبّ أعظم من أية قوةٍ أخرى .

فكّر في أمر الدّجاجة عندما تعتني بصغارها ، فإذا ما هدّد هذه الصغار خطرٌ ، حتى لو كان حِصانًا أو فيلاً ، فإنها ستقاتل لأنّ مبدأ الحبّ غلاّب . الأمّ الحنونُ مستعدّةٌ لأن تصفح عندما يجيء ابنُها مطرقَ الرأس ويقول : « أمّاهُ ، لقد كنتُ أحمق ، لم أسمع منك ، لقد كنتُ وقِحًا ، أنا آسف » . هكذا نرى الرحمة والعطف يظهران في صورة الحبّ ، تيّارٌ من الحبّ يمكن أن يغسل كلّ أفعال الشرّ التي جاءت بها السّنونَ .

ومن ثمّ ، إذا كان الكائنُ البشريّ يستطيع أن يغفر فعليًّا ، ألا يستطيع الله [سبحانه] أن يغفر ؟ كثيرٌ من الأديان الْجَزْميّة استبعدت عنصر الحبّ الذي هو الغالب المسيطر ، الذي يجعل الله غير مقيّد ، وهي تؤمن بـ « الله » المحدود ، المقيّد بالكتاب ، الذي لا يستطيع أن يظهر حُنوَّه . ولو قُدِّر أن يكون اللهُ محدودًا لما أمكن أن يكون عادلاً ، سيكون الشخصُ أحسنَ ، لأنّ الإنسان يستطيع أن يغفر .

يقدّم حافظُ صورةً للطبيعة البشرية : الكراهية ، الحسد ، الحبّ ، اللّطف ، الغرور ، فعالية الدافع الودّي ، فعاليّة العُجْب والكبرياء : كلّ مظاهر الحياة . لم يكن حافظٌ شاعرًا ، إنّه رسّام بارع . لقد رسم صورة للمظاهر المختلفة للحياة . وكلُّ شعرٍ تصويرٌ . وفي كلّ صورةٍ ، أيًّا كانت ألوانها ـ الكِبْر ، أو العُجْب ، أو الغرور ، الحبّ أو الرحمة أو العطف ـ في كلّ أرديتها ، لا يرى إلاّ روحًا واحدًا ، روحَ المحبوب . وهو يُظهر إخلاصَه الشديد ، وتقديره وحبّه لكلّ تجليّات ذلك المحبوب الأوحد .

هناك الكثيرُ من الأديان والعقائد التي يُقال فيها إنّه سيأتي يومٌ يكون فيه الإنسانُ قادرًا على الاتصال بالله (سبحانه) . ولكن متى سيأتي ذلك اليوم ؟ العمرُ قصيرٌ ، وقلوبُنا جائعة جدًّا ، وإن لم يأتِ اليومَ ، فلعلّه لا يأتي البتّة . ولذلك فإنّ الشيء الوحيد الذي أوضحه حافظٌ من البدء إلى الختام هو هذا : لا تنتظر حتى يأتي ذلك اليومُ غدًا ، اتّصلْ بالمحبوب الآن ، هو أمامك هنا في صورة صديقك أو في صورة عدوّك ، مع كأس السّمّ ، أو مع الوردة ، أدركه واعرفه ، فإنّ هذا هدف الحياة .

وقد جعلت الأديانُ هذا أشبهَ برحلةٍ طولُها ملايين الأميال ، أمّا حافظ فقد جعله مباشرةً في اليد .

الإنسانُ يحب التعقيد . وهو لا يريد أن يتقدّم خطوةً واحدة ، وإنه لأكثرُ إمتاعًا له أن يجد أمامه ملايين الخطا . الإنسانُ الذي ينشُدُ الحقيقة يقع في حَيْرة وارتباك ، تلك الحيرة تُغريه . وهو يتوق إلى أن يدخل تلك الحيرة آلافَ المرّات . وكالأطفال تمامًا : ليس لهم همٌّ سوى الدّوران ، لا يريدون أن يروا البابَ فيخرجوا ، حتى ينهكهم التّعب ؛ وتلك حالُ الراشدين .

وذلك مبعثُ أنّ الصوفية جعلوا الحقائق العليا ألغازًا ؛ وذلك لتقدّم للقلّة التي تكون مهيّأةً لها ، وليدَعُوا الآخرين يلعبون ، لأنه الوقت الذي يلعبون فيه .

ومثلما أنّ مبدأ الحبّ ، وفقًا لفكرة الصوفية ووفقًا لفكرة كلّ الأنبياء والعارفين الذين جاؤوا دائمًا إلى هذه الدنيا ، هو المبدأُ الأوّل ، كذلك هو المبدأُ الأخير . وهناك رياضاتٌ متنوّعة « يوغات » مارسها الناسُ في الهند ، وهي الطّرق العقلية والعلمية والفلسفية والأخلاقية إلى الله ، لكنّ أروع طريقٍ إلى الله وجده الهندوس في أيّ وقت مضى ، وهو الطريقُ الذي يجعل الحياةَ كلّها جميلةً ، هو « بهاكتا يُوغا » طريق الإخلاص الشديد ؛ لأنه الطريق الطبيعيّ .

نزوع الإنسان وميلُه الفطريّ هو الحبّ ، فإذا كان باردًا فلأنّه يتوق إلى الحبّ ، وإذا كان حارًّا فلأن الحبّ حيٌّ ، وإذا كان الإنسانُ يعاني من الكآبة ، يتحرّق شوقًا أو يتنزّى أسًى ؛ فلأنّ مبدأ الحبّ غيرُ حيّ .

الحياةُ الوحيدة ، المعينُ الحقيقيّ للإلهام ، النجاة والتحرّر ، هي الحبّ . وبين تلك الأرواح العظيمة التي أتت برسالة الله [سبحانه] إلى الإنسانية من وقت إلى آخر - بوذا ، كرِشْنا ، السيّد المسيح ، موسى - إبراهيم ، زردشت - كانوا مشهورين بأنّهم الأكثر تعلّما ، وما تعلّموه ، تعلّموه من مبدأ الحبّ . ما عرفوه إنما هو الحنوّ ، والصّفح ،

والتعاطف والتسامح ، ذلك الموقف القائم على تقدير الأشياء حقّ قدرها ، ذلك الفتح للقلب على الإنسانية .

وإذا ما بدت الأديانُ معقّدةً ، فمرجعُ ذلك أنّه أضيف إليها . وفي الأحوال جميعًا ، فإن ما أتى به النبيّ كان بسيطًا ، وقد عُبّر عنه في شخصيته وفي حياته . وإنّ ذلك الأثر هو الذي بقي على مدى قرون بعد أن مضوا . وليس الميراثَ المكتوب الذي تركوه - فمعظم هذا الميراث من إنتاج تلاميذهم ، إنّه الحقيقة البسيطة التي تظهر في شخصياتهم وحيواتهم .

الخطأُ في هذا الزمان والعصر أنّنا لا نستطيع أن نفهم الحقيقةَ البسيطة ، الحقيقة مثلما تجلّت في أيّ مكان ، بدلاً من أن نحاول العثور على حقيقةٍ مغطّاةٍ بصَدَفة .

وفي الوقت نفسه يعلّم حافظٌ الإنسانَ أن يُبْصِر الحقيقة النهائية والعدالة النهائية في شيء واحد ، وهو الله [تعالى] ؛ وتلك العدالةُ لا توجد في الأشياء النّسبيّة ، الحقيقةُ التامة إنما تكون في الكلّية والشمول . وهو يوضح أنّ القوة التي تقف وراء التجلّي هي قوةُ الحبّ ، وأنّه بهذه القوة خُلق هذا العالمُ الكلّي . إنه مبدأُ الحبّ سواءٌ أَعَمِل من خلال المولى سبحانه أو من خلال الإنسان . وإذا ما كان هذا المبدأُ وراء الْخَلْق كلّه ، فإنّه المبدأُ نفسُه الذي يساعد الإنسانَ في تحقيق مقصود حياته .

مدخل المترجم

حافظ : التحوّلُ الرّائع

على مدى ستّة قرون لقي حافظٌ كثيرًا من اللّوم بسبب التناقض ، وبسبب الرشاقة الطائشة والمتملّصة التي ينصرف فيها على نحو مفاجئ من العميق إلى الهَزْليّ إلى العاطفيّ إلى التساؤل الهادئ الرّزين ، إلى كلّ الأشياء تقريبًا . وتفتقر قصائدُه إلى التلاحم ، وهي تئن تحت العصور . حتى إنه كان ثمة بعض الحديث عن تهديم قبره ، بسبب حياته المتحلّلة (وهذا جزء من تناقضاته) ، ومع ذلك عُومل ضريحُه بتبجيل عظيم كأنّ المكان ظفِر بقوى وَحْيِيّة أو نبوئية . وقد جرت العادةُ على أن يذهب الإنسان إلى ضريحه فيفتح ديوانه كيفما اتّفق ، ليرى فيه إجابةً عن تساؤله . وحافظٌ متاهةٌ مفعمةٌ بأنواع الغموض ، وهي تمثّله تمامًا ، ويصعب تصنيفه ، والكثيرون عاجزون عن تحمّل مثل هذا التنوّع الحقيقيّ .

ويرى فيه آخرون شاعرًا بارعًا وقاصًّا للحقائق ممتازًا . وعلى سبيل المثال ، فإنّ غُوته ـ الذي ربّما يُعدّ أعظم فنّان في الغرب ـ أحبَّ حافظًا ، رأى فيه « توأمًا » له . وحافظٌ عصيٌّ على الإدراك مثل الحبيب الذي يهتم به ، الحضور الذي يمْثُلُ في كلّ مكانٍ وليس في مكان ، الذي يكون حسّيًّا على نحو قسْريّ ، ورغم ذلك وراء الحواسّ ، وداخلها . قال مِهْر بابا (وكان حافظٌ شاعرَه المقدَّم) ـ : « بدلاً من اللؤلؤة الكامنة في أشعار حافظ ، يرى معظمُ النّاس المحارةَ فقط » . والمعاني الحقيقية لقصائد حافظ أثارت قدْرًا كبيرًا من الجدل ، مثلما يمكن أن يتوقّع المرءُ ، وقد اشتبك فيها الحِسّيّ والرّوحي على نحو يعزّ فيه الفصلُ بينهما . وهذا التوازن هو الذي يُعطي التأثير الممتاز . وتشكِّل القصيدةُ الغنائية عند حافظ ، بما فيها من رقةٍ ومتانة ، وخطر

بارع ، وبامتلائها بالعقل والتهتّك معًا ، واحدًا من الألغاز الفريدة في الأدب العالميّ . ويشجّع شكلُ الغَزَل الفارسيّ انغلاقَ البيت الشعري على نفسه ، ومن ثم القفزات الكبيرة بين البيت والآخر ، مما يجعله أداةً رائعة لانعطافاته المثيرة .

لا يروي حافظٌ قصصًا ، ويندر أن تتّبع قصائدُه خطًّا واحدًا ، بل تقفز وتنزلق وتتوارى مثل حيوان برّي . وفي الختام هناك دائماً الإشارةُ إلى لقبه « حافظ » . وهو الذي اختار لنفسه ذلك الاسمَ المستعار . وهو يعني « الشخص الذي حفظ القرآن كاملاً » ، أو « المتذكِّر » . وهو يتحدّث عن نفسه ، أو لنفسه ، في نهاية القصيدة ، مع حقيقة أنّ القصيدة ملقاةٌ إلى الشاهد ، إلى وَعْي يتجاوز اهتمامات أية شخصية لحافظ .

وبالنسبة إلى حافظ لا تصحُّ التقسيماتُ التقليدية للوعي . فالعقلُ والشعورُ والحدْس الرّوحيّ والإدراكُ الحسّي للزمان والمكان ، تمتزج جميعًا في كلٍّ شفّاف متعدّد الأوجه . إنَّ استعارةَ الجوهر قالبٌ ممجوجٌ ، ولكن لا مفر منها . حافظٌ « مغيّر المظهر a shape - shifter » ، وكلّ قصيدة تسهم في مجازفة « تغيير الروح » . يتنقّل حافظ على الحافّة التي تاق الكثيرون لاكتشافها ، حيث تتلاشى اختلافات الرّوح ـ الجسد واللغة ـ الموسيقا ، ويولد شكلٌ للحياة جديد من تآلفها وحبّها .

يقول حافظ : « كيف تستطيعُ أن تمشي في الطريق الصحيح ، قبل أن تخرج عن طبيعتك » . وهذه هي المفارقة التي جسّدها ، فقصائده طبيعية تمامًا ، ومع ذلك فإنها تتجاوز الحدود إلى نشوة التسليم . « إذا تجرّدتَ تمامًا لإدراك الله [سبحانه] ، فستكون عندئذ غبارًا على قدمي أستاذ كامل » . ذرّاتٌ جذّابة صورةُ حافظ في هذا الحدث . إنّ حُبَيبة المادّة لا يهمّها أين تكون ؛ على جبهة رجل ، أو على العتبة ، أو معلّقةً في الماء . فشعرُ حافظ له هذه الخاصّية المتبلورة، مجزَّأةً في الخطّ والصّورة وموحّدةً مع ذلك في المسحوق الكلّي لفرَحه . يقول حافظ : « إنّ الأستاذ لا يستطيع أن يحوّل الغبارَ إلى ذهَبٍ فحسبُ ، بل في مقدوره أن يحوّل الغباءَ كيمياءَ تحوِّل كلَّ شيء إلى ذهب » .

تـأمّل هـذه الاستعـارات في شعره : صـوتُ المطر لغـةٌ مستعملـة . الصّمتُ بستـانُ فاكهةٍ عندمـا لا يكون ثمة مطر ، ونـداوةُ الأرض تُسحب بهـدوء في أشجـار الفـاكهـة . وهناك بعدئذ مكانُ حافـظ ، فيا بين الصّمت والكلام ، عنـدمـا يتوقّف المطر ، ويستمرّ القَطْرُ الشبيه بالمطر في بستان الفاكهة . وشعره طمأنينةٌ نـاعمـة تظلّ تفيض ، كأنها من لا مكان .

لا نعرف سوى اليسير عن حياته . فقـد وُلـد سنـة ١٣٢٠م في شيراز (جنوب شرقيّ إيران) . نعرف أنّه ينبغي أن يكون قد تزوّج وكوّن أسرة ، وهو ينـدب زوجـةً وابنًـا في قصائده . وقد دُعي إلى الهند ليكون شاعر بلاط وكذا إلى بغداد ، لكنه آثر البقاء في شيراز .

وقد وصلت إلينا حكايـةٌ حول العَرْض الهنـديّ . أُرسل إلى حـافـظ مبلغ كبير من أجل نفقات السفر إلى الهند ، لكنه في الطريق إلى مينـاء هرمز لقي صـديقًـا مُعْـدمًـا . أعطـاه حـافـظٌ المبلغَ كلّـه ، وواصل سيره إلى الرصيف . تصوّره الملاّحون رفيقًـا جيـدًا فوافقوا على نَقْله في سفينتهم مجّانًا ، لكنّ عاصفةً هبّت عندئذٍ ، فقرّر حافظ أنـه لا يحبّ مشاهدة المحيط الهنديّ . كتب قصيدةً ثم أرسلها بدلاً منـه « رَدّي على عَرْضِكم » . أمضى معظم حياته قريبًا من المدينة التي أحبّها إلى حدّ الهيام ، ونهرها المسمّى « ركنـابـاد » . ويبدو أنّه عاش حياةً بسيطة ، ناسخًا ، ومعلّمًا في مـدرسـة المـدينـة ، وأحيـانًـا شـاعر بلاط . عومل على نحوٍ متفـاوت ، ولكن بـإنصـافٍ تـامّ في الجملـة ، من جـانب سلسلـة طويلة وسريعة من الحكّام .

وهناك وصفٌ آخر أسطوريّ ومثيرٌ للقاءِ بين حافـظ والشخص الأكثر شرًّا في ذلـك الوقت ، الغازي القاسي تيمورلنك ، الـذي انـدفع بقوة في جنوبي فـارس ، وقتل سبعين ألف شخصٍ في أصفهان ، ودخل شيراز في ديسمبر من سنـة ١٣٨٧م . استـدعى حـافظًـا الكبير السنّ ، كانت سنّه آنذاك سبعًا وستّين سنة ، وقابله بأبياتٍ من إحدى القصائـد :

« إذا كانت الحسناءُ التركيّة تقبلني
فسأعطيها بدلَ خالها سمرقند وبخارى »

ثم قال تيمورلنك بغيظ : « بسيفي الصقيل أخضعتُ معظم العالم ، وأنت شاعرٌ بائسٌ سيّئُ الحال تبيع مدينتي وقاعدة مُلْكي بخالٍ على خدّ فتاةٍ ! .

أجاب حافظٌ حانيًا رأسَه احترامًا : « أنتَ على حقّ ، إنّه بسبب هذا الإنفاق المتهوّر ألتُ إلى الحال البائسة التي تجدني عليها الآن » .

سُرّ الإمبراطور كثيرًا بحافظ ، ولم يكتف بأن أعفاه من العقوبة بل بعثه بعيدًا وقدّم له أُعطيّة . توفّي حافظٌ ودُفن في شيراز سنة ١٣٨٩م .

جمع حافظ مجموعًا شعريًّا سنة ١٣٦٩م ، لكنّه لم تبق نُسخ من هذا المجموع . وأقدمُ مخطوطٍ هو نُسخة عام ١٤٢٤م عن مجموعٍ جمعه صديقُ حافظ ، محمّد غلندم ، بعد سنة ١٣٨٩ بقليل .

الطّريدة

ليس مهمًّا أن يعاديني الخلقُ كلُّهم .
فالقربُ منكَ يهبُني الحياة .
وهَجْرُك الموتُ الزؤام .
تتفتّح وردةٌ من كُمِّها .
فهل لي أن أنام قبل وصولك ؟
هل الأشواقُ هي كلُّ ما يوجد في الحبّ ؟
مُدْيتُك أفضلُ عندي
مِنْ مَرْهَمِ الآخرين .
اجعَلْ رأسي تُرْسًا .
لا تشددْ عنانَ الفرَسِ
ولا تُطلق له العِنان !
شدّني بإحكام إلى طوق السّرْج
الذي تستخدمه في اللهو البسيط
عندما يقعُ غبارٌ من أعتابك
على رأسي يقولون : حافظٌ
تُوّج مَلِكًا !

الغزال البرّيّ

غزالُ البرّ ، صديقي
الذي رافقني في السّفر لسنواتٍ ،
كيف لنا الآن
أن نعبر هذا السّهلَ الفسيح منفصلَيْن .

لم يتغيّر المكانُ الذي نذهب إليه ،
لكنه دون أن يصحب كلّ منا الآخرَ
تكون الرحلةُ مخيفةً .
أظلُّ أسألُ في كلّ مكان : « من
يستطيع أن يدلّني على مكان الغزال البرّيّ ؟
الخَضِر ؟ أيقترب دليلُ
الأدلاّء ! أسمعُ وَقْع أقدامٍ .
لكنّه فارقنا من قبلُ ، محوّلاً السرورَ إلى حزن .
ربّما سيعود !
في هذا الوقت من السنة إذ يعطي الله [سبحانه] الهبات الكثيرة
جاءتني رسالةٌ قصيرة من القرآن ،
حيث يقول محمد [عليه الصلاة والسلام]

لا تذرني من دون أولاد !
ذاتَ يومٍ كان هناك روحٌ فذٌّ
يجلس بجانب الطريق .
المسافر الذي قُرِّر له
أن يلحق بطائر السِّيمُرْغ العظيم
مرّ به .
« هل أُعطِيتَ إشارةً
تُوجِّهك إلى هذا الطريق ؟ » - ما عرف أحدٌ
حتى الآن ، أيّ طريق يتقدّم فيه .
الشمسُ وضعت محصولها من النار
في إحدى كفّتي الميزان .
ماذا وجدتَ ليتوازن مع ذلك ؟
لم يُحِرِ المسافرُ جوابا .
أكان الخَضِرَ ذلك الجالسُ بجانب الطريق يسأل ؟
انتظرْ هنا حتى يعود .
اجلس قربَ هذا الينبوع وابْكِ ،
متذكّرًا أنّ أولئك الذين أحببتَهم
قد ماتوا . بُحْ بأحزانك
مثلَ مطر الصيف . اندمج بنهر
مصنوعٍ من مثل هذا الثناء .

أمسِكْ بإحكام بساق الوردة التي حُبيتَها .
تعرّفْ قيمة مثل هذا الصديق .
اكتبْ ذلك في الهامش واحفظه في ذاكرتك .
خطّةُ هذه الأرض
أن تفرّق بين الأحبّة .
لكنّ ما أكتُبُه هنا
لا يجري من أيّ شيء مادّي .
هذا الشعرُ يمزج الروحَ بالعقل .
إنه بذرةٌ وُضعت في الموسيقا
مثلما توضع في الأرض الدافئة .
إنّ الشّذا الذي تشمّهُ ، وأنت تستمع ،
يصدُرُ عن روح هادئ مسالم ، ليس
الغزال البرّيّ الذي خلّفني ههنا وحيدًا !

نُكرانُ الذات ، واللّغز الآخر

أطْولُ شجرة تَنُّوب فوق منحدر التلّ ، أرقّ شفةٍ ، أصدق سَهْمٍ ،
وإذ تكشفين خمرةَ العالم ، تقولين
لهذا الشحّاذ :

« أنت تعطي للكلمات ضياءً وعيونًا لتتجوّل ،
إلى متى ستظلّ فقيرًا .
متى وأنت تلاحقني تستطيع أن تلعب مثل الأمير
وتهمس في الآذان المرهفة ؟ » .
عندئذ يأتي تحذيرٌ من أسلافي :
« لا تُصْغِ إلى ذلك الصوتِ ! »
اللّهُ يعطي أرواحَهم السكينة والسلام .
كنتُ أتجوّلُ في بستانٍ ،
أزهارُ الخزامى الحمراء ونسيم الصباح .
هل أُشرِّفُ هذا الخطَّ الطويل
من منكري ذواتهم من الموتى ؟
وتأتي الإجابةُ : « يا حافظ ،
لستَ ههنا لتعرف ذلك اللّغز .

ونصيبُك قُبلةٌ مديدةٌ
على الكأس التي تدور

المادّة التي تذوّقتَها

عجلةُ السّماء تدور بنا نحو الفجر
وتملأ الوجودَ من جديدٍ بالألوان .

دَعْه يكن نقيضتَنا ، هذا الحبّ المتعطّش
للعالم ، تطلُعُ الشمسُ
كالذهب الأحمر حين يُسْكَب !

عجلةُ الخزّاف تدور ،
والمظاهر تتغيّر سريعًا .

دَع الجرّة التي تخلّقتُ في صورتها
تتحوّل إلى كأسِ مُدام .
املأني بحبّك
لأكون يَقظًا .

لستُ منكرًا لذاتي منافقًا .
سمّني هذه المادّة اللذيذةَ
التي تتذوّقُها عندما تخلُق جمالاً جديدًا .

كن قويًّا ، يا حافظ !
اعمل هنا داخلَ الزمان ،

حيث نضعُفُ نحن ، أمسكْ بقوةٍ
ثانيةً ، وتسلَّق .

اسكُبْ لي أكثر

هذا ما يقولُه السّكّيرُ المفلسُ
لا تَعِظْني بازدرائك .
قدامى الأصدقاء لهم حقوق خاصّة ، طبعًا ،
أكثر ندرةً من كلّ الجواهر التي خبّأتها .
أما وجهُك ، الثروة
التي تعكس صورة الشمس والقمر ،
فلاأستطيع أن أذكر قيمتها !
لا توبِّخْني ثانيةً ، فكلٌّ ما حدث
كان مفترضًا أن يحدث ، أليس كذلك ؟
لا تنزعجْ من أنّ نَفَسي
يمكن أن يلوّث ثوبك الصوفيّ ؟
اسكبْ لي أكثر من ذلك الذي سقيتَني منه الليلةَ الماضية ،
لكي أنسى المبلغَ الذي أنفقتُه .
وحافظ ! أريد أن أسمع أغانيَك .
فهي الأفضلُ ، أُقسِمُ
بالكتاب المنقوش
في صدرك .

المخاطرة

يبدو الحبُّ سهلاً في حَلْقة الأصدقاء ،
لكنه صعبٌ ، صعبٌ .

نسيمُ الصّباح يَعْبُر النافذةَ ، مَذاقه ،
مع كلّ لحظةٍ تغادر أجراسُ الجِمال النُزّلَ .
هكذا نَسْهرُ ، مع الخمرة المسفوحة
على سجّادة الصلاة ، وحتّى صاحبُ الحَانِ
يكون مثقلاً . لقد انتقلت حياتي
من العِناد إلى سوء السّمعة ،
ولن أكتم ، أيضًا ، الفرَحَ
الذي خرج بي إلى الضحك .

المحيطُ الهائل ، القمرُ المتواري خلف النجوم ،
الرّعبُ من السَّحْب نحو الأسفل .
كيف يقْدِر مَنْ يحمل صُرّةً خفيفةً على كتفه
ويمشي على الشاطئ أن يعرف كيف تكون رحلةٌ بحرية في اللّيل ؟
أي حافظُ ! ابقَ في الحياة الخطرة التي هي حياتُك .
ففيها ستلقى الوجه
الذي يبدّد الرَّوْعَ .

حلْقةُ الذِّكر

إذا انتهى بي الحبُّ إلى الخمرة الكثيفة المِسْكية ،
فهو ما ينبغي أن أُريد أنا ، لا ما يريد منافق شحيح .
وإذا نصحني كلُّ مَنْ في الدنيا
بأن لا أحبَّك ،
فسأظلُّ على حبّي .
يحيا المرءُ في حَلقة الذِّكْر
حيث ستنحلّ العقدةُ المستديرة
في شعَر الحبيب .
عروسُ الدّنيا الجميلةُ تقترب
لكن ليس لتقترن بأحدٍ !
انظر . عروسٌ تُغادرُ
وأخرى تأتي .
السّرْوُ ، الْخُزامى ،
خطٌ من العباءات .
نحن متسوّلون هنا ،
لكن لا تسَلْ عن الشيء الذي نطلبُه !

وأيّا كان هذا الشيءُ فإنّه يرتسم على وجوهنا .
هكذا قلتُ لأضايقَ الجَمالَ ، « يا قمري ،
إن نحن تبادلنا القُبل ، فهل أستطيع تحمّلَ الحبّ ؟
ضحكت وقالت : « أي حافظ ، واصل التقبيل !
فشفتاكَ لن تلوّثا القمر » .

ريحُ الوردة المتفتّحة

عاصفةُ اللّيلة الماضية كانت رحلةً إلى الحبيب .
وأنا أسلّم بذلك ، الريحُ التي
هي صديقي ، وشغلي .
كلَّ ليلةٍ تسطع الأضواء .
كلّ صباح ، يهبّ النسيم .
ليس في مكانٍ محميّ ، بل في فيض
دم القلب الذي يُضخّ ، في ريح
بُرعُم زهرة يتفتّح ،
تضع تاجًا صغيرًا على كلّ نرجسة .
تفقد اليدُ المتعبةُ قوّتها ، تُنهَك
لأنها في الصّباح تُمسك بشعرك مرّة أخرى .
يأتي السّلام عندما نكون متحابيَّنِ ،
نتذكّر . أي حافظ ، إنّ رغبتك الشريفة
وحبّك الخير يطلقان سراحَ الرّوح
لتظهر على ما هي عليه .

الاِبْنةُ

أنتَ مَنْ يشربُ كأسَ السّماء الصافية حتى الأخير ،
المطوِّفون في الخيال يُمضون ألفَ سنة
ليصعدوا الطريقَ إليك .
أنت العينُ والمصباحُ الذي نستخدمه .
الشمسُ والقمرُ ؟ ليسا إلاّ أضألَ الأجزاء
المتروكةِ على حافةِ سِماطك .
الثناءُ عليكَ أعطى عقلي بِنْتًا
آتيكَ بها عروسًا
لتكنْ
هذه القصيدةُ شاهدًا
على أنّني أخدمُ مِنّتكَ
مثل العَبْدِ .

إيماءاتك

كلُّ ما أريدُه أن أكونَ قريبًا منك .
أشكر الله على هذه الرغبة ،
ولَيْتَها تزداد !
الكهنةُ وزعماءُ الكنيسة لهم نظرةٌ مختلفة .
« السُّكارى » يسمّوننا نحن العشّاقَ .
أمّا الّذين ليس لديهم ما يريدونه ،
فدعْهم يعيشوا استقامتهم المظلمة .
أيّها الحبيبُ ، إنّ روحي ، الذي أُبْعِد عنكَ ،
ليس عنده كلامٌ سوى البكاء .
يحاول السَّرْوُ أن يُمسك بإيماءاتِك .
والقمرُ بنظراتِك .
لا يقيم حافظٌ وزنًا
لحديث المساء أو صلاة الصّبح ،
عندما تأتي ثمّةَ سانحةٌ صغيرة
تنحني فيها للتقبيل .

الْخُزامى النامية

عُودي ، يا مسكبةَ الْخُزامى .
لا يمهِّد الفِكْرُ لشيءٍ
في محيط تعبيرك الغامض .
هناك فيزياءُ للمطر ،
مثل الأسى الأنيق .
أنا حيٌّ ، ومع ذلك لستُ كذلك .
ولا عجبَ عظيمًا في هذا .
يندفع الفارسُ إلى الأمام نحو الحاجز
وهو يشدّ عنان فرسه بإحكام .
وفي تلك اللّحظة أو اللّحظتين
عندما تكون رؤيةُ الحبيب ممكنةً ،
ما مُهمّة حيواتنا ؟
أحلى النوم يبدأ عند الفجر ،
ولكن لا تستسلم ،
لعلّ هذه الفرصة لا تتكرّر !
البارحةَ لم يرَ أحدٌ منّا الآخر ، أمّا أنا

فليس لي مُراد سوى تلك اللّمحات .

أيْ حافظُ المسكين ! واصِلْ استخدام الكلمات ،

لأنه على سطح هذا الكوكب

لم يبق من صُوَرِ الحياة

إلاّ تلك التي تنمو

في حديقة هذه القصائد .

سؤال منتصف اللّيل

قربَ منتصف اللّيل ، في التشوّش ، تجيءُ تسأل :
« أما تزال كهذا ، يا حِبّي ،
متى تهرم ؟ »
من سيرفضُ الإجابة ؟
الشيءُ نفسُه سُمِع
قبلَ خلْقِ الكون :
« أَلَسْتُ بربِّكُمْ ؟ » .
أيّ شيءٍ يقدَّم عندئذ يجب أن يُشربَ .
قد يكون روحًا صِرْفًا ، أو خمر عنب فحسبُ ،
أو تركيبة من الاثنين ، ولكن قل « بَلىٰ » ،
مثلما جرى لي مرّات كثيرة ،
ومثلما فَعَلْنا جميعًا ذات مرّة في تناغمٍ
خارجَ الزمان والمكان .
لا تندم على تلك الإجابة !

فارغ تقريبًا

ثمّة مسألة
النُّور في عينيّ .
إذا شئتَ أن تعرف الصّديق ،
فلا تتوقّع براهين أنيقة !
اطلب الهِبَة
ممّن يقدّمُ لك السّرور .
لا تقلق بشأن الرزّق أو الثروة .
كُنْ قِوامًا لأصدقائك .
خيطَ سيتارٍ(☆) مشدودًا . طبلاً .
كن فارغًا تقريبًا ، وشرّاب السُّؤر
سيجتمعون ليتذوّقوا .

(☆) السِّيتار آلة موسيقية هندية شبيهة بالعود .

أنا أرى

نور الله ، أرى
أين هو وما هو ،
ولكن مَن يشربُ الْحُثالة
في هذه الحانة ؟
أرى البابَ ،
وسجّادة الصّلاة تسير إلى حاجتها ،
والمدخل المقنطر .
أرى من يدلّ على الطّريق إلى مكّة .
أرى شرفَ أن تكون عاشقًا ،
والخِزْيَ ، واللَّعِب .
أرى الكعبةَ .
أشتمُّ عبيرَ الصَّبا كلّ صباح .
أرى موضع الوَحْدة في الْخَلْق كلّه ،
من دون « لماذا » و « كيف » .
أرى فلسفةً ضَحْلةً بعيدةً جدًّا عن الواقع .
أرى أن صور خيالي ضعيفة .

ولكن لمَن سأقول ما هو الباقي ؟

لا تأتِ شاكيًا
من أنَّ حافظًا يظلّ يدّعي « أرى ،
أرى » هو وزُمرتُه من محبِّي الله !

الحافّة

تُخفي وجهَك في الأوراق ،
وأعينُنا تمتلئ بماء الورد ،
غافيةً عندما يتفتّح النّرجِسُ .

وأنتَ تندفعُ بعيدًا في مواسم البستان .
البنفسجُ الأُرجوانيّ ، النَّيْلُوفر الأبيض ،
تتغيّر ، وأنت تبعد سريعًا .
فُقاعات السّطح تفتح أعينَها ،
ثم تتلاشى ، ما أشدَّ اختلافَ
هذا العالم عن تلك الفُقاعات ؟
طريقتُك مع كأس الجسد
أن ترشف كلَّ خمرة الحبّ فيه .
اعمل ذلك لنا !

رُكْنَابَادْ[١]

هاتِ كلَّ الخمرة الباقية !
وعندما نموتُ ونطوفُ في أرجاء الفردوس ،
لن نظفر بمكانٍ أكثر جمالاً
من هذا النهر المسّمى « رُكناباد » ،
بقرب البساتين وأزاهيرها
في مدينة شيراز .

(١) نهرٌ أحبّه حافظ وذكره في أشعاره كثيرًا [المترجم] .

ممرّ الله أكبر

ثمّةَ اختلافٌ بين
ماء عَيْنِ الخَضِر ،
المتواري في أرض الظُّلمات ، الذي يعزّ الوصول إليه ،
ومائنا هُنا ، الذي ينحدر
من ذلك الممرّ الضيّق في جبالٍ
إلى الشمال ، ومن ذلك المكان على الطريق
ترى أولاً « شيراز » ، الممرّ يُسمّى
الله أكبر ، وهو مكشوفٌ للثناء !

رَدّي على عَرْضِكَ

كَمْ بهجةً ستجعلُ الظَّهْرَ الْمُنقَضَ يستحقّ ذلك العناء ؟
وإن كان لثوب الدرويش
أن يُقايَض ببرميل خمرة ،
فهناك مقدارٌ كبيرٌ الآن !

إنّ تاجك مملَّكاً على الهند
حلْقةٌ من الخوف والشكّ .

وتبدو جواهرُك جميلةً في المرآة ،
لكنّ حَمْلها على الرأس محرَّمٌ .

تحت في الحيّ المسيحيّ
حيث يبيعون الصَّهباء ، لا تكفي سجّادةُ الصّلاة هذه
لشراء كأسٍ واحدة .
ومن ثمّ فلماذا عملُ الأوقات الخمسة جميعًا ؟
بدا ماءُ البحر صفقةً إزاء العبور
عندما جاءني عَرْضُك .

وبعدئذٍ هبّت عاصفةٌ
فتغيّرت النسبةُ

بين بحر الهند
ولآلئه !

مفقودة

أَرْسِلْ أولئك الذين يمكن أن يُستأجروا
ليصيحوا في سوق العاشق :
« مفقودة ! فتاةٌ برّيةٌ افتُقِدت ،
تضع تاجًا رقيقًا من الزّبَد
وترتدي ثوبًا أحمر قاتمًا .
إنها خَطِرة !
ستسلبُ عقلَك ،
ورغم ذلك فمن يجدها
له روحي مكافأةً .
ومن أي مكان
أرجعوها
إلى بيت حافظ ، الشاعر » .
مفقودة ، فتاة برّية
افتقدت !

شيراز

هي المدينة
داخلَ الصدر .
رُكناباد ،
نهرُ الكمال الكامل
الذي يشقّ طريقه خلال
حبّها ، شيراز .
تهبّ الأنسامُ من أصفهان
وعبيرُ الورد من جعفر آباد ،
المصنوعة من الورود ،
وكلتاهما في منتصف الطريق
إلى شيراز . لا حاجة لاستيراد
حَلْوَيات مِصْر . شيراز
العسَل يتدفّق في شوارع
شيراز ! يا ريح الصَّبا ، ماذا تخبرينني
عن فتاتي الغجرية ؟
هل هي سعيدة ؟
هل هي بخير ؟ هل شيراز

ثَمِلةً قليلاً اللّيلةَ ؟

لا تُوقِظْني من حُلُمي

في العودة إلى هناك .

وحافظٌ ينبغي أن يذوبَ

في شيراز ليغذوَها

مثلما ينبغي لحليب الأم

أن يذوب ليغذو طفلها

الأمواه تجري معًا

لَنْ أُنكر ما أحبُّه ،
شفتايَ تحبّانِ شفتيك ،
ولا بديلَ لهما .

أنامُ ورأسي
على هذه العتبة ،
لا عتبة أخرى .
والأسى من عدم الظفر بطمأنينة حضورك
يجعل النفسَ تنهّدةً متّصلةً .

وعندما أموتُ ، افتح القبرَ
وانظرْ سحابةَ دخانٍ ترتفع حول قدميك ،
أدخنة نارٍ مخنوقة من كفني .

أيها الحبيبُ ، اقترب ! يطوّف العاشقُ في الْمَرْج
بحثًا عن الأزاهير ، وكلُّ رجلٍ وكلّ امرأةٍ
يبحثان مثلَ هذا البحث
كجداول الماء التي تجري في كلّ مكانٍ معًا .

اعرضْ نفسَك هنا حيث يجلس

الحقيرُ ويغنّي ، ههنا حيث يبرز اسمُ حافظ
ويجلب الدّموعَ .

إشارة البَدْء

إنَّ أَلَقَ الشباب عاد ثانيةً !
الريحُ الخفيفة ، الرَّيحان .
والطفلَ الذي يبدو حكيمًا كبيرًا
يركض نحوك من أجل قُبْلةٍ !
القمرُ كرةُ بولو ،
وعصا بولو أيضًا !
كن عونًا على الفُلْك الناجي ،
حتى إن لم تكن السلامة هدفًا .
كلُّ ضيفٍ يموتُ في النهاية . أمّا الآن ،
فقد خرج يوسُفُ من السّجن !
ارفعْ خمرتَك تحيّةً للحريّة .
لا تَنْصَب الأفخاخَ ، كما يفعل الآخرون ،
بالاستشهاد بشيء من القرآن .
تقولُ الوردةُ : استسلمْ
وستبدأ العنادلُ .

الوليمة

جماعةٌ من الأصدقاء المتوادّين
يتحدّثون بهدوء في العَراء ،
الوليمة أُعدّت ، وردة ذابلة
مع لقمة كبابٍ بعد ذلك ،
غمزةٌ من الشخص الذي يسكب ،
يقصّ حافظٌ حكايةً ،
حجّي قِوام بضحكته المديدة ،
بدرُ تمامٍ في السماء ،
اللّغزُ المطلق
لهذا الحبّ كلّه .
وإذا لم يحبّ المرءُ متعةَ
مثل هذا البستان الودود
فإنّ الصُّحبة ، لا ، بل الحياة نفسها
ستكون مخالِفةً لمبادئه !

شَهْ

لا تطلُبْ منّي أن أصِفَ
طَعْم سُمّي .
في ختام سنواتٍ من التّطواف
تخيَّرتُ صديقًا . لا تسألني مَنْ هو !
أبكي في المدخلِ .
أمسِ سمعتُك تقولُ
ما لا يمكن أن يُقال .
والآنَ تشير إليّ ،
لا تَقُلْ .
الألم الذي ألقاه من بقائي في حجرتي وحيدًا
هو ما لا يمكن التحدّث عنه حقيقةً .
وهكذا ، مثل حافظ ، أسيرُ طريقَ الحبّ ،
واعيًا في طريق ليس له اسمٌ .

تغيّر في النسيم

لوقتٍ طويل عملتُ صاحبَ حانة ،
أرتدي ملابسَ التبطّل ،
وأغنّي مع أولئك الذين يشعرون بالفرح ،
لكنّني لم أشتمَّ عبيرَ الحقيقة الرقيق هناك ،
وهكذا أغادرُ ، أتقدّم الحجلة الحلوة المتمثّلة في الحبيب ،
آملاً أن يكمن لي .

أسيرُ في الشارع المفتوح مثل نسمةٍ
يتصوّب فيها الرّيحان والورد
ويتصعّدانِ في صلاة .

أحاولُ أن أجتذب السّهمَ ، نظراتِك العجلى ،
قُبلةَ البَدْء لمقام الجلال ، لتحلّ هنا .

وهذا ما أفعلُه : في مجلس دينيٍّ مألوف ،
أنا « حافظ » الذي يحفظ القرآن عن ظهر قلب ،
أمّا في الحانة ، فأنا شارب السُّؤر والحثالة .

اِلحظِ التحوّلَ الرائع
في ذلك التغيير !

تلك اللحظة في هذه

تذكَّر اليومَ الذي التقينا فيه ،
طَعْمَ تلك اللحظة في هذه .
عندما يجرفنا نهرُ الأسى المحيط بنا بعيدًا ،
تذكّر بستانًا وبستانيَّه
الذي ينحني بهدوء للعمل .
الشخصُ الذي له أسرارٌ مع حافظ
الذي لم يعد يجب عليه أن يحفظها ،
أتذكَّر ذلك الشخصَ الآن .

يأخذ لغزًا إلى الحانة

لسنواتٍ عديدة ظلّ قلبي يريد شيئًا ما منّي ،
غيرَ عارفٍ أنّه هو نفسُه كان
الشيءَ الذي أراده :

يريد كأس جمشيد ،
التي بها يمكن أن يُرى الوجودُ كلّه ،
ما خلا تلك الكأسَ نفسَها .

كان ثمة رجلٌ من أحبّاء الله
خاطب الله [سبحانه] بأعلى صوته : « لماذا
نبذتَني ؟ » .

أخذتُ لغز هذا إلى حانةٍ
ثم سألتُ من يقوم على أمرها .

قال : « بعضُ الأسرار يجب حفظُه ،
لا يُفشى لعامّة الْخَلْق .

برغمِ الزّهرة والرّوحُ يكتبان الأسرار
على حوافّهما طيّةً داخل طيّة .

ابقَ متكتّما ، وانتظر » .

« كأسُ مُدامِك هي كأسُ الإلهام التّامّ ! »

« مُنحتْ قبلَ الْخَلْق » .

« ثم ماذا عن تلك المرأة هناك

التي لا أستطيع أن أنساها ؟ »

قال صاحبُ الحانة : « أي حافظُ ، هذا الحبُّ الذي

بين جنبيك يتكلّم يحتاج

إلى شيءٍ من الإسكات ! » .

تذكّروا

أصدقائي الأعزّاء ، هناك صديقٌ
داخل الظلام ، تذكّروه .
وواجب خدمة الآخرين ،
تذكّروه .
في وسْط أيّة إثارة ،
عندما يأتي الأنينُ المتناغم لعاشقكم
تذكّروا .
عندما تضعون يدكم المفعمة بالأمل على خَصْرها ،
عندما يأتيكم وجهُ أحدهم بأغنيةٍ
تضيء بالتعرّف ، تذكّروا .
وعندما يجتاز
جوادُكم الآخرين ، تذكّروا
وعندما تجلسون لتلقّي الأمر ،
تذكّروا وجه « حافظ » وطريقة اللّطف .
ومثلما تفعل البدايةُ
الفارغة ، تذكّروا .

الدليل الجديد

كلٌّ مَنْ ينصرف خجلاً
من مُقدَّم شارعِك
لن يجد عملاً يعمله
لا يجلبُ الاشمئزاز

وبنور الشيخ
يجد الحاجُّ المحبوبَ .

القلبُ المفقود ، في آخر الحياة ،
يساعدُنا في تذوّق تلك الخمرة !

إنّ زمانَ الْحُكْم على السّكّير
والصّاحي ، المحقّ والْمُبطل ،
القريب إلى الله والبعيد ،
هذا الزمان انتهى تمامًا !

هذه القافلةُ ستقودها بدلاً من ذلك
البهجةُ العظيمةُ ، السرورُ البسيط
الذي يجلس معنا . وتلك هي الفضيلةُ .
أي حافظُ ، ربّما

تكونُ قد سكبتَ توّا النّخبَ
الذي سينقّي الحبّ
من صوره جميعًا .

نقوشٌ على الباب

هذا ، عندما تتفتّح الأزاهيرُ ، والآن
عندما تنطلق العنادلُ في طريقها ،
هذه اللحظاتُ تعقبُ إحداها الأخرى .

تذكّروها جميعًا ،
أنتم عبّاد الوقت أيها الصوفيّة !

إن قانونَ الندم المكتوب على الحجر
يتبدّدُ عندما تمسُّه كأسُ الخمرة .

اجلبوا السّرورَ إلى مجتمع الْخَلْق هذا
إذْ كلّ شخص مستغنٍ عن الآخرين ،
أو محكومٍ عليه بأنه سكّير أو بأنّه قاضٍ ،
أو مشرف محكمة أو شاهد .

هذه لم تعد قاعة محكمة ،
بل نُزُلٌ ذو بابَيْنِ .
ونحن نجيءُ ونذهبُ ، فماذا يهمّ
كيف تُنقَش النوافذُ العُليا ؟

المتعةُ تجلب الصّعوباتِ والآلام .

والبؤس يأتي مع الوجود .

لا تحاولْ أن تقرّر ما هو حقيقي ، وما هو زائف .

كن سعيدًا ، كلّ كمالٍ يموت .

يطير الطائرُ قَدمًا ثم يقف على الطريق .

وينطلق السّهمُ نحو الأرض في أقلّ وقت .

أي حافظُ ، كيف لِلُغة هذا القلم أن تشكر

نعمةَ أنّ ما يقوله يتحوّل إلى معالم

تصنعُها يدُ إنسانٍ آخر ؟

خمرةُ السُّؤال

عندما يرفع حبيبي الكأسَ هنا ،
تفتقد السّوقُ زبائنها على نحو مفاجئ .
أسجدُ باكيًا .
هل ستأخذ يدي ؟

أعوم كالسّمكة
أنتظر صنّارتك .

معظمُ الناس يرون عينيك
فيستدعون الشُّرَط ،

لكنّ « حافظًا » يعرفُ أنّ الخمرة التي تعرضها
هي الخمرةُ القرآنية في سؤاله سبحانه :
« أَلَسْتُ بِرَبِّكم ؟ »
التي سكبتَها
عندما قلنا : « بلى » .

العودة

نسيمُ الصّباح يعود ،
ومن صحراء الجنوب
يعود الزقزاقُ الشاميّ .
سَجْع اليمامة الرقيقُ حول الأزهار ،
أسمع ذلك مرّة أخرى .

والخُزامى ، التي تفهم ما يقول الزنبقُ ،
ولّتْ بعيدًا ، لكنّها الآنَ تعودُ .

وبصوتِ الجرس ،
القوةُ واللُّطف .

و « حافظُ » لم يُبِرَّ بيمينه وأنهك قلبَه ،
أمّا الآن فإن حبيبه ، من دون سبب ، يغفر له ذلك ،
ويعود إلى بابه .

تعريف بكُلِمان باركس وعنايت خان

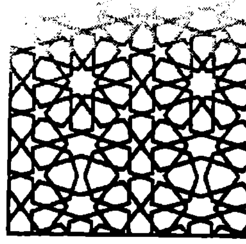
ـ كلمان باركس :

أستاذ مشارك في اللغة الإنكليزية في جامعة جورجيا . نشر ديوانين شعريّين هما : العُصارة The Juice ، وبذرة اليقطين Gourd Seed . وفي الخمس عشرة سنة الأخيرة تعاون مع عدد من العلماء في ترجمة شعر الرّومي ، وشعراء آخرين . وظهر من ذلك العمل اثنا عشر كتابًا (بدءًا بـ « السرّ المكشوف » سنة ١٩٨٤م) . وسيتضمّن الإصدار الآتي من سلسلة « مقتطفات نورتن الأدبيّة من روائع العالم Norton anthology of World Masterpieces » اختيارًا من أشعار الرّوميّ .

وفي سنة ١٩٧٧م التقى كلمان الأستاذَ الصوفيّ ، باوا محي الدين . وقد عكف باوا ، على امتداد تسع سنوات إلى أن توفي سنة ١٩٨٦م ، على زيارة الزمالة The Fellowship في فيلادلفيا عدّة مرّات في العام . ومن هنا يقول كلمان : « لولا هذه العلاقة لما كان هذا العملُ ممكنًا بالنسبة إليّ » .

ـ عنايت خان :

ولد عنايت خان ، مؤسِّسُ النظام الصّوفي Sufi Order في الغرب ، في الهند سنة ١٨٨٢م . وبعد أن غدا أستاذًا في الموسيقا الهندية الكلاسية في سنّ العشرين ، تخلّى عن حياة متألّقة ونذر نفسه للطريق الرّوحيّ . وفي سنة ١٩١٠م ، بتوجيه أستاذه ، صار أوّل معلّم للتقليد الصوفيّ يأتي إلى الغرب . وخلال عَقْد ونصفٍ طوّف في أرجاء أوروبا والولايات المتحدة ، يلقي المحاضرات ويقود جماعة متنامية من الباحثين . ثم عاد إلى الهند سنة ١٩٢٦م ، إذ وافتْه المنيّة السنة اللاحقة .



المصادر

Sanai

E.G.Browne, *Literary History of Persia*, Cambridge University Press (Cambridge, 1964), Vol. II.

A Persian Forerunner of Dante, a pamphlet, tr. Reynold Nicholson, no publisher or place of publication listed, 1943.

Hakim Sanai, *The Walled Garden of Truth*, tr. David Pendlebury, E.P.Dutton (N.Y., 1976).

Hakim Sanai, *The First Book of the Hadiqatu L-Haqiqat*, or *The Enclosed Garden of Truth*, tr. J. Stephenson, Samuel Weiser reprint of 1908 Lahore edition.

Sources for specific poems:

SANAI: "Teaching Schoolboys," Stephenson, pp. 96-98; "Streaming," Stephenson, pp. 66-70; "The Wild Rose of Praise," Stephenson, p. 47; "Energetic Work," Stephenson, pp. 98-9; "The Good Darkness," Stephenson, pp. 38-40; "Naked in the Bee-House," Stephenson, pp. 42-7; "Earthworm Guidance," Stephenson, pp. 59-62; "The Puzzle," Browne, p. 322; "The Time Needed," Browne, pp. 321-2; "A Soul's Journey Through the Time-Worlds," Nicholson's *A Persian Forerunner* of Dante.

Attar

The Ilahi-nama of Attar, tr. John Andrew Boyle, Manchester University Press (Manchester, 1976).

Eastern Poetry and Prose, tr. Reynold Nicholson, Cambridge University Press (Cambridge, 1922).

The Conference of the Birds, tr. C.S.Nott, Shambhala Press (Boulder, 1971).

Sources for specific poems:

ATTAR: "The Newborn," Boyle, pp.164-5; "Listening to the Reed Flute," Boyle, pp.105-6; "The Street-Sweeper," Boyle, p.341; "Looking for Your Own Face," Boyle, p.328; "Mysticism," Nicholson, p.138; "The Woman Who Dressed as a

Man," Boyle, pp. 30-45; The *Conference of the Birds* excerpts, Nott, pp. 114, 116, 119 and pp. 131-2.

Rumi

Discourses, tr. A.J.Arberry, Samuel Weiser (New York, 1961).

Mystical Poems of Rumi, tr. A.J.Arberry, Persian Heritage Series No.3, University of Chicago Press (Chicago, 1968).

Mystical Poems of Rumi, tr. A.J.Arberry, Persian Heritage Series No.23, Westview Press (Boulder, CO, 1979).

Badi-uz-Zaman Furuzanfar, *Kulliyat-e Shams*, 8 vols. Amir Kabir Press, (Teheran, 1957-66). Standard edition of Rumi's odes and quatrains.

John Moyne, unpublished literal translations, done from, and using the numbering of, the Furuzanfar edition listed above.

The Mathnawi of Jalaluddin Rumi, tr. Reynold Nicholson, 8 vols. Luzac & Co. (London, 1925-40).

Rudolf Otto, *Mysticism East & West*, Meridian Books (New York, 1957). Reprinted from the original Macmillan 1932 edition.

Sources for specific poems:

RUMI: "We Point to the New Moon," Furuzanfar #2114, John Moyne; "The Reed Flute," *Mathnawi*, I, 1-16, John Moyne; "Full Moon, Bilal," *Mathnawi*, VI, 846-952, Nicholson; "Say Who I Am," Furuzanfar number not referenced, Otto, p. 93; "Blessing the Marriage," Furuzanfar #2667, Arberry; "A Story Shams Told," Discourse #18, Arberry, "Dying," *Mathnawi*, VI, 750-776, Nicholson; "New Moon, Hilal," *Mathnawi*, VI, 1111-1215, Nicholson; untitled quatrains, Furuzanfar #553, #397, #584, #612, #496, #564, #199, #193, #194 (in the order they appear in this volume), John Moyne; "Now," Furuzanfar #644, Arberry; "The Lame Goat," *Mathnawi*, III, 1114-1127, Nicholson.

Saadi

The Gulistan, or Flower-Garden of Sa'di, tr. James Ross, Walter Scott Ltd. (London, n.d.), reprinted from the 1823 edition.

Sadi: Gulistan, or Flower-Garden, tr. James Ross, Walter Scott Ltd (London, n.d.), reprinted from the 1823 edition.

Morals Pointed and Tales Adorned, the Bustan of Sadi, tr. G.M.Wickens, University of Toronto Press (Toronto, 1974).

Sources for specific poems:

SAADI: "I heard of a man once...," Wickens, pp. 97-8; "A certain man, completely naked...," Ross, p. 138; "A powerful, but moody, man...," Ross, p. 106; "A man had a beautiful wife...," Ross, p. 221; "They put a crow in a cage...," Ross, pp. 218-20; "I asked a scholar...," Ross, p. 259; "A dervish's wife was pregnant...," Ross, p. 252-3; "Having tired of the company..., Ross, pp. 150-1; "In Baghdad an old man...," Ross, p. 163; "The King of Arabia heard the story...," Ross, pp. 226-8; "A certain man entered the city...," Ross, pp. 118-9; "Whoever advises a self-sufficient man...," Ross, p. 281; "This happened when I was young...," Ross, p. 216-8; "One night I was thinking of what I had done...," Ross, pp. 67-72.

Hafiz

Fifty Poems of Hafiz, tr. A.J.Arberry et al., Cambridge University Press (Cambridge, 1962).

E.G.Browne, *Literary History of Persia*, Cambridge University Press (Cambridge, 1964), Vol. III.

Hafiz, *The Divan*, tr. H.Wilberforce Clarke, Octogon Press (London, 1974), reprinted from the 1891 edition.

Michael J. Hillman, *Unity in the Ghazals of Hafiz*, Bibliotheca Islamica (Chicago, 1976).

Sources for specific poems:

HAFIZ: "The Wild Deer," Arberry #47; "Renunciation, and the Other Mystery," Arberry #36; "The Substance You Taste," Arberry #38; "Pour Me More," Arberry #42; "The Danger," Arberry #1; "The Zikr Circle," Clarke #243; "The Wind of an Opening Rose," Clarke #156; "A Daughter," Clarke # 278; "Growing Tulips," Clarke #288; "Midnight Question," Arberry #7; "Almost Empty," Arberry #44; "I See," Clarke #392; "The Brim," Clarke #458; "Ruknabad," Browne, p. 291; "Allahu Akbar Pass," Browne, p. 291; "My Response to Your Offer," Browne, p. 286; "Lost," Arberry #49; "Shiraz," Arberry #27; "Water Running Together," Arberry #24; "The Signal to Begin," Hillman, pp. 127-8; "The Banquet," Hillman, p. 112-3; "Shhh," Hillman, p. 134; "A Shift in the Breeze," Clarke #401; "That Moment in This," Arberry #14; "Taking a Riddle into the Tavern," Arberry #14; "Remember," Clarke #205; "The New Guide," Clarke #244; "Inscriptions Over the Door," Hillman, pp. 138-9; "The Wine of the Question," Hillman, p. 97; "Returning," Clarke #154.

THE HAND OF POETRY

Five Mystic Poets of Persia

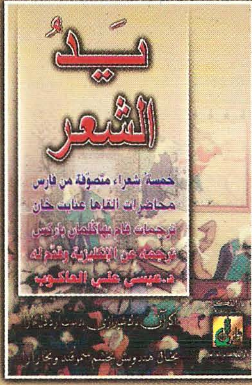
Yad al-Shi‘r

Lectures

Given by: ‘Ināyat Khān

tr.into Eng:Coliman Barx

tr.into Ar.:Dr.‘Īsā al-‘Ākūb



ـ قالوا عن هذا الكتاب ـ

ـ « ما بحث عنه الصّوفيّةُ والدّراويشُ في الماضي هو نفسُه الذي تهفو إليه أفئدةُ كلِّ الباحثين الصّادقين عن « الحقيقة » . وإنّ رسالة عصرنا هي الرسالةُ نفسُها التي قدّمها إلينا هؤلاء الشعراءُ المتصوّفة العظماء ، الذين نظموا أشعارهم في غابر الأزمان . إنّها رسالةُ الحرّيّة » .

Reshad Feild

ـ « إنّها لمتعةٌ حقيقيّة أن يوفّر لنا مثلَ هذا القدر الكبير من الاختيارات الشعرية لخمسةٍ من أعظم شعراء فارس ، مجموعًا بين دفّتي مصنَّفٍ واحد » .

Jerom e Clinton

ـ « تُشبهُ ترجماتُ السيد كُلمان باركس موشورًا من البِلّور المتناهي في الصّفاء ؛ في أنها تركّز وتكثّف الإشعاعَ الرائع والفنيّ بالفكر لأفذاذٍ من مثل : سَنائي ، والعَطّار ، والرُّوميّ ، وسَعْدي ، وحافظ ».

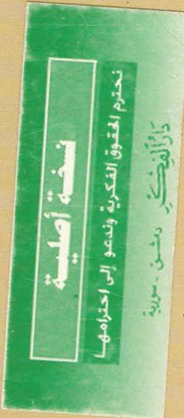
Stephanie Sabato

ـ « رائعٌ دائمًا أن نتذوّق ثمارَ هؤلاء الأساتيذ ، وقد جعل عنايت خان وكلمان باركس حِكْمتَهم ومباهجَهم في متناول أيدينا » .

Ilewellyn Vaughan-Lee

ـ « ما يروقُني ههنا هذا الجمعُ بين الحِكْمة النبويّة والشعر الصوفيّ ، آتيًا إلينا عبر العصور بتسامٍ سرمديّ لا يحدُّه زمان . وتمثّلُ أمامنا تَقْدِماتُ عنايت خان معاصرةً تمامًا نظرًا لاعترافه المباشر من الينبوع . أمّا ترجماتُ كُلمان باركس التي اعتمد فيها صورةً عَصْريّة للشعر الحُرّ فتقدّم مدخلاً جديدًا وخطيرًا إلى هذا الكنز العظيم من الأدب الصّوفيّ » .

David Kherdian



DAR AL-FIKR
3520 Forbes Ave., #A259
Pittsburgh, PA 15213
U.S.A
Tel: (412) 441-5226
Fax: (412) 441-8198
e-mail: fikr@fikr.com
http://www.fikr.com/

يد الشعر



200

ل.س.